الندوة الثالثة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

ملكية الأرض
وأثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية
في الوطن العربي

مكتبة الاسد ٢٨–٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٨

تحت رعاية السيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف ، وبدعوة من السيد رئيس جامعة دمشق الدكتور محمد زياد الشويكي ، رئيس لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، عقدت اللجنة ندوتها الثالثة ، والاولى في سلسلة الندوات العلمية المتخصصة ، وشارك فيها تسعة عشر باحثا من القطر العربي السوري والاقطار العربية ، هم : الدكتور الحبيب الجنحاني الاستاذ في الجامعة التونسية ، والدكتور عاصم الدسوقي عميد كلية الاداب في جامعة اسيوط / فرع سوهاج ، والدكتور محمد عدنان البخيت الاستاذ وعميد البحث العلمي في الجامعة الاردنية ، والدكتور عبد العزيز عوض الاستاذ في جامعة اليرموك والدكتورة مارتا مندى الاستاذة الزائرة في جامعة اليرموك ،والدكتور مسعود ضاهر الاستاذ في الجامعة اللبنانية ، والباحث عبد الله سعيد من الجامعة اللبنانية ، والباحثة فاطمة قشي من جامعة وهران ،والدكتور عبد الكريم رافق الاستاذ ورئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق ، والدكتورة خيرية قاسمية والدكتور محمد حرب فرزات الاستاذان في جامعة دمشق ، والدكتور فيصل عبد الله والدكتور عيد مرعي والدكتورة نجاح محمد المدرسون في جامعة دمشق ، كما شارك في اعمال الندوة الدكتور علي ابو عساف المدير العام للاثار والمتاحف ببحث القي بالنيابة ، والدكتور يوسف نعيسة بمداخلة مطولة .

افتتحت الندوة في الساعة العاشرة من يوم الاثنين الموافق ١٩٨٨/١١/٢٨ في قاعة المحاضرات في مكتبة الاسد، بحضور الرفيق رئيس مكتب الثقافة والاعداد الحزبي في القيادة القومية ، والسيدين وكيلي جامعة دمشق ، وجمهور من الباحثين والمدعوين، والقى السيد الاستاذ الدكتور كمال شرف راعي الندوة في جلسة الافتتاح كلمة جاء فيها :

أيها السادة الاكارم :

يسرني أن افتتح الندوة الثالثة التي تنظمها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة

دمشق ، وأرحب بالاساتذة المؤرخين من الاقطار العربية الشقيقة الذين لبوا دعوتنا مشكورين للمشاركة في هذه الندوة .

أيها السادة ، منذ أقدم العصور اولت الجماعات البشرية اهتماما كبيرا لحفظ احداثها . . وتدوين ما تيسر لها تدوينه ، عندما توافرت لها امكانات التدوين . ونجد ذلك عند كل الامم دون استثناء ، وكأنها شعرت بالفطرة بحاجتها للمحافظة على تاريخها ، مدركة أن وجودها أو واقعها الراهن ليس أمرا عارضا ، انما هو استمرار للماضي من جميع جوانبه الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، وفي جميع ظروفه الطبيعية وعلاقاته مع الامم والجماعات الاخرى . ولعلها أدركت أيضا أن المستقبل سيكون كذلك استمرارا للحاضر ونتيجة له ، ولنا في محفوظات ابلا وماري وأوجاريت ، ومكتبة نينوى ، وفي اهتمام أجدادنا العرب بأنسابهم وتناقلهم لاخبار ماضيهم خير دليل .

وعندما بدأت النهضة العربية الحديثة في القرن التاسع عشر ، كانت العناية بالتاريخ من أهم العوامل التي مهدت لها وحركتها ، وايقظت الشعور القومي ووضحت ملامح الشخصية العربية ، ومنه استمد الرواد القوة والثقة بالنفس .

ونحن اليوم في هذا القطر الصامد بقيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد ، حين نتصدى لاعادة كتابة تاريخنا القومي ، المهمة التي نيط امر الاعداد لها والاهتمام بتهيئة أسبابها بلجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، انما نعد الاساس المكين لنهضتنا القومية المعاصرة ، ونهيء جانبا من جوانب المنعة أمام التحديات الكبيرة التي تحيط بأمتنا ، الثقافية بخاصة ، من قوى لم تعرف البشرية مثيلا لها من قبل : تحاول سلبنا هويتنا وتاريخنا وارضنا ، بعد ان نهبت خيراتنا سنوات طوالا .

ان كتابة تاريخ امتنا العربية العريقة بشكل منهجي وعلمي هي من الواجبات القومية الملقاة على عاتقنا ، والوصول الى الحقيقة خالصة منزهة عن الغرض والهوى هو ما نبتغيه ، لان الحقيقة تتكلم عن نفسها ، وترد الزيف الذي الحق بتاريخنا عن قصد او عن جهل .

وقال السيد الوزير :

لقد شهدت الكتابة التاريخية العربية منذ منتصف هذا القرن وبعد ان تخلصت الاقطار العربية من ربقة الاستعمار والقيود التي حاولت تحجيم تاريخها العربي ، تطورات نوعية هامة ، فأخذت تهتم بتاريخ الوطن العربي ومؤسساته السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وبمنجزاته الحضارية ذات المستوى العالمي ، وذلك من خلال دراسة معمقة تركز على دور الشعب العربي في صنع تاريخه ، وظهرت في هذه المجالات دراسات عربية متخصصة القت اضواء هامة على تركيب المجتمع العربي بهدف فهم التاريخ السياسي للامة بشكل أفضل ، وربطه بجذوره الشعبية ، وتبيان دور

شعبنا الكبير على امتداد الوطن العربي وفي عمق تاريخـه ، وما حققه مـن منجزات حضارية كانت لها اسهاماتها الهامة في الحضارة الانسانيـة بعامـة ، وعبر العصـور التاريخية المتعاقبة .

أيها السـادة ، ان موضوع ندوتكم هـذه « ملكيـة الارض وأثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي » ، عبر عصـوره المختلفـة وعلى امتداده الجغرافي ، يدخل ضمن هذا التوجه الجديد لدراسة تاريخ الامة العربيـة ، وكانت خصوصياته مصدر اثراء لهذه الوحدة تصب في خانتها وتمنحها القـدرة على التلاؤم مع الاوضاع المحيطة بها ، والتفاعل مع الحضـارات العالميـة . فحرى بنا أن نقـرأ تاريخنا قراءة علمية ، كما تفعلون في ندوتكم ، وان نكتبه بايدينا ، موضوعيا ومنهجيا فتتأكد بذلك تلقائيا عناصر وحدته التي هي حقائق تاريخية ثابتة لا يمكن ان تنال منها محاولات التبديل والتشويه مهما حاول المغرضون .

أيها السـادة :

أتمنى لندوتكم النجاح .. وأتمنى لكم التوفيق فيما انتم تنتدون من أجله ..

والقى الاستاذ الدكتور محمد حرب فرزات عضو لجنة كتابة تاريخ العرب كلمـة استهلها بتوجيه الاحترام الى القائد المناضل حافظ الاسد رئيس الجمهورية العربيـة السورية ، والشكر للسيد الاستاذ وزيـر التعليم العالي الدكتـور كمال شرف الذي شمل الندوة برعايته ، وللسيد الاستاذ محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشـق الذي اشرف على اعدادها وتنفيذها ، جاء فيها :

من هنا ، من منطلق البعث العربي المتجدد نجدد الدعوة التي حملتها جامعة دمشق منذ نشأتها وهي دعوة العروبة ، دعوة مضمونها الاصيل بعث الحضارة العربية وتجديد الثقافة العربية واداتها الفذة ، اللغة العربية الخالدة . نجدد هذه الدعوة في ملتقاناهذا الى عمل علمي مشترك ينهض به مؤرخون من كل أرض العرب لكتابة تاريخ لكل العرب من منطلقات علمية موضوعية وقومية عربية واعية لكي يكون هذا العمل المنشود تاريخا قوميا لا قطريا ، شاملا لا مرحليا ، وسجلا علميا للحضارة العربية بكل عمقها الزمني وامتدادها الجغرافي ، وبكل قيمها ومظاهرها وعلاقاتها الانسانية وتاثيراتها المتبادلـة العميقة . عندها يكون هذا التاريخ انجازا حقيقيا كالذي نطمح الى تحقيقه ، يحمـل سمات العصر الذي نعيشه وينقل رؤيـة اجيـال من ابنائـه الى الماضي والحاضر والمستقبل ، من خلال البحث العميق في الاصـول والجذور ، وبالتتبع الدقيق لفعـل الانسان العربي وعمله المثمر في الارض في المكان مسرح التاريخ ، وعلى مدار الزمـن عبر عصور التاريخ المتلاحقة المتعاقبة .

من هذه المنطلقات جاءت بحوث هذه الندوة لتدور حول محور الارض، حول جوانب من أشكال علاقة الارض العربية بالانسان العربي عبر العصور من خلال دراسة موضوع ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي ، بهذا التوجه يمكن ان يكون موضوع التاريخ قصة تحرك الانسان وفعالياته المادية والفكرية على الارض التي يعيش عليها منذ آلاف السنين . هكذا عندما يغدو المجتمع موضوع البحث يرتفع البحث التاريخي من مجرد السرد النظري والتصور الخيالي الى مستوى خطورة البحث التاريخي الحقيقي المدعم بالوثائق والبينات الملموسة لرصد حركة التاريخ رصدا صحيحا في هذه المرحلة من تاريخ الوطن العربي .

وهنا في وطننا العربي تطرح المسألة التاريخية على صعيد البحث في عدد من أقطار الوطن في السنين الاخيرة ، واتخذت من هذه المسألة مواقف محددة ، صيغت بصيغ مختلفة . وتشكل الجهود المبذولة في هذا الصدد في الجامعات ومراكز البحوث العربية تغييرا عميقا في العملية العلمية لكتابة التاريخ الا اننا مازلنا نحتاج الى بذل جهود اكبر لصياغة القناعات المشتركة ولتنسيق آفاق الممارسة العملية لكتابة التاريخ وتحديد ضوابطها الفكرية والمنهجية للتوصل الى جني الثمار المنشودة المرجوة .

ثم القى الاستاذ ناظم كلاس كلمة لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، بين فيها موقع هذه الندوة كخطوة من خطوات تهدف كلها وبمجموعها الى خدمة المشروع الام ، مشروع كتابة تاريخ العرب ، باقلام عربية الانتماء ، رائدها الصدق وتوخي الحقيقة ، تجلو الماضي حياة نابضة لا أحداثا جامدة ، وتبين حوافز الاحياء ودوافعهم بكل غناها وعمقها وتشابكها ، لا ردود فعل لا ارادية . تسلط الضوء على ما لم يحظ بعناية المؤرخين ، وتكشف عن الوحدة العريقة للامة العربية ، وعن التيارات العميقة والمؤثرات المختلفة ، الداخلية والخارجية ، التي حركت تاريخها واعطته خط مسار خاص به ، وعن رسالتها الانسانية ، وعطائها الحضاري ، تكون وسيلة بين أيدي أبناء الامة وأجيالها الطالعة لوعي ماضي أمتهم على حقيقته ، ووضوح رؤيتهم لحاضرها وما يعاني ، وسلامة تصورهم لدروب المستقبل الذي تصبو اليه .

وبعد ان عرض في كلمته لعمل اللجنة في السنوات الماضية ، وما اسفرت عنه الندوتان السالفتان ، وتوصياتهما ، ومنها اصدار « مجلة دراسات تاريخية » (صدر منها حتى الان ثلاثون عددا) ، واحداث اكاديمية او جمعية تاريخية ، وانشاء مكتبة مركزية .. تابع قائلا : ان الموضوعية في التاريخ ، قديما وحديثا ، امر ليس سهل المنال ، وهدف مثالي يصعب تحقيقه ، لذلك نرى شعوب الارض ما زالت تعيد قراءة تاريخها ، وفهمه ، وكتابته . فحري بنا ، نحن العرب ، في هذه المرحلة الصعبة من تاريخ أمتنا ، مرحلة تأكيد الشخصية العربية ، ونحن نتطلع الى ايجاد المعادل السياسي للذات القومية ، ونجابه غزوا ثقافيا وتحديات حضارية ومادية من قوى لا عهد

للعالم بمثلها ، وفي قلب وطننا عدو شرس يحاول ان يسرق تاريخنا بعد ان سرق ارضنا، وفرض علينا معركة البقاء ، حري بنا ان نولي ماضينا ما يستحق من اهتمام ، ونعيد قراءة تاريخنا ، الموغل في القدم ، الغني بالتجارب والاشراق والتقدم ، حين تبوأت هذه الامة مركز الريادة وموقع القيادة في مسيرة الحضارة الانسانية عدة قرون ، وما انتابه من نكسات ونكبات ادت الى واقع التمزق والتخلف ، حري بنا ان نعيد قراءة ماضينا ، وما فيه من عوامل الوحدة الكامنة في وجودنا القومي ، وأنظارنا تتركز على الحاضر والمستقبل .. فلتحشد الطاقات وتتضافر الجهود ،رائدها الصدق والاخلاص والايمان النابع من ذاتها ، تصب كلها في قنوات موحدة لتكوين مدرسة تاريخية عربية، ومهمة الهيئات التي تتبنى هذه الفكرة تمهيد الدروب والمساعدة على تذليل الصعوبات وتجاوز العقبات ، حتى لا ينتهي العمل بكتاب جديد يضاف الى الكتب الموجودة وعلى شاكلتها .

ان لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، ترحب الترحيب الصادق بكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها وفي اغناء فكرتها ، أو يقوم مرحلة من مراحل عملها ، وبكل قلم يرفد مجلتها بالدراسات الجادة التي تندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها ، وتتمنى لكل جهة أو هيئة تعمل في سبيل تحقيق غرضها النبيل كل نجاح وتوفيق ، مع استعدادها للتعاون معها ، الى اقصى حدود التعاون ، وتبادل الخبرات وتلمس السبل السليمة في العمل ، فهدفنا واحد ، وتراثنا واحد ، وكفاحنا واحد في سبيل المستقبل الواحد .

وبعد استراحة قصيرة ، عقدت الجلسة الاجرائية برئاسة الدكتور عبد الكريم رافق والدكتور عادل زيتون مقررا ، وتم فيها :

آ ــ انتخاب الدكتور محمد زياد الشويكي رئيس جامعة دمشق رئيسا للندوة.

ب ــ انتخاب الدكتور عبد الكريم رافق رئيس قسم التاريخ نائبا للرئيس .

جـ ــ انتخاب الدكتور عاصم الدسوقي عميد كلية الاداب في جامعة اسيوط مقررا عاما .

د ــ انتخاب السيد ناظم كلاس ناطقا باسم الندوة .

هـ ــ اقرار ورقة العمل ، وتتضمن عقد جلستي عمل يوميا ، الاولى صباحية من الساعة ٩ الى ١٣، والثانية مسائية من الساعة ١٦ الى ١٩ ، تتخلل كل منهما استراحة قصيرة . وتجري المداخلات في كل فترة على حدة .

وفي الساعة السادسة عشرة بدات جلسات العمل (أربع جلسات خلال ايام الاثنين والثلاثاء والاربعاء) وألقي فيها أربعة عشر بحثا تناولت جوانب عديدة من الموضوع المحوري للندوة ، في عصور التاريخ العربي المتعاقبة :

- **الحيازة الزراعية وآثارهافيمجتمع بلاد الهلال الخصيب خلال عصر الممالكالقديمة.**

  د. علي ابو عساف .

- **ملكية الارض في عهد حمورابي .**

  د. عيد مرعي .

- **الانسان والارض في الالاخ في القرنين الثامن عشر والخامس عشر قبل الميلاد .**

  د. فيصل عبد الله .

- **المكلية العقارية في المجتمع الارامي في اسوان (من خلال نصوص آرامية من القرن الخامس قبل الميلاد) .**

  د. محمد حرب فرزات .

- **ملكية الارض وأثرها في التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الاسلام.**

  د. الحبيب الجنحاني .

- **غوطة دمشق في القرن السادس عشر ـ الارض والسكان والضرائب .**

  د. محمد عدنان البخيت .

- **الفئات الاجتماعية وملكية الارض في بلاد الشام في الربع الاخير من القرن السادس عشر .**

  د. عبد الكريم رافق .

- **الملكية الخاصة للاراضي الزراعية في مصر ـ النشأة والتطور (١٨٣٧ـ١٨٩٩).**

  د. عاصم الدسوقي .

- **نظام ملكية الارض في بلاد الشام وآثاره الاقتصادية والاجتماعية (١٨٣٩ـ١٩١٤).**

  د. عبد العزيز عوض .

- **اضواء على نشوء الملكية الخاصة في لبنان وتطورها ـ دراسة في المنهج .**

  د. مسعود ضاهر .

- **ملكية الارض ونظام الري في وادي ضهر في اليمن خلال القرون الثلاثة الاخيرة .**

د. مارتا مندي .

- **الملكية الزراعية في جبل لبنان ابان حكم القائمقاميتين (من خلال وثائق أصلية) .**

عبد الله سعيد

- المواجهة الاقتصادية مع الاستيطان الصهيوني ـ التمسك بملكية الارض (١٨٨٢ ـ ١٩٤٨) .

د. خيرية قاسمية .

- **وقفة تاريخية نقدية عربية مع مقولة اسلوب الانتاج الاسيوي .**

د. نجاح محمد .

وشارك الدكتور يوسف نعيسة في المناقشات بمداخلة مطولة عن ملكية الارض والعلاقات الزراعية في بلاد الشام في النصف الاول من القرن التاسع عشر .

● وفي ختام اعمال الندوة ، وبنتيجة الحوار وتعبيرا عما دار فيها من مداولات، رأي المشاركون ان يتقدموا بالتوصيات التالية :

١ ـ طبع البحوث ونشرها وتوزيعها على أقسام التاريخ في الجامعات العربية .

٢ ـ تيسير سبل الافادة من مكتبة لجنة كتابة تاريخ العرب في جامعة دمشق للمؤرخين والباحثين العرب ، أيا كانت مواطن عملهم ، بعد تجهيزها بكل ما يساعد على تعميق الدراسات ، من مصادر ومراجع ، عربية واجنبية ، ومن اجهزة مكتبية حديثة .

٣ ـ متابعة عقد الندوات العلمية المتخصصة وجعلها دورية، وتوسيعها بقدر الامكان.

٤ ـ ان يكون محور الندوة القادمة « البنى الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي، في عصوره المختلفة » .

٥ ـ تيسير مشاركة المؤرخين في الندوات والمؤتمرات العربية والدولية التي تتصل أعمالها بالتاريخ العربي ، وتوسيعها .

٦ ـ التمني على الجهات المسؤولة والمختصة في القطر العربي السوري انشاء المركز العلمي للدراسات والبحوث التاريخية ، يعمل على درس وتحليل تراثنا ونشره، وربطه بحاضرنا وتطلعاتنا المستقبلية ، وتسهيل سبل احداث جمعية علمية تاريخية في القطر .

٧ ـ توجيه الشكر والامتنان العميق لسيادة الرئيس المناضل حافظ الاسد ، رئيس الجمهورية العربية السورية لما يوليه من اهتمام ورعاية للعلم والعلماء ، وبخاصة لتاريخ الوطن العربي ، وللسيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف لرعايته لهذه النـدوة .

وفي ختام اعمال الندوة وجه المنتدون الى الرفيق المناضل حافظ الاسد ،الامين العام لحزب البعث العربي الاشتراكي ، رئيس الجمهورية ، البرقية التالية :

سيادة الرئيس حافظ الاسد ـ رئيس الجمهورية العربية السورية :

من مكتبة الاسد ،وبمناسبة انعقاد الندوة الثالثة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق في الفترة من ٢٨ الى ٣٠ تشرين الثاني ١٩٨٨ حول محور « ملكية الارض واثرها في التبدلات الاجتماعية والاقتصادية في الوطن العربي » يتشرف المشاركون في هذه الندوة ، من الاقطار العربية والقطر العربي السوري ، برفع اسمى آيات الاحترام والشكر لشخصكم الكريم لرعايتكم المستمرة للعلم والعلماء، وللاهتمام الشخصي الذي تولونه لمشروع كتابة تاريخ الامة العربية التي تعتز بقيادتكم، ويعاهدونكم على بذل اقصى الجهود لتنقية تاريخ هذه الامة مما لحق به وشابه من زيف ، وكتابته باقلام عربية الانتماء ، كتابة علمية منهجية ، وبنظرة قومية حضارية شاملة تتيح لابناء هذا الجيل وعي حقيقة تاريخ امتهم وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها ،ولهم في تشجيع سيادتكم خير هاد ودليل .

وفقنا الله لخدمة هذا الوطن في ظل قيادتكم الرائدة .

وتفضلوا بقبول فائق الاحترام والتقدير من المؤرخين العرب

ووجهوا الى السيد وزير التعليم العالي الدكتور كمال شرف البرقية التالية :

المشاركون في الندوة الثالثة للجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق ، من المؤرخين والباحثين من الاقطار العربية والقطر العربي السوري ، يتقدمون اليكم بخالص الشكر والتقدير لرعايتكم الكريمة لهذه الندوة ، وتوفيركم كل الاسباب التي اتاحت لها النجاح في عملها . وفقكم الله في خدمة الوطن والامة في ظل القيادة التاريخية للرفيق المناضل الرئيس حافظ الاسد .

*** تصدر بحوث الندوة في عدد خاص من مجلة دراسات تاريخية .**

مظاهر اقتصادية واجتماعية من لواء حماه
٩٤٢ـ٩٤٣ / ١٥٣٥ـ١٥٣٦

د . عبدالكريم رافق

جامعة دمشق

مقدمـــة :

هذا البحث مبني بكامله على وثائق السجل الاول مـن سجلات محكمة حمـاة الشرعية . ويضم هذا السجل القضايا التي عرضت على هذه المحكمة بين ١٨ جمادى الاولى ٩٤٢ وغرة ربيع الاول ٩٤٣ / ١٤ تشرين الثاني ١٥٣٥ و ١٨ آب ١٥٣٦(١) . ويتألف السجل في الواقع من ٢٤٠ صفحة تضم ما مجموعه 1156 قضية استخدمنـا منها ١٠٩٠ قضية(٢) ، ويعد من أقدم سجلات المحاكم الشرعية المعروفة في بلاد الشام (باستثناء سجلات القدس الشريف التي تبدأ في عام ٩٣٦ / ١٥٣٠)(٣) . ولم يسبق لهذا السجل أن درس بشكل دقيق وشامل بالرغم من أهميته سواء بالنسبة لتاريخه المبكر أو لمحتوياته(٤) . وأهمية سجل حماة هذا تكمن في نوعية القضايا التي يعالجها في فترة مبكرة من الحكم العثماني في بلاد الشام ذلك ان هذه الفترة بالرغم من كونها مرحلة انتقال بين ادارة مملوكية وأخرى عثمانية فانها تصف أنظمـة وانماطا عربية اسـلامية كانت سائدة في الاقتصاد والمجتمع . وتتبدى أهمية هذه الدراسة بمقارنتها مع فترات لاحقة من تاريخ حماة أو غيرها من مدن بلاد الشام للتعرف على ما أصاب هذه الانظمة والانماط من تبدلات ، كما أنه يجدر مقارنتها مع الاوضاع المماثلة في مدن أناضولية مثلا في فترات زمنية موازية . وتطرح هـذه المقارنة موضوعا هاما حـول مـدى تطابق أو اختلاف الانظمة والانماط الاقتصادية والاجتماعية ، ذات القاعـدة الاسلامية ، التـي كانت سائدة في المناطق العثمانية ـ الاسلامية والمناطق العربية ـ الاسلامية ابان الحكم العثماني ،مثال ذلك الفائدة على القروض والديون التي أخذت بها ونصت عليها سجلات المحاكم الشرعية في مدن الاناضول(٥) والتي لم تنص عليها سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشـام ، وتطرح هنا مشكلة الموروث مـن التراث ومدى تأثـر كل منطقة في الدولـة العثمانية به ، وكذلك مدى فهم وتطبيق مبادىء الشريعة .

اعد هذا البحث للكتاب التكريمي لاستاذنا الدكتور عبد الكريم محمود غرايبة ، أستاذ تاريخ العرب الحديث والمعاصر في جامعة دمشق سابقا ، وعميد كلية الآداب في الجامعة الاردنية حاليا ، بمناسبة بلوغه الخامسة والستين . وسينشر في الكتاب المومى اليه الجزء المتعلق بالمظاهر الاقتصادية فقط نظرا لضيق المكان . وننشر هنا البحث كاملا .

دراسات تاريخية ، ٣١ و ٣٢ ، آذار ـ حزيران ١٩٨٩

ويُعنى سجل حماة قيد الدراسة بنوعين رئيسيين من القضايا : نوع مالي يدور حول القروض والديون وبيع السلم وما يرتبط بها من كفالات للمال وللاشخاص ، ومن فئات اجتماعية تتعاطاها ، ومن أنواع للسلع التي تشكل مدارها ، ونوع اجتماعي يتعلق بالاحوال الشخصية ، وبخاصة عقود الزواج ، وكذلك بقضايا الامن والاخلاق العامة . وفي النوعين لا تقتصر القضايا على مدينة حماة بل تشمل ريفها التابع لها قضائيا ، ومن شأن ذلك أن يجعل الصورة أكثر تكاملا وامتدادا وعمقا . ويتضح عندئذ دور الفئات الاجتماعية ، على اختلاف مواقعها الجغرافية ، في السوق المالية ، دائنة كانت أم مديونة ، ومدى مساهمة كل فئة منها في الانشطة الاقتصادية والاجتماعية المختلفة . وتنبع أهمية القضايا التي تعرضها سجلات محكمة حماة الشرعية من أهمية هذه المدينة بالنسبة لموقعها الجغرافي وتنوع نشاطها الاقتصادي . والى جانب كونها سوقا للبدو وللقرويين وتشابك مصالح سكانها مع مصالح هؤلاء فقد كانت حماة محطة رئيسية على الطريق التجارية التي ربطت مدينة حلب بأحد مينائيها الرئيسيين وهو طرابلس (الآخر كان الاسكندرونة) . وهرع اليها التجار البنادقة ، استمرارا لتقاليد سابقة ، لشراء قطنها المعروف بالحموي السقي ذي الشهرة مقابل بيع الجوخ فيها . وتعايشت المذاهب المختلفة في حماة التي سكنها مسلمون ومسيحيون ويهود . وعاش في عدد من قراها المسيحيون الى جانب المسلمين . وسكنت حماة وريفها أسر تركمانية أقامها العثمانيون لصد هجمات البدو على المناطق الآهلة .

تبعت حماة في القرن السادس عشر ولاية طرابلس . ولكن يصعب تحديد تبعيتها في السنتين اللتين نعالجهما . فقد ذكر الاخباري الدمشقي محمد بن طولون الذي كتب عن بدايات الحكم العثماني أن السلطان سليم الاول عهد في ٥ صفر ٩٢٤/١٦ شباط ١٥١٨الى جان بردي الغزالي بنيابة دمشق «ومعها من بلاد المعرى الى عريش مصر»(٦)، وهذا يعني انها شملت حماة . وتتضارب الاقوال حول تأسيس ولاية طرابلس العثمانية، التي تبعتها حماة فمن قائل انها تشكلت في حوالي عام ١٥٧٠(٧) ، ومن قائل ان قانونا ينظم شؤونها كولاية صدر في ٩٢٦ / ١٥١٩ ـ ١٥٢٠ ، كما صدرت قوانين أخرى لها في ٩٥٤/١٥٤٧ و ٩٧٩/١٥٧١(٨) . ويشير سجل حماة في بعض القضايا الى اسم امير لواء حماة (مثلا في ٣ رجب و ٢٤ رجب و ١٩ شوال ٩٤٢/٢٨ كانون الاول ١٥٣٥ و١٨ كانون الثاني و ١١ نيسان ١٥٣٦) بأنه « مفخر الامرا سلطان حمزة » أو « مفخر الامرا حمزة سلطان مير لوا حماة »(٩) .

مظاهر اقتصادية :

تستأثر قضايا الديون بأنواعها بالمكانة الاولى بين المظاهر الاقتصادية في لواء حماة،

ودراستها من الاهمية بمكان لانها تطلعنا على هوية الفئات الاجتماعية التي تعاطت ذلك، وعلاقة الريف بالمدينة في هذا المجال ، والاخلاقية التي انتظمت المعاملات المالية .

تشغل قضايا الدين حوالي ٤٢٩ قضية من مجموع القضايا المدروسة في سجل حماة والبالغ ١٠٩٠ قضية ، اي بنسبة حوالي ٣٩٪ ، مما يدل على المكانة الكبرى التي شغلتها الديون في اقتصاد تلك الفترة ،وعلى كثرة توظيف المال في هذا الميدان الذي درّ ولا شك أرباحا هامة على الدائنين ويسّر أو ربما كبّل مصالح المديونين حسب نوعية الدين وشروطه . وتدل كثرة الديون على انها كانت ضرورة اقتصادية هامة وأن لا غضاضة اجتماعية في عقدها . كما أن اللجوء الى المحكمة الشرعية لتثبيت مبالغ الديون وشروطها دليل ، من ناحية ، على احترام السكان للقضاء بسبب فعاليته ، وضمانة للوفاء بالدين من ناحية أخرى. ولمعرفة انواع الديون وهوية الفئات الاجتماعية الفاعلة في السوق المالية ، دائنة كانت أم مديونة ، ونسبة المدنيين الى الريفيين بين هؤلاء ، والذكور الى الاناث،وأصحاب المذاهب المختلفة بينهم سنعتمد الجداول والارقام لدراسة ذلك بشكل دقيق .

ترد في سجل حماة اربع عمليات مالية رئيسية هي القرض ، والدين الشرعي (المالي) ، والبيع والشراء بالدين ، ثم السلم الشرعي. فالقرض غالبا ما لحقت به كلمة الحسن (القرض الحسن) ، وأحيانا كلمة الشرعي (القرض الشرعي) . وفي الحالين يشار الى المبلغ او الشيء المتوجب على المستقرض دفعه الى المقرض انه بذمة الاول الى الثاني . ومن الآراء الشرعية ما يساوي القرض بالاعارة واذا صار فيه منفعة فهو ربا ، وبالتالي يكون حراما . وقد يكون القرض مالا أو عينا(١٠). وتعبير القرض الحسن يعني انه عمل خير الهدف منه المساهمة في تفريج كربة رجل معسر ماليا بتقديم المال له بدون فائدة . وقد جاء في الفتاوى الكبرى لابن حجر ، من أهل القرن العاشر الهجري ، سؤاله : هل الافضل القرض أو الصدقة ، فأجاب : « القرض أفضل كما جزم به ابن الرفعة والنشائي وغيرهما بخبر درهم الصدقة بعشرة والقرض بثمانية عشر ووجهه أن طالب القرض انما يطلبه عن حاجة غالبا بخلاف طالب الصدقة واعترض بخبر من أقرض درهما مرتين فله مثل اجر صدقة مرة »(١١) . وتعبير القرض الشرعي يعني انسجام القرض مع الاصول الشرعية وانه بدون فائدة . ولا يشير سجل حماة في الواقع الى اية فائدة على المبالغ المقدمة كقرض أو قرض حسن أو قرض شرعي . كما وانه لا يحدّد القرض بأجل ، وذلك حسب الاصول الشرعية(١٢) .

وباستعراض القروض في سجل حماة الذي تمتد فترته على ٢٧٨ يوما نتبين أن عددها كان ٩٦ قرضا موزعة كالتالي : ٨٠ اشير اليها بكلمة قرض و ٦ بالقرض الحسن

و١٠ بالقرض الشرعي ، أي بمعدل حوالي ثلاثة قروض في اليوم . وهناك بضع حالات ورد فيها دين الى جانب القرض وأعطي المبلغ الاجمالي لذلك وقد اعتبرنا ما يخص القرض جزءا بالتساوي مع الدين بالنسبة لكامل المبلغ . وفعلنا ذلك في الحالات المماثلة . وباستعراض هوية الفئات الاجتماعية المقرضة والمستقرضة وعدد المقرضين والمستقرضين والمبالغ المالية الموظفة في ذلك تتبين لنا الاحصاءات التالية :

	المقرضون	المبالغ			المستقرضون	المبالغ		
الفئات الاجتماعية	عدد المقرضين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره	عدد المستقرضين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره
موظفون	٥	٣٦٠٠٠	–	–	–	–	–	–
عسكريون	١	١٩٢٠	–	–	١	١٠٠٠	–	–
علماء	٤٣	٦٢٨٤	١٧٢٦٥	١٥ر٢١ مكوك حنطة ٥٠ر٨ م شعير ٥٦ شنبل شعير	١	٥٠٠٠	–	–
حجاج	١٠	–	٢٥٧٩٠	٣ م حنطة ٦ ش شعير ٦ ش ذرة	٥	١٠٠٠	٤١٩٠	–
عاديون	٣٢	٤٠٠٠	١٨٤٤٥	١١ قبرصي ٥٠ر٣ م حنطة ٣ ش حنطة	٣١	٩٣٠٠	٢٦٢٨٠	١٠ قبرصي ٥٠ر٣ م حنطة ٣ ش حنطة
ريفيون	١	–	٢٨٢	–	٧٤	١٧٦٠٤	٢٥٢٦٢	١ قبرصي ٢٥ر٣٤ م حنطة ٥٠ر٨ م شعير ٥٦ ش شعير ٦ ش ذرة
نساء	٢	–	٣٥٥٠	–	٢	٤٠٠	٨٠٠	–
مسيحيون	١	–	١٢٠٠٠	–	٩	١٤٠٠٠	١٣٢٠٠	–
يهود	–	–	–	–	١	–	١٧٥٠٠	–
اجانب	١	–	١٠٠٠٠	–	–	–	–	–
المجموع	٩٦	٤٨٣٠٤	٨٧٤٣٢	١١ قبرصي ٧٥ر٢٧م حنطة ٥٠ر٨ م شعير ٥٦ ش شعير ٣ ش حنطة ٦ ش ذرة	١٢٤	٤٨٣٠٤	٨٧٤٣٢	١١ قبرصي ٧٥ر٢٧ م حنطة ٥٠ر٨ م شعير ٥٦ ش شعير ٣ ش حنطة ٦ ش ذرة

ويمكن تحويل هذه الارقام الى وحدة نقدية متماثلة هي الدرهم الحلبي مثلا لانه الاكبر كمية والاكثر استخداما لنصل الى نسبة موحدة لكل فئة اجتماعية تبرز دورها كثرة أو قلة ، كمقرضة أو مستقرضة . ولعل المقصود بالدرهم العثماني الاقجة الفضية ، وهي وحدة النقد الاساسية في الدولة العثمانية ، وكان اسمها الكامل « اقجة عثماني » وتختصر الى عثماني(١٣) . وكان الدرهم العثماني يعادل درهمين ونصف درهم حلبي(١٤) . أما القبرصي الموصوف بالافرنجي الذهب والذي كان معروفا في دمشق منذ السلطنة المملوكية(١٥) فكان يعادل في حماة في فترة قريبة من فترتنا ١٨٢ر٦٩ درهما حلبيا(١٦) . وكان وسطي ثمن مكوك الحنطة حوالي ٨٥٠ درهما حلبيا. أما مكوك الشعير فكان ثمنه ١٢٨ درهما عثمانيا(١٧). وهذا ما يعادل ٣٢٠ درهما حلبيا. وكان سعر شنبل(١٨) الحنطة حوالي ٥٣درهما حلبيا ، وسعر شنبل الشعير ٢٠درهما حلبيا . ولا يعرف سعر شنبل الذرة . وعلى هذا يمكن تحويل الدراهم العثمانية وأسعار بعض السلع في الجدول السابق الى دراهم حلبية كما يلي :

الفئات الاجتماعية	عدد المقرضين	النسبة	المقرضون – المبالغ بالدراهم الحلبية	النسبة	عدد المستقرضين	النسبة	المستقرضون – المبالغ بالدراهم الحلبية	النسبة
موظفون	٥	٢١ر٥	٩٠٠٠٠	٣٦ر٥٤	–	–	–	–
عسكريون	١	١ر٠٤	٤٨٠٠	١ر٩٥	–	٠ر٨١	٢٥٠٠	١ر٠١
علماء	٤٣	٤٤ر٧٩	٦٣٦٢٧	٢٥ر٨٣	١	٠ر٨١	١٢٥٠٠	٥ر٠٨
حجاج	١٠	١٠ر٤٣	٢٨٣٤٠ + ٦ (شنابل ذرة)	١١ر٥١	٥	٤ر٠٣	٦٦٩٠	٢ر٧٢
عاديون	٢٢	٢٣ر٢٣	٣٢٥٨٨	١٣ر٦٤	٣١	٢٥ر٠٠	٥٤٥٩١	٢٢ر١٧
ريفيون	١	١ر٠٤	٣٨٢	٠ر١٦	٧٤	٥٩ر٦٧	١٠٢٥٠٦ + ٦ (شنابل ذرة)	٤١ر٦٢
نساء	٢	٢ر٠٨	٣٥٥٠	١ر٤٤	٢	١ر٦١	١٨٠٠	٠ر٧٣
مسيحيون	١	١ر٠٤	١٢٠٠٠	٤ر٨٧	٩	٧ر٢٦	٤٨٢٠٠	١٩ر٥٧
يهود	–	–	–	–	١	٠ر٨١	١٧٥٠٠	٧ر١٠
اجانب	١	١ر٠٤	١٠٠٠٠	٤ر٠٦	–	–	–	–
المجموع	٩٦	١٠٠ر٠٠	٢٤٦٢٨٧ + ٦ (شنابل ذرة)	١٠٠ر٠٠	١٢٤	١٠٠ر٠٠	٢٤٦٢٨٧ + ٦ (شنابل ذرة)	١٠٠ر٠٠

نلاحظ في الجدول أعلاه أن عدد المقرضين وهو ٩٦ يقل عن عدد المستقرضين البالغ ١٢٤ ويشكل نسبة حوالي ٧٧٪ منه مما يدل على زيادة في عدد المحتاجين للقروض وعلى تجمع الاموال في أيد أقل . وكان المقروضون أفرادا في جميع الحالات في حين أن المستقرضين شكلوا أحيانا جماعات بلغت بين الاناس العاديين (من غير ذوي الالقاب) خمس حالات اشترك في كل منها مستقرضان . وترتفع نسبة الاستقراض الجماعي بين الريفيين فهناك حالة واحدة اشترك فيها أربعة أشخاص في قرض واحد ، وحالة اخرى شارك فيها ثلاثة أشخاص ، وخمس حالات شارك فيها مستقرضان . ويدل هذا على شدة حاجة الاناس العاديين وبخاصة الريفيين للقروض واضطرار بعضهم للاشتراك في قرض واحد ليكفل بعضهم بعضا أمام القرض .

وفي حين ترتفع نسبة الاناس العاديين بين المقرضين (٣٣ر٣٣٪) فان نسبة ما يقدمونه من قروض لا تتعدى ١٣ر٦٤٪ من مجموع القروض . ويتفوق العلماء على العاديين في نسبة المقرضين (٧٩ر٤٤٪) ، وهي أعلى نسبة ، وكذلك في نسبة المبالغ المقرضة (٨٣ر٢٥٪) . ويفسر ذلك بكون معظم هؤلاء العلماء من المتولين أو النظار على الاوقاف . ويتكرر اسم أحدهم سيدي محمد بن يوسف الناصري في العديد من القروض لكونه ناظرا على أعداد من الاراضي الزراعية المعروفة بالازوار (جمع زور) التي تسقى من مياه العاصي ، وبخاصة البساتين . ويتبوأ المرتبة العليا في نسبة القروض المقدمة (٥٤ر٣٦٪) الموظفون وعلى رأسهم أمين خواص السلطنة في حماة وهو ابو بكر ابن الطحان الذي قدّم أربعة قروض من أصل خمسة تخص هذه الفئة من المقرضين. وكانت أرقام القروض التي قدمها من أعلى الارقام (بلغت مفرداتها ٨٠٠٠ و ١٠٠٠ و ٨٠٠٠ و ١٤٠٠٠ درهم عثماني) أي ما يعادل ٣١٠٠٠ من مجموع القروض التي قدمها الموظفون والبالغ ٣٦٠٠٠ درهم عثماني ، وهو ما يعادل ٧٧٥٠ درهم حلبي من مجموع ٩٠٠٠ درهم حلبي . ولا نعلم فيما اذا كانت القروض التي قدمها ابو بكر بن الطحان هي من أموال خواص السلطنة (أي الاراضي الاميرية التي يزيد دخل الخاص الواحد منها عن مائة الف اقجة والتي يذهب ريعها الى السلطان العثماني)(١٩) التي كان أمينها ام من امواله الخاصة .

وكان هناك مقرض اجنبي واحد هو كرسيول بن فرنسيس الاجنبي البندقي ، كما يذكره سجل حماة ، (٢٠) وكانت له علاقات تجارية مع ناصر ابن الحاج محمد بن الشنار الذي اقرّ في المحكمة ان بذمته لكرسيول هذا من القطن المحلوج السقي الحموي بطريق السلم الشرعي المقبوض راس مال السلم في مجلس العقد مبلغ ٦٠٠٠ درهم حلبي مؤجل تسليمها الى ثلاثة وتسعة اشهر . وفي ذمة ناصر لكرسيول مبلغ عشرة آلاف درهم حلبي من جهة القرض .

واذا ما استعرضنا فئات المستقرضين تبين أن أكبر فئة بينها ، من حيث العدد والمبالغ المستقرضة ، هي فئة الريفيين اذ شكلوا ٥٩ر٦٧٪ من مجموع المستقرضين واقترضوا ما نسبته حوالي ٤١ر٦٢٪ من مجموع المبالغ المستقرضة ، مما يدل على حاجة الريفيين للقروض . وكذلك للديون بأنواعها كما سنرى لاحقا . وتشكل القروض التي حصل عليها الريفيون أعلى نسبة في مفرداتها ، سواء لجهة الدراهم العثمانية أو الحلبية أو كميات الحبوب التي اقترضوها . ويدل هذا على أن السيولة المالية كانت تتجه من مدينة حماة الى ريفها وان هناك ثقة بين المقرض في المدينة والمستقرض في الريف أو لنقل هيمنة الاول على الثاني لان القروض التي هي أساسها عمل خير كانت تتفوق عليها نسبة الديون التي يستدينها الريفيون من سكان المدينة والتي كانت تصب في النهاية لصالح هؤلاء الاخيرين .

ويلي الريفيين والعاديين في نسبة الاستقراض المسيحيون سواء لجهة الاعداد (٢٦ر٧٪) أو لجهة المبالغ المستقرضة (١٩ر٥٧٪) . وكانوا بمعظمهم من سكان قرى حماة وبخاصة قرية كفر بهم . واذا أضفنا نسبهم الى الريفيين الذين هم منهم لارتفعت نسبة أعداد الريفيين المستقرضين الى ٦٦ر٩٣٪ ونسبة المبالغ التي استقرضوها الى ١٩ر٦١٪ .

وترد حالة استقراض واحدة ولكن بنسبة كبيرة ومقترنة بدين من قبل يهودي في حماة هو اسحق بن نصر الله اليهودي الذي لوحق كفيله حسن بن خضر اليهودي من قبل المقرض والدائن الحاج علي ابن الحاج عمر بن الطحان الذي كان له بذمته ٣٥٠٠٠ درهم حلبي عن ثمن جوخ وقرض مقسطة عليه في كل شهر مبلغ ألف درهم حلبي اعتبارا من ١١ ربيع الاول ٩٤٠/٣٠ أيلول ١٥٣٣ فأنكر حسن ولكن الشهود المعدولين أثبتوا ذلك (٢١) .

وثمة ملاحظة اخرى وهي أن المبالغ الموظفة في القروض من قبل ٩٦ مقرض يشكل وسطي الاقراض منها للمقرض الواحد حوالي ٢٥٦٥ درهما حلبيا في حين أن وسطي ما اصاب المستقرض الواحد يبلغ حوالي ١١٨٦ درهما حلبيا .

والى جانب القروض يذكر سجل حماة عمليات مالية أخرى أهمها الديون بأنواعها والسلم الشرعي . وعلى خلاف القرض كانت جميعها محددة بأجل . ولم ينص سجل حماة على الفائدة في عمليات الدين ، وأشار الى الدين غالبا بأنه دين شرعي ، في حين أن سجلات المحاكم الشرعية في مدن الاناضول ، التي درست بالنسبة لاوائل القرن السابع عشر ، نصت على الفائدة أو المعاملة في قضايا الدين الشرعي(٢٢) .

ويبدو أن اقرار الفائدة أو المعاملة بصورة رسمية قد صدرت من قبل شيخ الاسلام وهو المفتي الاكبر في استانبول أبو السعود أفندي الذي شغل منصب الافتاء بين ٩٥٢ ووفاته في ٩٨٢/١٥٤٥ و ١٥٧٤ والذي حاول التوفيق بين القوانين العثمانية والشريعة . ويشير الى الفتاوى التي أصدرها أبو السعود في هذا المجال فقيه دمشق محمد أمين الشهير بابن عابدين (١١٩٨/١٧٨٣ – ٢١ ربيع الثاني ١٢٥٢/٥ آب ١٨٣٦) فقد ذكر فيحاشيته وهي الدر المحتار : «قلت وفي معروضات المفتي أبيالسعود لو أدان زيد العشرة بأثنيعشر أو بثلاثة عشر بطريق المعاملة فيزماننا بعد أن ورد الامر السلطاني وفتوى شيخ الاسلام بأن لا تعطى العشرة بأزيد من عشرة ونصف ونبه على ذلك فلم يمتثل ماذا يلزمه فأجاب : يعزر ويحبس الى أن تظهر توبته وصلاحه فيترك وفي هذه الصورة هل يرد ما أخذه من الربح لصاحبه فأجاب ان حصله منه بالتراضي ورد الامر بعدم الرجوع »(٢٢) . وقد أورد ابن عابدين هذه الفقرة ذاتها في كتابه الآخر : العقود الدرية ، مشيرا الى ورودها في الدر المحتار ، ولكنه أضاف عليها بعد « الرجوع» عبارة : « لكن يظهر أن المناسب الامر بالرجوع » . ويستطرد ابن عابدين قائلا : « فقد أفاد ورود الامر السلطاني والافتاء بناء عليه بأن لا تعطى العشرة بأكثر من عشرة ونصف ورأيت بخط شيخمشايخنا السائحاني بأنهناك فتوىأخرىبأن لا تعطيالعشرة بأكثر من احدى عشرة ونصف وعليها العمل وكأنه ورد أمر آخر بذلك بعد الامر الاول لكن قدمنا في كتاب الدعوى عن الفتاوى الخيرية ان أمر السلطان نصره الله تعالى لا يبقى بعد موته .. وعلى فرض بقاء حكم أمره بعد موته الى الان أو ورود أمر جديد بذلك من سلطان زماننا .. فانما يحبس المخالف ويعزر لمخالفته الامر السلطاني لا لفساد المبايعة »(٢٤) .

وهكذا يميز الفقيه ابن عابدين بين الاوامر السلطانية وقواعد الشريعة . ونظرا لان فتاوى أبي السعود واوامر السلطان بالعمل بها قد صدرت بعد فترة سجل حماة التي نعالجها فانه يصعب معرفة بداية تطبيقها في بلاد الشام . وهناك اشارة في أحد سجلات حلب الشرعية من عام ٩٩٤/١٥٨٥ الى دين شرعي « على حكم العشرة بأحد عشر ونصف بموجب الامر الشريف السلطاني»(٢٥). وتبرز في حلب آنذاك فئة محترفة من الدائنين تعطي الدين بالفائدة(٢٦) . كما أن الفائدة في حماة بلغت في تلك السنة (٩٩٤/١٥٨٥) مقدار ١٥ ٪(٢٧) .

وعلى هذا فان السكان في لواء حماة والمحكمة الشرعية فيها ، في فترة دراستنا ، أي قبل صدور فتاوى أبي السعود واوامر السلطان بتطبيقها ، قد التزموا بتطبيق المبادىء الشرعية . وقد ورد استخدام المعاملة أو المرابحة ، ولكن فيما يخص اموال

القاصرين كما يقضي الشرع بذلك . فقد جاء في احدى القضايا مطالبة وصي على فتاة لشخص آخر عامل لها بمبلغ ١٢٥٠٠ درهم حلبي كانت قد ورثته عن أبيها وجدتها لابيها (٢٨) ولكن السجل لم يذكر الربح الذي ترتب للقاصرة من جراء المعاملة .

وهناك عدة قضايا تشير الى محاولات بعض الدائنين ابتزاز المستدينين بواسطة ما سمي بالغصب أو الظلم فكان القاضي ينصف المغبونين ، وينتهي المتقاضون الى المصالحة . مثال ذلك ان دائنا طالب مدينا بمبلغ ٣٢٠٠ درهم عثماني بذمته فاحتج الاخير بأن المدعي أخذ ذلك منه ظلما وان المبلغ قدره ١٥٠٠ درهم عثماني وتمت المصالحة على دفع المبلغ الاخير فقط وسجل ذلك في المحكمة(٢٩) . وتدل هذه القضية وبعض القضايا الاخرى التي تعنى بابطال المطالبة بالمال ظلما أو بالغصب على حس متميز من العدل بين السكان وعلى فعالية واحترام القضاء الشرعي بين المتخاصمين(٣٠) .

وباستعراض قضايا الدين الشرعي في حماة يبين الجدول التالي الفئات الدائنة والمديونة والمبالغ المترتبة على ذلك بعد أن تم تحويلها الى دراهم حلبية :

الديـن الشـرعي

	الدائنــون				المديونــون			
			اجمالي المبالـغ				اجمالي المبالـغ	
الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	النسبة	بالدراهم الحلبية	النسبة	عدد المديونين	النسبة	بالدراهم الحلبية	النسبة
عسكريون	١	٢ر٣٣	١٤٢٥	١ر١٨	–	–	–	–
علمـاء	٢	٤ر٦٥	١٢٧٠٠	١١ر٣٠	–	–	–	–
حجـاج	٩	٢٠ر٩٣	٤٨١٦٠	٣٩ر٧٢	٢	٣ر١٣	٦٨٠٠	٥ر٦١
عاديـون	٣٠	٦٩ر٧٦	٥٢٢٥١	٤٤ر٠١	٢٣	٣٥ر٩٣	٦١٦٦٥	٥٠ر٨٧
ريفيـون	–	–	–	–	٢٧	٥٧ر٨١	٥١٦٠٤	٤٢ر٥٧
نسـاء	١	٢ر٣٣	٤٥٨٣	٣ر٧٨	–	–	–	–
مسيحيون	–	–	–	–	٢	٣ر١٣	١١٥٠	٠ر٩٥
المجموع	٤٣	١٠٠ر٠٠	١٢١٢١٩	١٠٠ر٠٠	٦٤	١٠٠ر٠٠	١٢١٢١٩	١٠٠ر٠٠

بالمقارنة مع أعداد المقرضين (٩٦) تشكل أعداد الدائنين (٤٣) نسبة تقرب من ٤٥٪ من الاولين مما يدل على أن القروض كانت هي الغالبة بما تنطوي عليه من حسن

طوية وتواد بين الناس . ويستأثر الناس العاديون بغالبيـة عقود الدين اذ يشـكلون ٧٦ر٦٩٪ من مجموع الدائنين في حين ان المقرضين فيالجدول السابق تتشكل غالبيتهم من العلماء والحجاج وهم الادعى لعمل الخير .

ونلاحظ في الجدول أعلاه غياب فئتي الموظفين واليهود وظهور المسيحيين بنسبة ضئيلة جدا بين المديونين على نقيض الوضـع في جدول القروض . وتشغل النسـاء ، في جدولي القروض والديون ، حيزا ضئيلا في التعامل المالي .

وتبرز بين المديونين الفئة الاجتماعية الاكثر استقراضا واستدانة وهي الريفيون اذ يشكلون ٨١ر٥٧٪ من مجموع المديونين في حـين ينعدم وجودهم كدائنين . وتقترب هذه النسبة مـن نسبتهم بين المسـتقرضين (٦٧ر٥٩٪) . وتشـكل الديون التـي استدانوها نسبة ٥٧ر٤٢٪ من المجموع وتقترب هـي الاخرى من نسبة المبالغ التـي استقرضوها (٦٢ر٤١٪) . ويلاحظ كذلك ان نسبة ما يخص الريفيين من الدين هـي اقل مما يخص الشخص العادي من غير ذوي الالقاب . وهكذا فان مجموع ما استدانه ٣٧ من الريفيين وهو ما يعادل ٥١٦٠٤ درهما حلبيا يجعل وسطي ما استدانه الشخص الواحد منهم حوالي ١٣٩٥ درهما فيحين أن وسطيما استدانه الشخص العادي يعادل ٢٦٨١ درهما مما يدل على عدم قدرة الريفيين على الاستدانة بكميات أكبر وعلى حاجة عدد أكبر منهم للاستدانة بمبالغ أقل .

وثمة أمر آخر وهو ان عدد الدائنين البالغ ٤٣ لا يضم سـوى حالتين يشترك في كل منهما دائنان في حين أن المديونين تكثر بينهم حالات الدين الجماعي . فهناك حالتان تتألف كل منهما من مديونين ، وحالة واحدة تضم ثلاثة مديونين معا ، واخرى تضـم واحدا وعشرينمديونا دفعة واحدة ،وجميع هذه الحالات تخص ريفيين.ويتبين منذلك أن الدائنين كالمقرضين كانوا أفرادا مستقلين بمعظمهم في حين ان المديونيين ، بصـورة أكبر من المستقرضين ،كانوا بحاجة للتكافل والتضامن فيما بينهم للحصولعلى الدين.

ويلاحظ كذلك انه لا يوجد دائنون محترفون يحتكرون اعطاء الديون ، كمـا أن المبالغ التي تتألف منها الديون ليست بكبيرة فمعظمها دراهم حلبيـة واقلها عثمانية . وبمقارنة مجموعها (١٢١٢١٩ درهما حلبيا) مع مجموع القروض (٢٤٦٢٨٧ درهمـا حلبيا) نجد أن مبالغ الديون تشكل حوالي النصف منمجموع القروض . كما أن معظم الديون تقع ضمن فئات المبالغ الادنى. وباستثناء عقدي دين بالدراهم العثمانية يبلغان معا ٥٥٠٠ درهم فان الديون بالدراهم الحلبية تضم اثني عشر عقدا (من أصل ٤٣)يضم واحدها أقل من ألف درهم ، واثني عشر عقدا تقع بين الف والفي درهم . ويبلغ مقدار

اكبر دين ١٦٠٠٠ درهم حلبي . وتبين المقارنة التالية وسطي ما قدمه أو ما حصل عليه كل فرد من قرض أو دين :

	العدد	الوسطي بالدراهم الحلبية
القروض		
المقرضون	٩٦	٢٥٦٥
المستقرضون	١٢٤	١٩٨٦
الديون		
الدائنون	٤٣	٢٨١٩
المديونون	٦٤	١٨٩٤

وبالاضافة الى القرض والدين المالي الشرعي شاع في اقتصاد لواء حماة نوع آخر من الدين ترتب في ذمة الافراد من جراء شراء سلعة ما تأجل دفع ثمنها ، جزئيا أو كليا، الى فترة محددة . ويصح ان نطلق على هذا النوع من الدين البيع أو الشراء بالدين . وكان هذا اكثر أنواع الدين شيوعا وذا دلالة اقتصادية واجتماعية هامة نظرا لانتشار تعاطيه بين الناس ، سواء في حماة أو في الريف ، واعتماده في مختلف جوانب الحياة ، وشموله مختلف أنواع السلع . وتدل كثرة التعامل بهذا النوع من الدين على نشاط اقتصادي وتحريك للفعاليات ذات الامكانيات المالية المحدودة . وطبيعي أن الفائدة الكبرى منه تكون لصالح تجار الجملة وأصحاب رؤوس المال . ويبين الجدول التالي هوية البائعين والمشترين بالدين والمبالغ المترتبة على ذلك :

البيع والشراء بالدين

	الدائنون				المديونون			
		المبالغ				المبالغ		
الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره	عدد المديونين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره
موظفون	١	٥٠٠٠	–	–	–	–	–	–
الخزينة	٢	٢٠٠٠٠	–	–	–	–	–	–
عسكريون	١٠	٦٢٠٤٠	٣٣٠٨٥	١٨قبرصي	١	–	١٠٠٠	–
علماء	٢٣	١٩٥٦٧	١٢١١١٠	–	٣	١٩٢٠٠	–	–

تابع جدول البيع والشراء بالدين

الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره	عدد المديونين	درهم عثماني	درهم حلبي	غيره
حجاج	٥٦	–	٣٦٠٨٧٥	–	٣٧	١٠٠٠٠	١٥٤٥٨٢	–
عاديون	١٦٢	٩١٦٠	٢٧٨٤١٠	٥٠ سلطاني ذهب	١٥٢	١٣١٦٠	٤٢٩٨٦٧	١٨ قبرصي ٥٠ سلطاني ذهب
ريفيون	٧	–	١٢٨٨٠	–	١٠٣	٦٤١٦٧	٢٢٩٣٥٦	–
نساء	٧	–	٢٧١٩٠	–	٤	–	٢١٥٥	–
مسيحيون	٤	–	٩٢٩٥	–	٢٣	٩٢٤٠	١٨٢٨٥	–
يهود	–	–	–	–	١	–	١٧٥٠٠	–
المجموع	٢٧٢	١١٥٧٦٧	٨٥٢٨٤٥	١٨ قبرصي ٥٠ سلطاني ذهب	٣٢٤	١١٥٧٦٧	٨٥٢٨٤٥	١٨ قبرصي ٥٠ سلطاني ذهب

ونظرا لكثرة التعامل بهذا النوع من الدين وضخامة المبالغ التي يتضمنها بأنواع عملاتها المختلفة فمن المفيد توحيد المبالغ في دراهم حلبية لتسهيل حسابات النسب وبالتالي معرفة فعالية كل فئة اجتماعية . وقد عادلنا السلطاني الذهب الذي يوصف في عقد الدين بأنه سلطاني ذهب سليماني بقيمة ٨٠ درهما عثمانيا أو ما يعادل ٢٠٠ درهم حلبي كما تقدر ذلك وثائق حماة الشرعية . وعلى هذا يصبح الجدول كالتالي :

البيع والشراء بالدين

	الدائنون				المديونون			
الفئات الاجتماعية	عدد الدائنين	النسبة	درهم حلبي	النسبة	عدد المديونين	النسبة	درهم حلبي	النسبة
موظفون	١	٠ر٣٧	١٢٥٠٠	١ر٠٨	–	–	–	–
الخزينة	٢	٠ر٧٤	٥٠٠٠٠	٤ر٣٣	–	–	–	–
عسكريون	١٠	٣ر٦٨	١٩١٤٧٣	١٦ر٥٧	١	٠ر٣١	١٠٠٠	٠ر٠٨
علماء	٢٣	٨ر٤٥	١٨٠٠٢٧	١٥ر٥٨	٣	٠ر٩٣	٤٨٠٠٠	٤ر١٥
حجاج	٥٦	٢٠ر٥٩	٣٦٠٨٧٥	٣١ر٢٣	٣٧	١١ر٤٢	١٧٩٥٨٢	١٥ر٥٤
عاديون	١٦٢	٥٩ر٥٦	٣١١٢١٠	٢٦ر٩٤	١٥٢	٤٦ر٩١	٤٧٦٠٥٥	٤١ر٢٠
ريفيون	٧	٢ر٥٧	١٢٨٨٠	١ر١٢	١٠٣	٣١ر٧٩	٢٨٩٧٧٢	٢٣ر٧٣
نساء	٧	٢ر٥٧	٢٧١٩٠	٢ر٣٥	٤	١ر٢٣	٢١٥٥	٠ر١٩
مسيحيون	٤	١ر٤٧	٩٢٩٥	٠ر٨٠	٢٣	٧ر١٠	٤١٤٨٥	٣ر٥٩
يهود	–	–	–	–	١	٠ر٣١	١٧٥٠٠	١ر٥٢
المجموع	٢٧٢	١٠٠ر٠٠	١١٥٠٠٠٠	١٠٠ر٠٠	٣٢٤	١٠٠ر٠٠	١١٥٠٠٠٠	١٠٠ر٠٠

تشكل فئة الناس العاديين حوالي ٦٠٪ من مجموع البائعين بالدين ولكن بالرغم من كثرتهم العددية هذه فان مجمل ما وظفوه من مال في هـذا المجال يشكل ٢٦ر٩٤٪ من اجمالي المال الموظف مما يدل على قلة السيولة المالية لديهم وبالتالي على امكانياتهم المالية المحدودة . وتحتل فئة الحجاج المرتبة الاولى في عقود البيع بالدين اذ تبلغ نسبة تعاملهم ٢٣ر٣١٪ بالرغم من أن نسبة عددهم لا تتجاوز ٢٠ر٥٩٪ من الدائنين . ويدل بروز الحجاج في هذا المجال على أهميتهم في التعامل التجاري والمالي وعلى قدرتهم في توظيف المال . وكون الحجاج فاعلين في هذا الميدان الاقتصادي دليل على فعاليتهم في التجارة المرافقة لقافلة الحج كما تؤكد ذلك أنواع السلع التي كانوا يتعاملون بها مثـل التوابل والعطور التي كان ينقل بعضها مع قافلة الحج ، وكذلك على تمكنهم اساسا من أداء هذه الفريضة المكلفة . وقد شهد بذلك العالم المصري عبـد الرحمن الشربيني في محادثته مع نجم الدين الغزي في المدينة المنـورة ابان موسـم الحج في أواسط محـرم ١٠٠٢/ أواسط تشـرين الاول ١٥٩٣ حين قارن بين تكاليف حجـه القليلة وتكاليف الشوام الكثيرة بقوله :«أنتم اذا حج الواحد منكم يتكلف كلفة كبيرة تكفي عدة منا»(٢١).

وتلي فئة الحجاج في البيع بالدين فئة العلماء الذين شكلوا ٤٥ر٨٪ من مجمـوع الدائنين و ١٥ر٥٨٪ من المبالغ الموظفة . ولم تكن الفوائد المالية عائدة حصرا للعلمـاء أصحاب لقب شيخ لان عددا منهم كانوا متولين ونظارا على الاوقاف ووظفوا أموالها في هذا الميدان الاقتصادي لفائدة الوقف بالدرجة الاولى .

وبالرغم من قلة نسبة أعداد العسكريين بين الدائنين (٣ر٦٨٪) فانهم وظفـوا ١٦ر٥٧٪ من مجموع المبالغ كدائنين . وكانوا حصرا من أصحاب التيمار والزعامة . ويبرز في هذا المجال اسم علي بك بن عبد الله الآي بك الذي قدم للريفيين ديونا عينية تتألف من الحنطة والشـعير بما يعادل حوالي ٧٥٪ من مجموع المبالغ التـي وظفهـا العسكريون . ومما تجدر ملاحظته فيهذا المجال كيفية استغلال العساكر السباهية من أصحاب التيمار والزعامة الاراضي التـي يتصرفون بها وعلاقتهـم بالمزارعين الذيـن يعهدون اليهم بها . فمن خلال عدة قضايا في سجل حماة يتبين أن أحد السباهية يعهد الى واحـد او اثنين في الغالب بزراعة ما يقـع في تيماره مـن مزارع ، بشـكل صيفي وشتوي ، ويكون له من الغلال واحد من سبعة أو واحد من ثمانية حسب الشـروط المتفق عليها كما في المثال التالي : أشهد عليه والي بن أحمد السباهي انه سلم لجابر بن رمضان ولبرهان بن محمد كلاهما من قرية الموعة جميع المزرعة المعروفة بالقرشية التي هي في تيماره على أنهما يزرعان فيها صيفي وشتوي « والقسمة سبعة له واحدة ولهما ستة »(٢٢) .

ومما يلفت النظر بين المديونين أن الاناس العاديين يشكلون أكبر نسبة سواء بالاعداد (٤٦ر٩٠٪) أو بالمبالغ التي وظفت بينهم (٤١ر٢٠٪) . وبالمقارنة مع المبالغ التي وظفوها هم كدائنين (٢٦ر٩٤٪) يتبين أنهم مستهلكون أكثر منهم منتجين وانهم استدانوا من الفئات الاجتماعية الاخرى .

ويبرز الريفيون كالعادة في استيعاب أكبر نسبة من الديون بالمقارنة مع أعدادهم ومع النسبة الضئيلة جدا لما وظفوه كدائنين . وينـدرج في عدادهم المسيحيون الذين كانوا بمعظمهم من الريفيين واستدانوا بأكثر مما أدانـوا . ويؤكد هذا ، كما في القرض والدين الشرعي ، أن السيولة المالية تتجه من المدينة الى الريف ، وبالتالي ان الفئات الاقتصادية الفاعلة في حماة تتحكم أيضا في اقتصاد الريف .

ويأتي الحجاج في المرتبة الثالثة بين المديونين بالنسبة لاعدادهم والمبالغ التي استدانوها مما يدل ، بالمقارنة معهم كدائنين ، ان المديونين منهم يشكلون حوالي ٤٠٪ من فئتهم وان المبالغ المستحقة عليهم تشكل حوالي ٣٥٪ من مجموع المبالغ المتعاملين بها . ونستنتج كذلك ان فئة الحجاج لم تكن مقتصرة على الاثرياء وان كانت تميل في ذلك الاتجاه بنسبة ٦٠٪ . وتتضاءل أعداد العلماء كمديونين وكذلك المبالغ التي استدانوها مما يدل على وضع مالي جيد لهم وعلى عدم تعاملهم بشكل كبير في السوق التجارية والمالية. ويلفت النظر أن العسكريين الذين برزوا بنسبة عالية بين الدائنين يشكلون ادنى نسبة بين المديونين مما يدل على أوضاعهم الاقتصادية الجيدة وعلى الثروة التي كانوا يجمعونها من الاراضي المقطعة لهم كتيمار أو زعامة . وتقل نسبة النساء المستدينات لصالح نسبتهن كدائنات مما يؤكد ، كما في القرض والدين الشرعي ، أن النساء لم يكن فاعلات بشكل ملحوظ في سوق الديون .

ويلفت الانتباه في أعداد الدائنين أنهم ــ باستثناء حالة واحدة بين فئة العاديين ضمت شخصين اشتركا معا في عقد واحد من البيع بالدين ــ كانوا افرادا شاركوا بمثل عددهم من العقود ، أي في ٢٧١ عقدا ، من البيع بالدين . أما المديونون الذين يفوق مجموع اعدادهم أعداد الدائنين بنسبة ١٩٪ فقد كثرت بينهم عقود الدين الجماعية وبخاصة بين الريفيين . فهناك حالة واحدة من الشراء بالدين بين فئة الحجاج شارك فيها اثنان ، واربع حالات بين العاديين شارك في كل منها اثنان ، وحالتان ضمت كل منهما ثلاثة ، وحالة واحدة ضمت اربعة . وتزداد نسبة الدين الجماعي بين الريفيين اذ توجد اربع حالات ضمت كل منها اثنين ، وحالة ضمت ثلاثة ، وحالتان ضمت كل منهما أربعة ، وحالة ضمت خمسة ، وأخرى ستة ، واخيرة سبعة . وبين المسيحيين حالة واحدة ضمت اثني عشر شخصا ريفيا من قرية بسيرين كان بذمتهم دين مشترك

وشاركهم في ذلك مسلم واحد . وتدل كثرة حالات المشاركة في الدين بين المديونين على حاجتهم المادية من ناحية وعلى ضرورة تكافلهم معا لسداد الدين بحيث يكفل كل منهم الآخر مما يجعل أمر الوفاء بالدين أكثر ضمانة من ناحية أخرى . وكان القاسم المشترك الذي يجمع بين المشتركين في عقود الشراء بالدين ، الى جانب الحاجة الاقتصادية ، الانتماء الى أسرة واحدة أو قرية واحدة . ولم يكن المذهب الديني حصرا عقبة أمام المشاركة في الدين كما ينفي ذلك المثال السابق وغيره ، بمعنى آخر ان التعامل المالي لم يعرف التقوقع الطائفي بل تعامل الناس مع بعضهم على اختلاف مذاهبهم .

ونظرا لكثرة توظيف المال في عمليات البيع أو الشراء بالدين تبرز بعض الاسر التي تعاطى أفرادها البيع بالدين وأشهرها أسرة النوام . وفي عدد من القضايا ترد أسماء أفراد من هذه الاسرة يتعاطون بيع الجوخ والقماش وبدرجة أقل الحنطة والبندق لاناس في حماة أو في الريف بالدين(٢٣) . وتبرز ثلاثة أسماء من أبناء الحاج محمد بن النوام ، أشهرهم أحمد ، في مجال بيع هذه السلع المتنوعة التي تضم منتجات محلية وأخرى مستوردة مما يدل على توظيف المال في مجالات متعددة لايجاد توازن في توزيع رأس المال بين مختلف السلع . ويلاحظ ان المبالغ التي ترتبت على شراء هذه السلع بالدين لم تكن بقليلة بالمقارنة مع الحالات الاخرى ، ويؤكد هذا القدرة المالية لآل النوام . ويلفت النظر ايضا أن أفراد هذه الاسرة لم يحددوا موعدا للوفاء بالدين ولم يطالبوا بكفالة أو رهن وانما اكتفوا بتسجيل عقود البيع في المحكمة لاعطائها الصفة القانونية . ويدل هذا علاقة مالية تقوم على الثقة بين المتعاملين وربما على قدرة آل النوام على استيفاء ديونهم . ويوضح المثال التالي عقد دين لآل النوام : حضر في مجلس الشريعة المطهرة بحماة المحروسة علي بن عبد الرحمن الحداد وأقر واعترف بأن عليه وفي ذمته للحاج يوسف ابن الحاج محمد النوام مبلغ الف درهم وستماية درهم حلبي عن ثمن بندق فسطر على ما هو الواقع بطلب المقر له حرر بتاريخ ٢٤ رمضان ٩٤٢ ، شهود الحال علي يونس ومحمد بن السويقة(٢٤) ، (يعادل تاريخ القضية ١٧ آذار ١٥٣٦) وترد حالات أخرى تتكرر فيها أسماء البائعين بالدين في أكثر من عقد شراء واحد(٢٥) .

وفي بعض القضايا يتكرر اسم شخص بعينه بانه يشتري بالدين أكثر من سلعة . وفي العديد من عقود الشراء بالدين نجد ان مبلغ الدين يشكل الجزء المتبقي من مبلغ أكبر دفع قسم منه وأجل الباقي . وكثيرا ما تذكر الفترة أو الفترات الزمنية محددة بالاشهر للوفاء بالدين . وكان معظمها يقع بين ستة أشهر وثمانية أشهر لتتلاءم ، كما يبدو ، مع مواعيد المواسم الزراعية . وقلما امتدت الى سنة أو أكثر أو كانت أقل من ثلاثة أشهر . وفي احدى الحالات اقر شخص ان بذمته قيمة حمار لريفي من قرية ارجزى مؤجلة لمدة سبعة أيام من تاريخ عرض القضية في المحكمة(٢٦) .

ويمكن اجراء مقارنة بين مدد الديون بالنسبة لتاريخ عقودها ، ونوعية السلع الرئيسية المشتراة بالدين وأثمانها كما في الجدول التالي :

السلع الرئيسية المتداولة في عمليات البيع بالدين ومبالغها بالدرهم الحلبي

مدة الدين	حبوب عدد العقود	حبوب المبلغ	قماش عدد العقود	قماش المبلغ	قطن عدد العقود	قطن المبلغ	تواريخ الديون جمادى١	جمادى٢	رجب	شعبان	رمضان	القعدة
٣ اشهر	١	١٠٠٠					١					
٤ اشهر	١	١٦٠٠									١	
٦ اشهر	١٤	٢٠٤٧٥٠	٣	٤١٠٠	٢	٣٠٥٠٠	٥	٥	٧	٢		
٧ اشهر			١	٥٤٠٠					١			
٨ اشهر			٢	٦١١٥٠	٢	١٦٥٠			٢	١		١
٩ اشهر						٣٨٠٠ (حرير)			١			
١٠ اشهر	١	٢٠٠٠	١	٦٥٠						١		
سنة					١	١٠٥٠٠					١	
المجموع	١٧	٢٠٩٣٥٠	٧	٧١٣٠٠	٥	٤٦٤٥٠	٦	٥	١١	٤	٢	١

لا يشكل الجدول اعلاه حصرا بكافة الديون المؤجلة الى اجل معين وانما اختيرت الديون المترتبة على شراء ثلاثة أنواع من السلع هي الحبوب والقماش والقطن ، وهي الاكثر ورودا وتداولا . ويتبين أن حوالي ٦٨٪ من عقود الديون لهذه السلع مؤجل دفعها لمدة ستة أشهر من تاريخ تسجيلها في المحكمة وبالتالي اكتسابها الصفة القانونية. ويلاحظ ان مجموع الديون لستة أشهر المترتبة على شراء الحبوب تشكل حوالي ٩٨٪ من مجموع اثمان الحبوب . كما تتفوق مبالغ شراء الحبوب بالدين على مبالغ شراء القماش والقطن بالدين مجتمعين. ويدل هذا على أن شراء الحبوب بالدين بهذه النسبة الكبيرة كانت تمليه الحاجة لزراعتها مثلما كان يتزامن وقت حصادها مع بداية سدادها. ويؤكد هذا كون ديون الستة اشهر قد سجلت في المحكمة بين ٢٠ جمادى الاولى و١٦ شعبان ١٦/٩٤٢ تشرين الثاني ١٥٣٥ و ٩ شباط ١٥٣٦ . لذا فان مضي ستة أشهر عليها يجعلها تستحق بين اوائل أيار وأوائل آب حين تكون المحاصيل الزراعية قد جمعت بمعظمها وأفاد منها قطاع كبير من السكان . وهذا يعني أن هذه الديون كانت موسمية هدفها تمويل الفلاحين بالمواد اللازمة لزراعة الارض . واذا كان الجدول السابق يذكر الغالبية العظمى من عقود شراء السلع بالدين فان هناك حالات نادرة جدا تكون فيها مدة الدين مجرد أيام وأحيانا تزيد عن السنة . ويشكل المثال التالي نموذجا للحالة النادرة حيث ترتب في ذمة أحدهم مبلغ ٧٠٠ درهم حلبي ثمن حنطة مشرية مؤجل الى مضي خمسة عشر يوما من تاريخه(٢٧) .

ويتم احيانا تقسيط الدين ويلاحظ ذلك بخاصة بالنسبة للدين المترتب على شراء السلع الكمالية كما في تقسيط مبلغ ٦٠٠٠ درهم حلبي ثمن « حوايج عطرية » ابتاعها أحد الاشخاص على أن يسدد ثمنها مقسطا كل يوم ١٥درهما ، وأيضا بالنسبة للمبالغ الكبيرة كما في تقسيط مبلغ ٥١٩٢٠ درهما حلبيا ثمن قماش الى عدة أقساط على أن يتم حالا دفع ٩٠٠٠ درهم ويؤجل مبلغ ٥٠٠٠ الى ثلاثة أشهر والباقي وقدره ٣٧٩٢٠ درهما يقسط كل سنة ١٠٠٠٠ درهم(٢٨) . وربما دل هذا على بطء تسويق هذه المنتجات بسبب أوضاع اقتصادية سيئة لعامة الناس وأيضا بسبب المنافسة في طرح القماش للبيع بكميات كبيرة واستيراده من مصادر مختلفة ، وهناك اشارة الى قماش بعلبكي و قماش مصري .

وتفيد دراسة شراء السلع بالدين في معرفة أنواع السلع المتداولة وكمياتها وأثمانها والفئات الاجتماعية التي تتعامل بسلعة أو بأخرى بحسب مقدرتها المالية وانماط حياتها . ويبين الجدول التالي وما يليه جوانب محددة من بيع وشراء السلع بالدين :

الفئات الدائنة وأنواع السلع التي باعتها بالدين ومجموع أثمانها بالدراهم الحلبية(٣٩) ونسبها

الفئات الاجتماعية	العدد	حبوب	قطن	قماش	جوخ	توابل وعطور	حيوانات	سلع اخرى	المجموع
موظفون	١		١٢٥٠٠						١٢٥٠٠
			(١٨٫٧٨ ٪)						(١٫٠٨)
(خزينة)	٢	٢٥٠٠٠					٢٥٠٠٠		٥٠٠٠٠
		(٦٫٣٧)					(٢٥٫٥٢)		(٤٫٣٣)
عسكريون	١٠	١٧٤١٥٠	١٥٢٥				٥٢٨٨	١٠٥٠٠	١٩١٤٧٣
		(٤٤٫٤٠)	(٢٫٣١)				(٥٫٤٠)	(٧٫٠٣)	(١٦٫٥٧)
علماء	٣	٤٢٢٩٠	١٢١٥٠	٩٠١٤٠	١٢١٠		١٢٠٠	٣٣٠٢٧	١٨٠٠٢٧
		(١٠٫٧٨)	(١٨٫٢٦)	(٣٢٫١٨)	(١٫٣١)		(١٫٢٢)	(٢٢٫١١)	(١٥٫٥٨)
حجاج	٥٦	٥٩٨٧٥	٤٩٠٠	٩٢٨٤٠	٦٩٧٠٠	٦٥٦٠٠	٢٨٨٤٠	٣٩١٢٠	٣٦٠٨٧٥
		(١٥٫٢٦)	(٧٫٣٦)	(٣٣٫١٥)	(٧٥٫٧٠)	(٨٤٫٩٥)	(٢٩٫٤٤)	(٢٦٫١٩)	(٣١٫٢٣)
عاديون	١٦٢	٧٩٩٠٤	٣٣٥٧٣	٨٥٣٥٥	١٩٠٢٠	١١٦٢٠	٣٣٨٤٠	٤٧٩٩٨	٣١١٣١٠
		(٢٠٫٣٧)	(٥٠٫٤٥)	(٣٠٫٤٨)	(٢٠٫٦٦)	(١٥٫٠٥)	(٣٤٫٥٤)	(٣٢٫١٣)	(٢٦٫٩٤)
ريفيون	٧	٦٩٣٠	١٦٥٠	٥٠٠			٣٨٠٠		١٢٨٨٠
		(١٫٧٧)	(٢٫٤٨)	(٠٫١٨)			(٣٫٨٨)		(١٫١٢)
نساء	٧	٢٥٠٠		٨٢٠٠				١٤٢٤٠	٢٧١٩٠
		(٠٫٦٤)		(٢٫٩٦)				(٩٫٥٣)	(٢٫٣٥)
مسيحيون	٤	١٦٠٠	٢٤٥	٢٩٥٠				٤٥٠٠	٩٢٩٥
		(٠٫٤١)	(٠٫٣٦)	(١٫٠٥)				(٣٫٠١)	(٠٫٨٠)
المجموع	٢٧٢	٣٩٢٢٤٩	٦٦٥٥٣	٢٨٠٠٨٥	٩٢٠٨٠	٧٧٢٢٠	٩٧٩٦٨	١٤٩٣٩٥	١١٥٥٥٥٠
نسب اسعار السلع من المجموع		(٣٣٫٩٤)	(٥٫٧٦)	(٢٤٫٢٤)	(٧٫٩٧)	(٦٫٦٨)	(٨٫٤٨)	(١٢٫٩٣)	

تشتمل الحبوب في الجدول أعلاه على الحنطة بصورة رئيسية ثم الشعير بدرجة أقل وبعض الذرة ، ولا تحدد كمياتها في معظم الاحيان وتقدر في بعضها بالمكوك أو الشنبل(٤٠) . ويشمل القطن الذي لم يذكر وزنه في الغالب وقدّر أحيانا بالقنطار(٤١) المحلوج منه والمحبوب وحب القطن . أما القماش فيذكر غالبا كذلك ويضاف اليه أحيانا الخام . ولم يعين مصدر الجوخ ولكن التجار البنادقة كانوا يسوقونه في حماة ، ويشير سجل حماة الشرعي الى بيعه على شكل خرقة مثل بيع تاجر بندقي لحموي مقدار « اثنين وعشرين خرقة ونصف خرقة جوخ كرزي أزرق واحمر واصفر وصيني

بثمن قدره خمسة وأربعين ألف درهم حلبي حال مقبوض»(٤٢)، ونظرا لان هناك نصف خرقة فلا يعقل أن يكون المقصود بها جبة أو معطف المتصوف وانما حجما متعارفا عليه آنذاك(٤٣) . وأشير في احدى القضايا الى بيع « قطعة جوخ أزرق مقدار أربعة أذرع » بمبلغ ٣٠٠ درهم حلبي(٤٤) ، أي أن سعر الذراع ٧٥ درهما حلبيا . وفي المثال السابق الذي بيعت فيه ٥ر٢٢ خرقة جوخ بثمن ٤٥ ألف درهم حلبي وفي مثال آخر بيعت فيه عشرون خرقة جوخ بأربعين ألف درهم حلبي من قبل البندقي نفسه في حمـاة بتاريخ متقارب (٢٢ رمضان و ٢٤ رمضان ١٥/٩٤٢ آذار و ١٧ آذار ١٥٣٦) يتبين أن سـعر الخرقة الواحدة من الجوخ هو الفا درهم حلبي ، واذا تغاضينا عن الفرق بين سعر بيع الجملة وبيع المفرق لمادة الجوخ فان الخرقة من الجوخ تبلغ حوالي ٥٠ر٢٦ ذراعا علـى أساس بيع ذراع الجوخ بخمسة وسبعين درهمـا حلبيا في تاريخ قريب من تاريخ بيـع الكميات السابقة (في ١٢ ذي القعدة ٩٤٢ / ٣ أيار ١٥٣٦) . ويكتفي سـجل حماة في الغالب بذكر شراء جوخة أو بيع أو شراء الجوخ دون تحديد لكميته . وتضم التوابـل والعطور الفلفل وجوزة الطيب والبندق بالاضافة الى ما ذكر انـه « حوايج عطرية » . وتشتمل الحيوانات على الجمال والبقر والحمير (بدرجة كبيرة) والافراس والاغنـام. وتضم السلع الاخرى الجلود والقنب والصابون والبسط والسكر والدبس والعسل وغيرهـا .

يلاحظ في الجدول أعلاه ان بيع الحبوب بالدين يشكل أعلى نسـبة بين مختلف السلع (٩٤ر٣٣٪) وتؤكد هذه النسبة أولوية الحبوب في الحياة الزراعية في لواء حماة. وتتحكم بعض الفئات الاجتماعية في محصول الحبوب وبيعها بالدين ، وتأتي في طليعـة هؤلاء فئة العسكريين اذ تبلغ نسبة بيعهم الحبوب بالدين ٤٠ر٤٤٪ . ولا غرابة في ذلك لان العسكريين هؤلاء هم من أصحاب الاقطاعات ويبرز بينهم ، كما سبق القول ، اسم علي بن عبد الله الآي بك . ويلـي العساكر بين باعـة الحبوب بالدين الاناس العاديون والحجاج والعلماء ، بحسب أعدادهم ، ولكن اذا اعتبرنا وسطي ما يبيعه كل فرد مـن هؤلاء من الحبوب بالدين لاختلف الترتيب وأتى العالم بعد العسكري (يبقى في الطليعة بوسطي ١٧٤١٥) بوسطي ١٨٣٨ ، ثم الحاج بوسطي ١٠٦٩ ، والعادي ٩٤٣ درهمـا حلبيا . ويلفت النظر ضآلة أعداد الريفيين في هـذا المجال وكذلك نسبة المبالغ التـي وظفوها كدائنين لاثمان الحبوب اذ بلغت ٧٧ر١٪ .

ولا تشكل بيوع القطن بالدين الا نسبة ضئيلة بين بيوع مختلف السلع اذ تبلـغ ٧٦ر٥٪ مما يدل على ضآلة زراعة القطن بالمقارنة مع زراعة الحبوب التي لا تحتاج الى السـقي كالقطن والتي تنتشـر في الاراضي الكبيرة والصغيرة علـى حـد سواء لتأمين احتياجات السكان وللمتاجرة بها من قبل الفئات المتنفذة .

أما القطن فالهدف من زراعته تجاري بالدرجة الاولى يقوم بها كبار المزارعين أصحاب رؤوس الاموال لذا ليس غريبا أن تكون نسبة شراء القطن بالدين أقل نسبة . ويؤكد الهدف التجاري من زراعة القطن شراء التجار البنادقة له بكميات كبيرة نظرا لجودته ، وقد جاء وصفه في سجل محكمة حماة الشرعية أثناء قيام البنادقة بصفقات شرائه مع الحمويين بأنه « القطن المحلوج السقي الحموي » .

ويلفت النظر أن القماش يشغل المرتبة الثانية، بعد الحبوب، في عقود البيع بالدين مما يؤكد سعة التعامل به وبالتالي استهلاكه . وتبرز فئتان في تسويقه وبيعه بالدين وهما فئتا الحجاج والعلماء ويحتكران فيما بينهما ٦٥ر٣٣٪ من أثمان القماش المباع بالدين، في حين ان ما باعته هاتان الفئتان من الحبوب يبلغ ٢٦ر٠٤٪ ومن القطن ٢٥ر٦٢٪ . ولا غرابة في ذلك فالحجاج بحكم أسفارهم الى الحج لا بد وأن بعضهم قد شارك في التجارة المرافقة لقافلة الحج، كما ان التجارة تتناسب وثروة العلماء وتقديرهم التقليدي للتجارة التي حظيت بالاحترام في المجتمع العربي الاسلامي . ويشكل القماش بالنسبة للسكان العاديين سلعة هامة في التعامل التجاري على مستوى صغار التجار لذا تبلغ نسبة تعاملهم به ٣٠ر٤٨٪ ، وهي ما يقرب من نسبة كل من العلماء والحجاج ، ولكن أعداد العاديين الكبيرة تجعل وسطي حجم مساهمة الواحد منهم أقل بكثير من حجم مساهمة الفرد في أي من الفئتين الاخريين . وكان الريفيون أقل الفئات البائعة للقماش بالدين على الاطلاق بسبب وضعهم المالي السيء من ناحية ولاحتكار سكان حماة المتاجرة معهم بهذه السلعة من ناحية أخرى . ولم يكونوا بالمقابل أكثر المستهلكين له بالرغم من أعدادهم بسبب وضعهم الاقتصادي السيء .

ويتأكد دور الحجاج في التجارة ، وبخاصة البعيدة منها ، باشغالهم المرتبة الاولى، بنسبة عالية جدا ، في بيع الجوخ (٧٥ر٧٠٪) ، وأهم من ذلك في نسبة بيعهم التوابل والعطور بالدين (٨٤ر٩٥٪) . وبالرغم من أن نسبة أعداد الحجاج المتعاملين بالبيع بالدين (٥٦) تبلغ ٢٠ر٥٨٪ من المجموع فان ارتفاع نسب تعاملهم بالقماش والجوخ والتوابل والعطور يدل على مدى ثروتهم وبالتالي ربحهم . وتبرز فئة الحجاج كذلك في بيع الحيوانات بالدين وذلك مرتبط بدورهم كتجار بما في ذلك تجارة الحبوب . وتبرز الخزينة (الخزانة العامة او الشريفة) كدائنة في صفقة أغنام تقدر ب ١٠٠٠٠ درهم عثماني أي ما يعادل ٢٥٠٠٠ درهم حلبي . وهكذا تتصدر فئة الحجاج مجموعة الفئات الاجتماعية التي تتعامل بالبيع بالدين بالنسبة لمعظم السلع .

واذا ما انتقلنا من الفئات الاجتماعية الدائنة الى الفئات المديونة ، اي تلك التي اشترت السلع بالدين ، يبدو لنا حجم تعامل كل فئة مع مختلف السلع ومدى مديونيتها كما يبين ذلك الجدول التالي :

الفئات المديونة وأنواع السلع التي اشترتها بالدين ومجموع أثمانها بالدراهم الحلبية(٤٥) ونسبها

الفئات الاجتماعية	العدد	حبوب	قطن	قماش	جوخ	توابل وعطور	حيوانات	سلع أخرى	المجموع
عسكريون	١			١٠٠					١٠٠٠
				(٠ر٠٣٦)					(٠ر٠٨)
علماء	٣		١٢٥٠٠				٢٥٠٠٠	١٠٥٠٠	٤٨٠٠٠
			(١٨ر٧٨)				(٢٥ر٥٢)	(٧ر٠٣)	(١٥ر٤)
حجاج	٢٧	٢١٧٧٠	١١١٠٠	٥٨٠٨٧	٧٢٥٠	٤٤٠٠٠	٤٦٤٥	٣٢٦٣٠	١٧٩٥٨٢
		(٥ر٥٥)	(١٦ر٦٨)	(٢٠ر٧٤)	(٧ر٩٨)	(٥٦ر٩٨)	(٤ر٧٤)	(٢١ر٨٤)	(١٥ر٥٤)
عاديون	١٥٢	٥٤٩٦٤	١٢٦٠٧	١٩٣٨١٨	٦١١٢٠	٣٢٢٢٠	٣٩٦٩٣	٨٠٦٣٣	٤٧٦٠٥٥
		(١٤ر٠١)	(١٨ر٩٤)	(٦٩ر٢٠)	(٦٦ر٣٨)	(٤٣ر٠٢)	(٤٠ر٥٢)	(٥٣ر٩٧)	(٤١ر٢٠)
ريفيون	١٠٣	٢٨٤٢٤٠	٣٠١٠١	٢١٢٠٠	٤٧١٠		٢٨٦٣٠	٢٠٨٩٢	٣٨٩٧٧٣
		(٧٢ر٤٦)	(٤٥ر٢٣)	(٧ر٥٧)	(٥ر١٢)		(٢٩ر٢٢)	(١٣ر٩٩)	(٣٣ر٧٢)
نساء	٤	١٤٧٥		٦٨٠					٢١٥٥
		(٠ر٣٨)		(٠ر٢٤)					(٠ر١٩)
مسيحيون	٢٣	٢٩٨٠٠	٢٤٥	٥٣٠٠	١٤٠٠			٤٧٤٠	٤١٤٨٥
		(٧ر٦٠)	(٠ر٣٧)	(١ر٨٩)	(١ر٥٢)			(٣ر١٧)	(٣ر٥٩)
يهود	١				١٧٥٠٠				١٧٥٠٠
					(١٩ر٠٠)				(١ر٥٢)
المجموع	٣٢٤	٣٩٢٢٤٩	٦٦٥٥٣	٢٨٠٠٨٥	٩٢٠٨٠	٧٧٢٢٠	٩٧٩٦٨	١٤٩٣٩٥	١١٥٥٠٠٠
نسب أسعار السلع من المجموع		(٣٣ر٩٤)	(٥ر٧٦)	(٢٤ر٢٤)	(٧ر٩٧)	(٦ر٦٨)	(٨ر٤٨)	(١٢ر٩٣)	

يلاحظ من جدول الفئات المديونة أعلاه أن الريفيين هم أكثر الفئات الاجتماعية شراء بالدين وبخاصة من المنتجات الزراعية اذ تبلغ نسبتهم في ديون الحبوب ٧٢ر٤٦٪ وفي ديون القطن ٤٥ر٢٣٪ . ولا غرابة في ذلك نظرا لعملهم في الزراعة ولكن ما يلفت النظر أن شراءهم الحبوب بالدين غالبا في أوقات البذار وامتداد مدة الوفاء بالدين حتى فترة الحصاد أو المواسم الاخرى دليل على عدم توفر رأسمال زراعي لديهم وأنهم يعملون ليعيشوا وتذهب أتعابهم للوفاء بالدين وما يرتبط بذلك مثل عمليات السلم أي بيع منتجاتهم سلفا بأسعار مقررة كما سنعالج ذلك لاحقا . والملاحظ أن معظم قضايا الشراء بالدين في سجل محكمة حماة الشرعية تذكر مبلغا محددا بذمة أحدهم لآخر لقاء شرائه حنطة أو شعيرا أو قماشا دون تحديد لكمية السلعة، أو أن المبلغ متبق

بذمة المديون من ثمن سلعة ما،أي ان قسما من الثمن قد دفع حين الشراء أو بالتقسيط وان القسم الآخر هو الباقي . وقد يكون ان آجل الدين قد مدّد من جديد .

ومن التدقيق في عدد من قضايا بيع الحنطة بالدين لأجل يبلغ أربعة أو ستة أو عشرة أشهر يتبين أن وسطي سعر المكوك منها يبلغ حوالي ٨٠٠ درهم حلبي وقد ينزل الى ٧٥٠ أو يرتفع الى ٨٨٨ درهما(٤٦) ، ويتوقف ذلك على الكمية ومدة الوفاء بالدين وزمن عقد الشراء وبالتالي مدى حاجة المديون للسلعة وموقع الدائن ونفوذه وهكذا . واذا كان هذا هو سعر الشراء أو البيع بالدين فان سجل حماة يشير الى سعر آخر يصفه أنه السعر الواقع أي سعر السوق ، مثال ذلك أن قاضي حماة استدعى أناسا « من أهل المعرفة والوقوف » واستفسر منهم عن « سعر الشعير الواقع الآن في حماة فأجابوا : المكوك بمبلغ مائة درهم وثمانية وعشرين درهم عثماني فسطر على ما هو الواقع حسبما شرح فيه بطلب مفخر الاماثل محمد أمين ما بين سابقا » ، واعتمد هذا السعر في بيع « شعير حاصل السلطنة »(٤٧) . ويبدو من احدى القضايا ان سعر مكوك الحنطة الواقع آنذاك هو ٥٠٠درهم حلبي للمكوك(٤٨)، وعلى هذا فان بيع مكوك الحنطة بالدين يزيد بنحو ٣٠٠ درهم حلبي عن سعره الواقع ، ويشكل هذا ابتزازا كبيرا للمديونين .

ويلاحظ في جدول المديونين ان الريفيين أيضا يشكلون أكبر نسبة من المشترين للقطن بالدين ، ولكن هذه النسبة تقل بحوالي ٦٠٪ عن نسبة شرائهم الحنطة بالدين نظرا لشراء فئات أخرى ، مثل العلماء والحجاج بالاضافة الى الناس العاديين ، القطن بالدين بشكل متساو تقريبا بينهم .

وتهبط نسبة شراء الريفيين للقماش بالدين الى ٥٨ر٧٪ وهذا دليل ضيق ذات يدهم واهتمامهم بشراء الحاجيات الحياتية الاساسية . وتقل أكثر من ذلك نسبة شرائهم للجوخ المرتبط بمستوى اجتماعي واقتصادي أرفع . ويبرز في شراء هاتين المادتين الاناس العاديون نظرا لكثرة أعدادهم وربما دلّ ذلك أيضا على مستوى حياتي أرقى بين سكان حماة بالنسبة لسكان الريف ، وان شراءهم للجوخ بالدين دليل على قدرتهم على الوفاء بهذا الدين . ولا يعني هذا أن المشترين للقماش والجوخ من الاناس العاديين هم بالضرورة يستهلكون ما يشترون بل يسوقون ذلك في حماة وفي الريف بدرجة أقل .

ونلاحظ أن فئة الحجاج هي أكثر الفئات متاجرة بالتوابل والعطور بيعا وشراء بالدين ، لارتباط ذلك بالتجارة البعيدة وبحكم سفرهم الى الحج حيث يتم التعامل

ببعض منتجات الشرق الاقصى التي يحملها الحجاج والتجار في ذلك الموسم بالاضافة الى ما تحمله قوافل التجارة من حماة واليها وعبرها سواء باتجاه الجنوب أو الشرق نحو العراق أو الشمال باتجاه حلب أو الغرب الى طرابلس وما وراءها . ويذكر مثلا تعاقد أبو بكر ابن الحاج محمد الحمال وعفيف بن موسى اليهودي على أن ينقل الاول على جماله ستة أحمال تضم قماشا من حماة الى صفد بأجرة قدرها ٥٤٥٠ درهما حلبيا(٤٩) . ومما يدل أيضا على أهمية حماة التجارية على طريق القوافل المثال الذي يذكر التزام محمود القطلبي باج (رسم مرور) قوافل المعرة بطريق المقاطعة لمدة سنة بمبلغ عشرة آلاف درهم عثماني بكفالة آخرين وبقبول وتصديق من نقولا بن عفيف النصراني الوكيل عن مفخر الامراء حمزة سلطان أمير لواء حماة(٥٠) .

وتشكل فئات الاناس العاديين والريفيين والعلماء نسبا متقاربة من التعامل بالحيوانات مثل الجمال والفرس والحمير والبقر والغنم والماعز بسبب الطابع الريفي الغالب في لواء حماة وتشابك المصالح بين المدينة والريف . وربما كان للعلماء هذه النسبة الموازية تقريبا للريفيين بحكم زيارات بعضهم للريف أو توظيف البعض أموالهم في العقارات الزراعية أو لكون بعضهم مسؤولين عن الاوقاف الزراعية . ويمكن اجراء فرز لانواع الحيوانات التي تبيعها أو تشتريها بالدين كل فئة اجتماعية ومنها يتم التعرف على نوعية الاعمال التي تقوم بها .

ويلفت النظر في جدول السلع الاخرى المتنوعة أن الاناس العاديين يشكلون ٥٣ر٩٧٪ من بين مشتريها بالدين في حين انهم لا يتجاوزون ١٣ر٣٢٪ بين بائعيها بالدين. وربما دل ذلك على أنهم أميل الى الفقر منهم الى الغنى وهم الذين يشكلون غالبية السكان.

والى جانب عمليات القرض والدين الشرعي المالي والبيع والشراء بالدين شاع في لواء حماة ما عرف بالسلم الشرعي كما في المثال التالي : حضر في مجلس الشريعة المطهرة ناصر ابن الحاج محمد بن الشنار وأقر واعترف بأن عليه وفي ذمته لكرسيول بن فرنسيس الافرنجي البندقي من القطن المحلوج السقي الحموي بطريق السلم الشرعي المقبوض رأس مال السلم في مجلس العقد مبلغ ستين ألف درهم حلبي من ذلك مؤجل الى ثلاثة أشهر خمسة قناطير قطن والباقي مؤجل الى مضي تسعة أشهر من تاريخه ، ثم ابتاع المقر من المقر له وهو باعه عشرين خرقة جوخ كرمزي ملون . . . بثمن قدره أربعين ألف درهم حلبي مقبوض ومحل أداء السلم المذكور في حماة حرر بتاريخ ٢٦ رمضان ٩٤٢/ ١٧ آذار ١٥٣٦ . وقبل ذلك بأربعة أيام تمت صفقة مماثلة بين البندقي نفسه والزيني ابن أحمد بن الزميطة من حماة حددت فيه كمية القطن بأنها خمسة عشر قنطارا ورأس مال السلم خمسة واربعين ألف درهم حلبي مؤجل الى مضي سنة . واشترى الزيني

بالمبلغ نفسه اثنتين وعشرين خرقة جوخ ونصف خرقة من البندقي(٥١) . وهناك حالات من السلم متواضعة جداً في كمية السلعة كما في اقرار أحمد بن علي أن بذمته للحاج سويدان ٤٥ رطلا من التين السقي بطريق السلم الشرعي ، أو اقرار آخر أن بذمته ٢٠ رطلا من الزيت من جهة السلم الشرعي بالشروط الشرعية المقبوض رأس مال السلم مبلغ ١١٠ دراهم (؟) وأنه كان مؤجلا فصار حالا(٥٢) .

ويتبين من سجل حماة أن السلم الشرعي يتضمن دفع مبلغ من المال مقدما لقاء شراء كمية معينة من سلعة ما تسلم في موعد لاحق محدد . ويتم عقد السلم في مجلس خاص يبرم فيه يسمى مجلس العقد الذي يرد ذكره في عدد كبير من عقود السلم هذه . والملاحظ أن في السلم يحدد سعر السلعة وقيمتها سلفا وتدفع قيمتها مقدما ، وهذا يعني انه يتفق على السعر والكمية في مجلس العقد بقطع النظر عما يكون عليه السعر الواقع في وقت العقد أو عما سيكون عليه وقت التسليم . ويذكر ابن عابدين في الحاشية (٥٣) ان الاولى تعريف السلم بأنه « شراء آجل بعاجل » . ولكن تحديد سعر شراء السلعة مقدما في عقد السلم فيه غبن واضح للبائع بدليل عدد من القضايا الواردة في سجل حماة . ففي احداها ادعى الحاج زين العابدين بن عز الدين على قاسم ابن الحاج محمد بخمسة مكاكيك حنطة من جهة السلم الشرعي المقبوض عن كل مكوك ١٧٠ درهما حلبيا(٥٤) ، وهذا يعني أن سعر المكوك المدفوع سلفا بهذا المقدار يقل بمقدار ٣٣٠ درهما حلبيا عن السعر الواقع في الفترة ذاتها وبحوالي ٦٣٠ درهما حلبيا عن سعر الشراء بالدين . ففي عقد السلم يخفض المبلغ بمقدار متساو مع المقدار الذي يزداد فيه الشراء بالدين وذلك بالنسبة للسعر الواقع لمكوك الحنطة . ويكون الغبن في الحالين على صاحب الحنطة أو السلعة .

ويبدو أن ابتزاز الفلاحين بواسطة السلم قد استفحل بعد ذلك دون أن تتدخل السلطة للحد منه مما جعل ابن عابدين يصف ذلك الابتزاز وهذا التهاون بقوله : « (قوله وأقبح من ذلك السلم الخ) أي أقبح من بيع المعاملة المذكور ما يفعله بعض الناس من دفع دراهم سلما على حنطة أو نحوها الى أهل القرى بحيث يؤدي ذلك الى خراب القرية لانه يجعل الثمن قليلا جدا فيكون أضراره اكثر من أضرار البيع بالمعاملة الزائدة عن الامر السلطاني فيظهر ان المناسب أيضا ورود أمر سلطاني بذلك ليعزر من يخالفه وظاهره انه لم يرد بذلك امر والله أعلم »(٥٥) .

وباستعراض عقود السلم الشرعي في سجل حماة قيد الدراسة نجد انه من ثمانية عشر قضية تتعلق بالسلم الشرعي انكر المدعى عليه في معظمها أن يكون بذمته اي التزام ولكن شهودا معدولين أثبتوا عليه الالتزام بالوفاء بالسلم . وفي بعض القضايا يتم عرض

السلم على المحكمة لاعلام المدعى عليه بحلول الوفاء بالسلم . ويشير عدد من القضايا الى رأس مال السلم وهو المبلغ الذي قبض لقاء تقديم السلعة المتعاقد عليها بعد اجل . وبيع السلم كان يتم بين سكان حماة أو بينهم وبين سكان الريف . ويبرز الريفيون كمدعى عليهم أو مسلم اليهم من قبل اهل مدينة حماة أرباب السلم . ولم يكن السلم الشرعي مقتصرا على المسلمين ، فقد سبقت الاشارة الى التاجر البندقي الذي اشترى قطنا بطريق السلم . وهناك قضية تتعلق بفرج بن ظاهر النصراني من قرية افيون الذي أقر ان بذمته مكوك حنطة بالكيل الحموي بطريق السلم الشرعي لأحمد بن جمعة(٥٦).

ويبدو من عقود السلم الشرعي في سجل حماة أن التعامل بالسلم كان محدودا بالمقارنة مع الديون وربما مرد ذلك ما يترتب عليه من اجحاف بحق المسلم اليهم . وباستثناء عقدي السلم الضخمين اللذين قام بهما التاجر البندقي كرسيول للحصول على عدة قناطير من القطن الحموي فان العقود الاخرى بين السكان المحليين تتضمن كميات ضئيلة من مواد غذائية متنوعة كما يبين الجدول التالي :

انواع السلع المتداولة في عقود السلم الشرعي وأعداد عقودها وكمياتها وأثمانها

السلعة	عدد العقود	الكمية	الثمن بالدراهم الحلبية
حنطة	٣	٦ مكاكيك	٨٥٠ (جزئيا)
		٧ شنابل	
قطن	٣	١٥ قنطارا	١٠٠٢٠٠
		٦٥ رطلا	
		كمية كبيرة دون تحديد	
قماش	٢	مع ١٠ أرطال قطن	
		مع ٢٠ رطلا من الزيت	١٠٢٠ (جزئيا)
زيت	٧	٢٢٩ رطلا	(دون ذكر سعر)
زبيب	١	١٠ أرطال	(دون ذكر سعر)
بصل	١	٢٥٠ رطلا	(دون ذكر سعر)
تين	١	٤٥ رطلا	(دون ذكر سعر)

ويمكن اجراء مقارنة بين اجمالي المبالغ الموظفة في القروض والديون الشرعية والبيوع بالدين والسلم الشرعي كالتالي :

	الاجمالي بالدراهم الحلبية	النسبة ٪
القروض	٢٤٦٢٨٧	١٥ر١٥
الديـون	١٢١٢١٩	٤٦ر٧
البيوع بالدين	١١٥٥٥٥٠	١١ر٧١
السلم الشرعي	١٠٢٠٧٠	٢٨ر٦
المجموع	١٦٢٥١٢٦	٠٠ر١٠٠

وللتعرف على ما تساويه هـذه الارقام الموظفـة في السوق المالية في لواء حمـاة نقارنها بالاموال الموظفة في السوق العقارية في اللواء نفسه وفي الفترة ذاتها .

جـدول بيـوع العقارات وأثمانهـا

نوع العقار	عدد البيوع	الثمن بالدراهم العثمانية	الثمن بالدراهم الحلبية
سكني	٤٠	٦٧٠٤٥	١٦٧٦١٢
تجاري	٩	٢٠٣٧٠	٥٠٩٢٥
زراعي	٧	١٢٢٠٠	٣٠٥٠٠
المجموع	٥٦	٩٩٦١٥	٢٤٩٠٣٧

وبمقارنة حجم الاموال الموظفة في البيوع العقارية بحجم الاموال الموظفة في عمليات الديون نتبين أن السوق العقارية لم تشكل سوى ٣٢ر١٥ ٪ من مجموع عمليات الديون بأنواعها مما يدل على نشاط وحيوية السوق الماليـة في لـواء حماة وما يقتضيه هـذا النشاط من التعامل بثقة بين الناس واستغلال الطاقات الاقتصادية بقطع النظر عن أي فئة اجتماعية كانت الرابحة وايهـا كانت المستغلة . ويبقى حجم التعامـل في سـوق العقارات في حدود معقولة لان كثرة التوظيف فيه تعطل السيولة اللازمـة في استغلال الموارد الطبيعية .

وقد وجدت ضمانات للوفاء بالدين مثل الرهن والكفالة بنوعيها بالمال وبالنفس . ويبدو ان الرهن كان أقلها استخداما بدليل عدم وروده بشكل كبير في سـجل حماة . وفي الحالات التي يرد فيها كان الراهن في أحدها رجلا سباهيا رهن خنجرا على مبلـغ ٥٠٠ درهم عثماني . وفي أخرى رهن حاج بذمته مبلغ ١٣٠٠٠ درهم حلبـي عن ثمـن قماش لحاج آخر داره ودكانا بقربهـا وحوشا ملاصقا للدكـان ونصف دار مقسومـة (قسيم الدار) وثلاث بقرات رهنا صحيحا شرعيا قبل به أبناء الراهن . ثم أعار المقر

له الرهن المذكور الى الراهن لينتفع به(٥٧) . وفي الحالين كان الرهن رمزيا ويدل على علاقات ثقة بين السكان .

وتكثر حالات الكفالة المالية وفي عدد منها يدفع الكفيل مبلغ الكفالة (المكفول به) الى الدائن (المكفول له) عن المديون الاصلي (المكفول عنه) ، وفي بعضها ينكر الكفيل كفالته فيثبتها الشهود في الغالب . وتستخدم الكفالة في مختلف أنواع الديون والقروض وأنواع السلع وبين مختلف الفئات الاجتماعية . والكفالة في الغالب فردية ولكن توجد حالات فيها أكثر من كفيل واحد أو أكثر من مكفول عنه واحد . ويكثر هذا ضمن الاسرة الواحدة وكذلك في القرية الواحدة حيث يكثر المديونون فيكفلون بعضهم جماعيا. وقد يكون الكفيل أو المكفول أنثى ، وذلك عادة ضمن الاسرة الواحدة (٥٨) .

وأكثر الضمانات الشرعية شيوعا في حماة هي كفالة النفس التي تشمل قضايا الديون وغيرها . وتقضي بأن يكفل شخص نفس شخص آخر أي يلتزم أو يضمن احضار هذا الشخص الى طالبه أو الى المحكمة الشرعية لمقاضاته . وهذا نوع من التكافل الذاتي الذي يلقي على السكان مسؤوليات معنوية كبيرة ويدل في تطبيقه على درجة عالية من الشعور بالمسؤولية تجاه الآخرين ، وبالتالي تجاه المجتمع ، وهذا نابع من تقاليد راسخة تقوم على الثقة والتقى والالتزام بالقواعد الدينية ، وهي صفات قويمة ساعدت المجتمع على الاستمرار في حسن الاداء بالرغم من مساوىء الحكم التي تعرض لها .

وتختلف كفالة النفس عن كفالة المال ان الاولى تنتهي بموت الكفيل أو المكفول عنه ، أما الثانية فلا تبطل بموت الكفيل وتترتب الكفالة على ماله ويعود الورثة عندئذ الى مطالبة المكفول عنه . وتختلف الاجتهادات حول استثناءات ذلك(٥٩) . وترد في سجل حماة مائة واثنتا عشرة كفالة نفس تفيد دراستها في معرفة كيفية تطبيق هذا النوع من الكفالة في مكان وزمان معينين ومدى تطابقه مع آراء الفقهاء . وتنتظم كفالات النفس هذه قواسم مشتركة منها أن معظمها فردي ، أي ان فردا يكفل فردا آخر انه متى طلب من قبل خصمه أحضره الكفيل . ويدل المثال التالي على أكثر حالات كفالة النفس شيوعا: كفل عمر بن بدر الكردي نفس محمد بن عبد الله بطلب خصمه مصطفى بن موسى انه متى طلب أحضره(٦٠) . وهناك حالات يكفل فيها اثنان شخصا واحدا ، أو يكفل شخص واحد اثنين معا . وتكثر الحالات التي يكفل فيها الاب ابنه ، والابن أبيه ، والاخ أخيه ، والحموي الريفي ، والريفي الريفي . كما ترد حالات يكفل فيها المسلم المسيحي والمسيحي المسلم ، وكذلك المسيحي المسيحي ، واليهودي اليهودي . وليس هناك بوجه عام من زمن محدد لكفالة النفس . وترد حالتان حددت فيهما كفالة النفس بثلاثة أيام وكلتاهما تتعلقان بطلب السلطة ففي احداهما كفل شخص من محلة المنعزلة بحماة

نفس اثنين من القرويين بطلب خصمهما جاويش أحمد بن عبد الله الى مضي ثلاثة أيام من تاريخ الكفالة . وفي الاخرى كفل شخص من محلة الحوارنة بحماة بدن شخص من قرية الموعة الى ثلاثة أيام انه يحضره الى مجلس الشرع(٦١). وهذه هي الحالة الوحيدة التي ترد فيها كلمة « بدن » عوضا عن « نفس » ولعل المقصود التأكيد على احضاره موجودا . وفي الحالة التي لا يمكن معها كفالة نفس المطلوب بعينه فان الكفالة تتناول شخصا يمت بصلة قوية الى الشخص المطلوب كما في المثال التالي : كفل أبا يزيد بن جمعة الكردي من محلة الجسر بحماة نفس علي ابن الحاج سليمان على أنه متى طلب أحضره بموجب هذه الكفالة لاجل احضار أخيه حمو بخصوص دعوى علي التركماني من جهة سرقة فرس(٦٢) . وتنتهي كفالة النفس بتسليم الكفيل شخص المكفول الى خصمه الذي يحضره عندئذ الى المحكمة كما في المثال التالي : كفل جمعة بن المعفن من قرية كازو نفس المرأة ورذقان بنت عمر بطلب حسين بن محمد انه متى طلبت أحضرها، وسجل ذلك في المحكمة بتاريخ ١٩ رمضان ١٢/٩٤٢ آذار ١٥٣٦ . وبعد ثلاثة أيام سجل في المحكمة أن جمعة هذا سلّم المرأة ورذقان الى خصمها حسين وهي التي كفل نفسها عند حسين المذكور ، وفرغ بذلك عن الكفالة فصدقه حسين(٦٣) .

وترد حالات مركبة من كفالة النفس تتم فيها كفالة الكفيل من قبل غيره كما في كفالة أبي بكر بن شمس الدين من محلة العليليات التحتا بحماة نفس ابن أخيه بركات بطلب خصمه الشيخ عز الدين متى طلب أحضره . ثم كفل أحمد العقيلي ومحمد بن حسين نفس أبي بكر بن شمس الدين بطلب الشيخ عز الدين انه متى طلب أحضراه(٦٤) . وفي قضية أخرى كفل عيسى بن سركين نفس خليفة ابن الحاج سليمان بطلب محمد بن القد ثم كفل خمسة أشخاص ، في القضية ذاتها ، نفس عيسى المذكور بعد طلب محمد المذكور انه متى طلب أحضروه(٦٥) . ويبدو أن الهدف من هذه الكفالة المركبة تأكيد حقوق الخصم .

وقد تجاوزت الكفالة بالنفس الحدود الدينية ، سواء في الواقع أم في الشرع ، فقد جاء أن المعلم عبد الوهاب ابن الحاج محمد الفاخوري كفل نفس حنا بن منصور النصراني متى طلب أحضره كفالة مقبولة بطلب القره بن محمد . وفي مثال آخر كفل سمعان بن عيسى النصراني نفس بركات بن فرج الله بطلب أبي السعود متى طلب أحضره(٦٦) . ويدل هذا على التعايش القائم والتعامل المشترك والثقة بين السكان بقطع النظر عن مذاهبهم .

ويمكننا تبين الفئات الاجتماعية التي ينتمي اليها كل من الكفلاء والمكفولين والخصوم كما في الجدول التالي :

الفئات الاجتماعية	الكفلاء	المكفولون	الخصوم
موظفون	—	—	١٤
شيوخ	٤	—	٣
حجاج	٨	٤	٨
عاديون	٥٤	٦٣	٥٩
ريفيون	١٩	١٥	٢
تركمان وأكراد	٥	٣	٢
نساء	١	٣	—
مسيحيون	٢	٣	—
يهود	٢	٢	—
المجموع	٩٥	٩٣	٨٨

يضم الموظفون أمير لواء حماة ، أمين الخواص السلطانية ، سباهية ، القاضي ، والمسؤول عن السجن. ويفسر عدم اتفاق الارقام مع بعضها في الجدول أعلاه أنه في بعض الحالات لا يذكر اسم الخصم ، وفي حالات أقل لا يذكر اسم المكفول . وهذه الارقام تمثل بمعظمها كفالات افرادية ولكن هناك حالات تضم كفيلين أو أكثر في آن واحد، وكذلك بالنسبة للمكفولين والخصوم . فبين الحجاج حالة واحدة يظهر فيها حاجان كفيلان . وبين العاديين أربع حالات لكفيلين وواحدة لثلاثة كفلاء . وبين المكفولين العاديين حالتان لمكفولين وواحدة لثلاثة . وبين الخصوم حالة لثلاثة . أما الريفيون فيضمون حالة واحدة لكفيلين وحالتين لمكفولين اثنين وحالة لثلاثة مكفولين معا . وهناك حالة لثلاثة كفلاء بين المسيحيين وحالة لكفيلين بين اليهود . ويظهر بين الكفلاء الريفيين أربع حالات من الكفلاء الحجاج أبقيناهم ضمن فئة الريفيين . ولو أضفنا هذه الحالات الاربع الى فئة الحجاج الكفلاء لارتفع عدد هذه الفئة الى اثني عشر كفيلا ، وبذلك تصبح ثالث أكبر فئة بعد العاديين والريفيين مما يدل على الثقة بالحجاج ككفلاء وعلى نفوذهم في المجتمع وكذلك على الدور الاقتصادي الذي لعبوه في مجالات القروض والديون بأنواعها والسلم الشرعي. ويلفت النظر أيضا أن الموظفين يشكلون أكبر نسبة بين الخصوم بعد فئة العاديين نظرا لتأخر العديد من المكلفين أو المديونين بتأدية التزاماتهم المالية لهم .

واذا نظرنا الى علاقات القربى بين الكفلاء والمكفولين نجد ان الاخ يكفل أخيه في ست حالات ، والاب ابنه في أربع حالات ، والابن أبيه في حالتين ، والام ابنتها في حالة واحدة ، والعم ابن أخيه في حالة واحدة أيضا . ويدل هذا على الترابط العائلي من جهة

وعلى الثقة بين الاسر من ناحية أخرى . ولا يبرز بين المكفولين الا حالة واحدة ضمت أبـا وابنه معـا .

وتبرز بين القرى التي ظهر فيها كفلاء ومكفولون معا الدجاجية ، كازو ، الموعة ، ومتنين . أما القرى التي ذكر فيها كفلاء فقط فهي ارجزى ، سكين ، كيسون ، معان، تعترين ، الظاهرية ، كفر حنين ، ودحسيس . والقرى التي فيها مكفولون فقط هـي أفيون ، القصيعية ، بيصين ، وركو ، تمتع ، والمعليقة .

مظاهر اجتماعية :

ترد في سجل حماة قضايا ذات مدلولات اجتماعية هامة مثل عقود الزواج والطلاق وأوضاع الامن سواء لجهة تنظيمه أو العبث به وما يرتبط بذلك من أحداث قتل وتهديد وسرقة . وتتبدى في هذه القضايا كذلك ملامح من الاخلاق العامة السوية ومحاولات المسّ بها كالرشوة وغصب المال وشرب الخمر والخطف والزنى . وهذه القضايا هامة بحدوثها كما هي هامة بمحاولات شجبها من قبل مرتكبيها أنفسـهم وكذلك من قبـل السلطة الدينية التي كانت تعكس ، في الوقت ذاته ، استنكار الشعب لها .

ويخص سجل حماة عقود الزواج بتفصيل وشمول لا يتوفر مثلهما في السجلات اللاحقة العائدة الى المحاكم الاخرى من بلاد الشام . وربمـا سبب ذلك أن المحكمـة الشرعية في هذه الفترة المبكرة من الحكـم العثماني كانت تعنـى أكثر شـيء بمهامهـا الاساسية من الاحوال الشخصية وتسوية علاقـات الناس بعامة قبـل أن تتشـعب اختصاصاتها لتشمل مختلف النواحي الاقتصادية والاجتماعية في الحياة اليومية التي طغت بالتدريج على قضايا الزواج والديون والكفالة وغيرها .

ويذكر سجل حماة ١٩٧ عقد زواج موزعة زمنيا كالتالي :

العام	جمادى الاولى	جمادى الثانية	رجب	شعبان	رمضان	شوال	ذو القعدة	ذو الحجة
٩٤٢	١٨	٤٢	٣٠	١٢	٣٢	٢٣	٢٨	٥
	محرم	صفر						
٩٤٣	٥	٢						

ويضاف الى هذه العقـود أربعة عقود زواج وردت في آخـر السجل ولم تميـز تفاصيلها بسبب التلف الذي لحق بأوراق السجل ، ولعلها من شهر صفر . ونظـرا لعدم تسلسل صفحات السجل وبالتالي تواريخه وامكانية ضياع بعض صفحاته فاننا

سنعتبر الاشهر بين جمادى الاولى ونهاية ذي القعدة ممثلة لعقود الزواج الفعلية . ويصعب معرفة ما اذا كان الزواج قد تم فعلا في التاريخ الذي سجل فيه العقد في المحكمة وان كان هذا هو الارجح نظرا لما ينطوي عليه عقد الزواج من شروط شرعية ومالية لا يصبح نافذا بدون ابرامها وتسجيلها في المحكمة . واذا كان الامر كذلك وان صفحات هذه الاشهر في السجل غير ناقصة تطرح عندئذ مشكلة تفاوت عقود الزواج بين شهر وآخر . ومن الطبيعي أن يرتبط ذلك بموقع الشهر الهجري من فصول السنة وما يترتب على ذلك من الانتهاء من جمع المحاصيل الزراعية أو من زرع الحبوب حيث يكثر الزواج بعد هذين الموسمين . واذا اعتبرنا أن أعداد عقود الزواج في الاشهر الاخيرة من عام ٩٤٢ متطابقة مع الواقع فان أكثر العقود حدوثا يقع في شهري جمادى الثانية ورجب / أواخر تشرين الاول حتى أواخر كانون الاول ، أي اثر الانتهاء من زراعة الحبوب التي تبدأ مبكرة من نصف أيلول(٦٧) . وتقل عقود الزواج في شعبان ثم تزداد بين بداية رمضان ونهاية ذي القعدة / أوائل شباط وأواخر أيار ١٥٣٦ ، أي قبل بدء موسم حصاد الحبوب . واذا كان عدد عقود الزواج بهذه القلة الواردة في أشهر ذي الحجة ومحرم وصفر فان ذلك يعني اشتغال القرويين بين أواخر أيار وأواسط آب في عمليات الحصاد والدرس والتذرية ثم في زراعة القطن . وربما شاعت عادة آنذاك لا تحبذ الزواج في اشهر الحج هذه .

ويمكن دراسة عقود الزواج من نواحي مختلفة منها ما يتعلق بالانفتاح والانغلاق الاجتماعي بين سكان مختلف أحياء حماة وبينهم وبين سكان الارياف الملحقة بها ، وحجم المهور بالنسبة لمختلف الطبقات الاجتماعية ومدلولاتها الاقتصادية ، وسن الزواج من حيث نسبة القاصرين الى البالغين بين الازواج من الجنسين، ثم أهمية الزواج في انشاء وحدة اجتماعية جديدة وأخرى اقتصادية تضافان الى مجتمع المدينة أو القرية . ولا تتوفر عينات كافية من التركات (المخلفات) في سجل حماة لنتعرف من خلالها على حجم الاسرة وعدد الزوجات والاولاد ونسبة القاصرين منهم الى البالغين والذكور الى الاناث . ومع ذلك يمكن أخذ عقود الزواج كمؤشر تقريبي لمجموع عدد السكان في لواء حماة . فاذا اعتبرنا أن الوسطي الشهري لعقود الزواج في حماة كما وردت في الاشهر العشرة أعلاه هو بواقع ١٩٫٧ فان مجموع العقود السنوي يصبح بحدود ٢٣٦ عقدا . واذا اعتمدنا قاعدتين قال باحث اجتماعي غربي انهما يمثلان نظاما عالميا في الزواج لدى الاقدمين وهما أن نسبة عقود الزواج تمثل ٩ بالالف من مجموع السكان ، وأن كل عقد زواج يؤدي الى وسطي ٤٫١٦ من الاولاد وأن نسبة الخصوبة تمثل ٣٥ بالالف من مجموع السكان أمكننا التوصل الى معدل وسطي للسكان يقع بين القاعدة الاولى والثانية(٦٨) ، وعلى هذا فاذا اعتبرنا أن عدد عقود الزواج في لواء حماة خلال عام واحد بين ٩٤٢ ـ ٩٤٣ / ١٥٣٥ ـ ١٥٣٦ هو ٢٣٦ عقدا يصبح الحد الادنى للسكان في اللواء

(وبصورة أدق في حماة وما يلحق بها قضائيا من قرى) حوالي ٢٦ ألف نسمة والحد الاعلى حوالي ٢٧ ألف نسمة . ويستخدم الباحث انطوان عبد النور هذه القاعدة ويطبقها على ما ذكره عبد الودود يوسف من أن سجل محكمة حماة الشرعية لعام ١٥٨١ يذكر ١٢٠ عقد زواج فيها فيصل الى وسطي لسكان مدينة حماة في ذلك العام يعادل ١٢ الى ١٤ ألف نسمة(٦٩) . ويتضاعف العدد في عينتنا مع ازدياد في الحد الادنى لانه يمثل سكان اللواء من مدنيين وريفيين . ويجب الاخذ بعين الاعتبار ما لحق بسكان بلاد الشام عموما بين عامي ١٥٣٥ – ١٥٣٦ و ١٥٨١ من عدم استقرار ديموغرافي لاسباب اقتصادية بمعظمها(٧٠) مما يجعل مقارنة أعداد السكان خلال هذه السنوات تقريبية .

تتوزع عقود الزواج المئة والسبعة والتسعين الى عقود زواج بين حمويين ، وبين ريفيين ، أو مشتركة بينهم ، أو مع التركمان كما في الجدول التالي :

زواج بين حمويين	زواج بين ريفيين	حمويون مع ريفيات	ريفيون مع حمويات	حمويون مع تركمان	زواج بين تركمان
٩٩	٧٣	١٠	٩	٣	٣

واذا ما أخذنا كل فئة من هذه الفئات على حدة ودرسنا نسب التزاوج بين محلات حماة ، ثم بين القرى ، وكذلك بين حماة والقرى وبالعكس نتوصل الى معلومات هامة حول الانغلاق والانفتاح في الحياة الاجتماعية وتماثل سكان المحلات أو القرى في النواحي الاقتصادية والاجتماعية . وقد اعتمدنا نصوص عقود الزواج الواردة في المحكمة الشرعية من حيث الانتساب الى المحلة أو القرية لان العقد ينص في الغالب على انتساب الزوج أو الزوجة الى مكان جغرافي .

وبدراسة عقود الزواج بين سكان محلات حماة تتبين لنا الاحصاءات التالية :

عقود الزواج في حماة

محلات الازواج	عدد العقود	محلات الزوجات وعدد العقود
الباب	١	الباب ١
باب الجسر	٤	باب الجسر ١ ، التل (لعلها تل شرشر)١ الحاضر ١ ، غير معروف ١
باب الغربي	٢	باب الغربي ٢
باب القبلي	٢	باب الغربي ١ ، المدينة ١
تحت الشجرة	٢	المرابط ١ ، غير معروف ١
جامع القاق	١	العليليات ١
الجعابرة	١	المدينة ١
الحاضر	١	المرابط ١

الحوارنة	٤	الحوارنة ٢ ، المرجين ١ ، غير معروف ١
سيدي عبد الله	١	سيدي عبد الله ١
الصفصافة	١	المرابط ١
العليليات	٢	غير معروف ٢
العليليات التحتا	٥	العليليات التحتا ٤ ، غير معروف ١
العليليات الشرقية	٣	العليليات الشرقية ٢ ، غير معروف ١
العليليات الفوقا	١	العليليات الفوقا ١
المحالبة	١	غير معروف ١
المرابط	٥	المرابط ٢ ، المحالبة ١ ، غير معروف ٢
المشارقة	٣	المشارقة ٢ ، المرابط ١
المنعزلة	٥	المنعزلة٣، سيدي عبد الله ١ ،غير معروف١ ،
غير معروف	٢٨	باب الجسر ٤ ، الجمابرة ٣ ، العليليات الشرقية ٣ ، الحاضر ٢ ، سيدي عبد الله ٢ ، العليليات التحتا ٢، المنعزلة ٢، وعقد واحد من كل من : الباب ، باب القبلي، باب المغار ، تحت الشجرة، زقاق الوتارين (في محلة دار الغنم)(٧١)، الصفصافة ، العليليات ، العليليات الفوقا المرابط ، المشارقة .
المجموع	٧٣	٧٣

وهناك ستة وعشرون عقدا آخر لم تذكر محلاتها ، سواء بالنسبة للازواج أو الزوجات ، ويبدو أنها لحمويين لانها لم تنسب الى قرى .

ويلاحظ في الجدول أعلاه أن أعلى نسبة زواج للازواج هي في محلات العليليات بمختلف اقسامها (١١ عقدا) تليها المرابط والمنعزلة (٥ لكل منهما) ، ثم باب الجسر والحوارنة (٤ لكل منهما) . وأعلى نسبة زواج للزوجات توجد في محلات العليليات بمختلف اقسامها (١٤ عقدا) ، ثم المرابط (٧ عقود) ، وباب الجسر والمنعزلة (٥ لكل منهما) ، وسيدي عبد الله (٤ عقود) .

وباستعراض التماثل بين محلات الازواج والزوجات نجد أنه في ٢١ عقدا من ٤٥ عقدا ذكرت فيها امكنة الزوجين (أي بنسبة حوالي ٤٧٪) كان يتم الزواج بين سكان المحلة الواحدة ، وفي ٥٣٪ منها يتم الزواج بين محلات مختلفة مما يدل على عدم تقوقع جغرافي وعلى انفتاح اجتماعي وكذلك على خلفية اجتماعية واقتصادية متقاربة بين الاحياء التي ترتبط بالزواج مع بعضها . وثمة ملاحظة اخرى وهي أن ارتفاع نسبة

المتزوجين أو المتزوجات في محلة دون أخرى، كما في محلات العليليات بأقسامها والمرابط والمنعزلة وباب الجسر ، ربما يدل على كثرة سكانية في هذه المحلات .

وينطبق الاندماج الاجتماعي في المدينة على الارياف سواء فيما يتعلق بالزواج بين سكان القرى أو بين هؤلاء وسكان حماة وبالعكس . وتبين لنا الارقام التالية نسبة التزاوج بين سكان القرى :

عقود الزواج في القرى

قرى الازواج	عدد العقود	قرى الزوجات وعدد العقود
ادنين	١	الطيبة ١
ارجزى	٨	ارجزى ٦ ، بيرين ١ ، الظاهرية ١
اسكندرية	٢	الدجاجية ١ ، معردس ١
البرزولة	١	البرزولة ١
بطيما	٣	بطيما ٣
بيصين	١	بيصين ١
تمك	١	تمك ١
الحميرة	١	براق ١
الدجاجية	٤	الدجاجية ٤
دحسيس	١	دحسيس ١
دير سوار	٣	دير سوار ٢ ، رنتيس ١
دير شمايل	١	معر تقب ١
دير مرام	١	دير مرام ١
الربيعة	٢	الربيعة ٢
الرقيطا	٢	الرقيطا ١ ، كفر دحل ١
سوين	١	سوين ١
الشيحه	١	متنين ١
الظاهرية	١٠	الظاهرية ٧ ، ارجزى ١ الاساور ١ ، معر تقب ١
الطيبة الشرقية	١	ادنين ١
القصيعية	٢	ارجزى ٢
قمحانة	٣	قمحانة ٣
الكفر	٢	الكفر ١ ، معر دفتين ١
كفر حنين	٢	كفر حنين ٢
كفر الدوس	٤	كفر الدوس ٢ ، ارجزى ١ ، الجنان ١ ،
كيسون	٣	كيسون ٣

قرى الازواج	عدد العقود	قرى الزوجات وعـدد العقود
المبطـن	١	المبطـن ١
متنين	١	زعتـين ١
المشـرفة	٢	المشرفـة ٢
معر تقب	١	معر تقب ١
معر دفتين	١	معر دفتين ١
معر شحور	١	الصبورة ١
معريـن	١	الكفـر ١
نحنـاح	١	نحنـاح ١
نعيرين	١	نعيرين ١
النيحـة	٢	النيحة ١ ، دنح ١
المجمـوع	٧٣	٧٣

يلاحظ في الجدول أعلاه أن قريتي ارجزى والظاهرية تتساويان في أعـداد عقود الزواج فيهما والتي تبلغ ثمانية عشر في كل منهما (١٠ عقود أزواج وثمانية عقود زوجات بالنسبة للظاهرية و ٨ عقود أزواج وعشرة عقود زوجات بالنسبة لارجزى) . وتليهمـا بالنسبة لعقود الازواج الدجاجية وكفر الدوس (٤ لكل منهما) ، وبطيما ودير سوار وقمحانة وكيسون (٣ لكل منها) ثم اسكندرية والربيعة والرقيطا والقصيعية وكفـر حنين والمشرفة والنيحة (٢ لكل منها) وهناك عقد واحد للقرية في تسع عشرة قرية . أما بالنسبة لعقود الزوجات فانه يلي ارجزى والظاهرية كل من الدجاجية (٥ عقود) وبطيما وقمحانة وكيسون ومعر تقب (٣ لكل منها) ، ثم دير سوار والربيعة وكفر حنين وكفر الدوس والمشرفة ومعر دفتين (٢ لكل منها) ، ثم تلي ست وعشرون قرية لكـل منها عقد واحد . واذا كان عدد عقود الزواج يتناسب وعدد السكان فان أكبر القرى هي ارجزى والظاهرية ، تليهـا الدجاجية وكفر الدوس وبطيمـا وقمحانة وكيسـون وهكذا بحسب تسلسل أعداد العقود .

ويلاحظ كذلك ان القرى الاقل في عقود الزواج تنحو للزواج مـن داخلها حصـرا وهذا شأن أربع عشرة قرية من مجموع القـرى البالغ سبعا وأربعين قرية ، أي بنسبة تقرب من ١٩ ٪ في حين ان النسـبة الاكبر مـن القـرى (حوالي ٨١٪) تتزاوج مـن داخلها ومع غيرها ، أو مع غيرها حين تكون أعداد العقود أحاديـة . وهذا دليل آخـر من ريف حماة على عدم تقوقع القرى بغالبيتها على نفسها . ولهذه المصاهرة بين القرى أهميتها السياسـية فضـلا عن مدلولاتهـا في الترابط الاجتماعـي والاقتصـادي في الريف الحموي .

ويظهـر مثل هـذا الترابط بين حماة والريف في عقـود الزواج بـين الحمويين والريفيين وبالعكس كما في الجداول التالية :

زواج الحمويين من الريفيات

محلة الزوج	عدد العقود	قرية الزوجة
الحاضر	١	نقير الجلة
الجعابرة	١	متنين
العليليات	١	كيسون
العليليات الشرقية	١	الخالدية
المحالبة	١	الرقيطا
غير معروف	٥	الدجاجية ـ درقومية ـ الظاهرية ـ كازو ـ معر تقب
المجموع	١٠	١٠

زواج الريفيين من الحمويات

قرية الزوج	عدد العقود	محلة الزوجة
أكسيتلون	١	ـــ
أيو	١	العليليات الفوقا
الرقيطا	١	ـــ
قمحانة	١	العليليات الفوقا
المشرفة	١	ـــ
معر سلم	١	جامع القاق
معر تقب	١	ـــ
نعيرين	٢	الرحبة
المجموع	٩	٤ محلات و ٥ غير معروفة

وبالرغم من ضآلة عقود الزواج المتبادلة بين الحمويين والريفيين والتي لا تعدو ١٩ عقداً من مجموع ١٩٧ عقداً ، أي بنسبة ٩٫٦٤٪ فانها تدل على علاقات اجتماعية واقتصادية وربما تمازج سكاني ناتج عن هجرة من الريف الى المدينة وبخاصة لان معظم أحياء حماة التي تزاوج سكانها مع الريفيين مثل الحاضر والعليليات تقع خارج سور وأبواب المدينة ، ويشار اليها انها ظاهر حماة في حين ان التي داخل السور يشار اليها انها في نفس حماة كما في العبارات التالية : « جميع الدار الكائنة في نفس حماة في محلة باب المغار » أو « جميع الدار ظاهر حماة في محلة الحاضر »(٧٢) .

ويتجاوز الترابط الاجتماعي الحدود العرقية للسكان فالى جانب ثلاثة عقود زواج بين تركمان وتركمانيات نجد ثلاثة عقود زواج أخرى بين رجال حمويين ونساء تركمانيات . ومما يضفي على هذا البعد الاجتماعي أهمية خاصة أن معظم التركمان في هذه العقود الستة كانوا من طائفة البياضة التي أشير اليها أيضا طائفة بياضة حماة وهذا يعني تجاوز حتى حدود الطائفة القوية . وتؤكد عقود الزواج هذه ، من ناحية أخرى ، تواجد التركمان في منطقة حماة في هذا الوقت المبكر من الحكم العثماني الذي استخدمهم في الدفاع عن المناطق الآهلة ضد هجمات البدو من البادية .

ويلاحظ في عقود الزواج عموما أن عددا قليلا من الحالات لا يتجاوز الخمسة ، كما يبدو من الاسماء ، تمّ فيها الزواج بين أفراد يحملون الكنية ذاتها في القرية أو المحلة نفسها . وفي حالتين حدثت مصاهرة مزدوجة بين أسرتين . وفي حالة أخرى تزوج أخان من أسرة واحدة . وبالرغم من أنه يصعب الوصول الى احصاء دقيق نسبيا حول الزواج بين الاقرباء بسبب عدم توفر الكنية المحددة في غالب الاحيان فان الاتجاه الغالب في سجل حماة أن الزواج يقل بين أقرباء الدرجة الاولى سواء في الريف أو في المدينة ، أو ربما أن عقود الزواج بين الاقرباء هؤلاء تبقى ضمن الاسر المتقاربة ولا تسجل في المحكمة .

وثمة أمر آخر وهو انه في عقود الزواج كان الاب أو الاخ أو العم أو شخص آخر يزوج الرجل بالوكالة عنه كما في العبارة التالية : « زوّج عيسى بن عثمان من قرية قمحانة لموكله أخيه سويدان مخطوبة موكله سعدة بنت (عبد) القادر من القرية المذكورة البنت البكر البالغة فزوجها باذنها ورضاها وتوكيلها أخوها أحمد . . »(٧٣) . وفي عقود أخرى يزوج الشخص نفسه كما في العبارة التالية : « تزوج أحمد بن حسين من قرية اسكندرية لنفسه مخطوبته عايشة بنت عيسى بن عثمان من قرية الدجاجية . . »(٧٤) . أما الخطيبة فهناك من يزوجها من أفراد أسرتها أو من غيرهم باستمرار تقريبا . وفي حالة واحدة زوجت امرأة ثيب نفسها (٧٥) . ويبين الجدول التالي نسبة من يتزوج بالوكالة أو بنفسه في حماة وفي الريف كما نصت على ذلك عقود الزواج بشكل واضح :

الزواج في حماة		الزواج في الريف	
بالوكالة	بالنفس	بالوكالة	بالنفس
١٦	٣١ = ٤٧	٤٧	٣٦ = ٨٣

يتبين أن نسبة الزواج بالنفس في حماة تبلغ حوالي ٦٦٪ وفي الريف ٤٣٫٣٧٪ مما يدل على سيطرة أسروية أكبر في الريف على الابناء وعلى تقاليد عائلية أكثر رسوخا وربما على صغر سن الزواج بأكثر من المدينة . ولعل كثرة الزواج «بالنفس» في حماة تدل على

استقلالية اقتصادية وبالتالي سكنية أكثر من الريف وكذلك على تجاوز سن البلوغ. ويلاحظ أن حالات زواج القاصرين نادرة في حين انها توجد بنسبة متدنية بين القاصرات .

وتفيد عقود الزواج ، وبخاصة مبالغ المهور فيها (يسمى سجل حماة المهر بالصداق) ، في التعرف على مستويات هذه المهور في حماة وفي الريف التابع لها وفي مقارنة قيمة المهر الاقتصادية مع مستويات الاسعار السائدة فيما يختص بالعقارات والمواد الغذائية وغيرها . ويلفت النظر أن معظم المهور تحسب بالدراهم العثمانية وقلة منها لا تتجاوز ١٧ مهرا من أصل ١٩٧ تحسب بالدراهم الحلبية . وربما تفسير ذلك أن الاولى ذات قيمة مادية ومعنوية أكبر لانها معتمدة في أنحاء الدولة . ولهذا فسنحول الدراهم الحلبية الى دراهم عثمانية حيث وجدت وندرسها على شكل فئات من المبالغ كما في الجدول التالي :

فئات المهور بالدراهم العثمانية

فئات المتزوجين	تحت ١٠٠٠	١٠٠٠– ٢٠٠٠	٢٠٠١– ٣٠٠٠	٣٠٠١– ٤٠٠٠	٤٠٠١– ٥٠٠٠	٥٠٠١– ٧٠٠٠	فوق ٧٠٠٠	المجموع
زواج بين حمويين	٧	٣٢	١٤	٣٢	١٠	١	٣	٩٩
زواج بين ريفيين	١	٢١	٩	٢٣	١١	٧	١	٧٣
حمويون وريفيات	٢	٢	١	٣	–	٢	–	١٠
ريفيون وحمويات	–	٣	–	٤	١	–	١	٩
حمويون وتركمان	٢	١	–	–	–	–	–	٣
تركمان	–	–	١	١	١	–	–	٣
المجموع	١٢	٥٩	٢٥	٦٣	٢٣	١٠	٥	١٩٧

يلفت النظر أن عقود زواج الحمويين التي تتراوح مهورها بين ١٠٠٠ و ٤٠٠٠ درهم عثماني تشكل ٧٨ عقدا أي بنسبة ٧٨ر٧٨٪ من مجموع عقود زواجهم . أما عقود الريفيين ضمن فئات المهور ذاتها فتبلغ نسبتها ٦٠ر٧٢٪ مما يدل على أن عادات الريف الاجتماعية ومستوى المهور فيه لم تكن تختلف كثيرا عما كانت عليه في حماة بسبب التشابه في العادات والتقاليد وربما في المستوى الاقتصادي . وفي حين تكثر عقود الحمويين التي يقل واحدها عن ألف درهم عثماني عن عقود الريفيين في هذه الفئة بنسبة سبعة الى واحد يحدث العكس في فئات المهور العليا التي تتجاوز اربعة آلاف درهم عثماني اذ يتفوق فيها الريفيون بنسبة ٦٥ر٢٤٪ على نسبة الحمويين البالغة

١٤ر١٤٪ ، وربما يفسر ذلك بأهمية ارتفاع المهر في الريف من ناحية اقتصادية اذ يفيد منه أهل الفتاة .

أما المهور الاقل عن ألف درهم فهي بمعظمها تخص زوجات توفي أزواجهن ثم تزوجن من جديد ، ويشير سجل حماة الى الواحدة منهن بأنها ثيب . ويستثنى من ذلك عدد قليل جدا من النساء الثيبات اللواتي تتجاوز مهور زواجهن الجديد الالف درهم . ويلفت النظر ان هؤلاء النسوة تزوجن من جديد ، في معظم الحالات ، كما يذكر سجل حماة ، بعد وفاة أزواجهن بفترة تتراوح من أربعة أشهر ونصف الشهر الى سنة . وهناك بضع حالات تم الزواج فيها بعد سنتين أو ثلاث سنوات ؛ وفي حالة واحدة بعد ثماني سنوات . ويبلغ مجموع النساء الثيبات اللواتي تزوجن من جديد ٤٠ من مجموع المتزوجات البالغ ١٩٧ ، أي بنسبة ٣٠ر٢٠٪ . ومما يجدر ذكره انه ليس هناك من اشارة في السجل لعدد الزوجات . ويتبين من تركتين فقط وردتا في السجل أن المتوفى الواحد فيهما خلف زوجة واحدة .

ويلفت النظر أن زواج القاصرات لم يكن كبيرا فقد بلغ عددهن ٩ قاصرات بين مجموع عقود الزواج الـ ١٩٧ ، أي بنسبة حوالي ٥ر٤٪ مما يدل على الالتزام بقواعد اجتماعية سليمة . ويزداد وسطي المهر في حالة زواج القاصرات اذ يبلغ ٢٤٠٠ درهما عثمانيا وهو أعلى من وسطي المهر لدى الحمويين وأقل منه بين الريفيين .

ويلاحظ أن المهر يتساوى فيه تقريبا وسطي المعجل والمؤخر منه . ويمكن دراسة ذلك بالنسبة للحمويين والريفيين وفق الارقام التالية التي تقوم على دراسة تفاصيل المهر في كل عقد زواج ، وهي معطاة بالدراهم العثمانية . وقد أهملنا بعض المهور لعدم توفر التفاصيل فيها :

الفئة	العدد	مجموع المهور	الوسطي	مجموع المعجل	الوسطي	النسبة	مجموع المؤخر	الوسطي	النسبة
الحمويون	٩٣	٢٧٩٨٠٠	٣٠٠٩	١٣٧٢٤٠	١٤٧٦	٤٩ر٠٥	١٤٢٥٦٠	١٥٣٣	٥٠ر٩٥
الريفيون	٧٣	٢٦٠٤٢٠	٣٥٦٧	١٣٣٨٢٠	١٨٢٣	٥١ر٣٩	١٢٦٦٠٠	١٧٣٤	٤٨ر٦١

يتبين من هذه الارقام أن وسطي المهر عند الريفيين أكثر قيمة منه عند سكان حماة اذ يشكل عند هؤلاء الاخيرين ٣٦ر٨٤٪ منه عند الريفيين. ويفسر ذلك بكون المراة في الريف عنصرا منتجا في الحياة الزراعية ولهذا تفيد أهلها وكذلك زوجها ، ومن هنا أهميتها التي تعكسها اهمية المهر . ويتأكد هذا في كون وسطي المعجل لدى الريفيين يزيد على نظيره بين الحمويين. ويبدو أن المعجل كان يأخذه كله أو بعضه أهل الفتاة(٧٦).

ولمعرفة القيمة الشرائية للمهر ، وبالتالي ما يشكله المهر من أعباء مالية قد تعيق عملية الزواج نجد في سجل حماة أن زوجا عوّض زوجته عن مهرها وقدره ثلاثون أشرفيا غوريا (عملة مملوكية) بجميع نصف الدار ظاهر حماة بمحلة الحاضر(٧٧). وفي مثال آخر عوّض يهودي زوجته عن مهرها المقدر بألف درهم عثماني بجميع الدار داخل حماة في محلة باب المغار . وبالرغم من اختلاف أسعار الدور من محلة الى أخرى فان مبلغ المهر الذي يشتري نصف دار أو دارا كاملة يدل على أهمية قيمته الشرائية. وتتأكد هذه الاهمية المالية بمقارنة قيمة المهر أيضا بأسعار المواد الغذائية كالحنطة مثلا ، فقد بلغ ثمن مكوك الحنطة حوالي ٣٢٠ درهما عثمانيا ، وحدد مكوك الشعير ب ١٢٨ درهما عثمانيا ، وبيع رأس الغنم ب ٤٠ درهما عثمانيا ، كما بيع رطل الصابون بعشرة دراهم عثمانية . وبلغ وسطي ثمن الحمار حوالي ٢٣٠ درهما عثمانيا ، والجمل حوالي ٧٤٠ درهما عثمانيا ، وعلى هذا فان وسطي المهر للحمويين والبالغ ٣٠٠٩ دراهم عثمانية يعادل حوالي ٣٠٠ رطل صابون ، وفي الريف حيث يبلغ المتوسط ٣٥٦٧ فانه يساوي حوالي ٩٠ رأس غنم ، أو ١١ مكوك حنطة أو ٢٨ مكوك شعير . ويصعب القول فيما اذا كانت قيمة المهر تتناسب ودخل الفرد . ولكن يبدو أن قيمة المهر ليست بقليلة اذا ما قورنت بقيمة أثاث البيت مثلا ، ففي احدى تركتين وردتا في سجل حماة قدّر سعر اللحاف ب ٨٠ درهما عثمانيا ، وفراشين أزرقين ٨٠ ، ومخدتين بقوالبهما ٤٠ ، وبساط ٤٠ ، وبساط آخر ٨٠ ، وطنفستين ٨٠ ، وأربعة صحون نحاس ٨٠ ، وطاستين نحاس ٢٠ و وقميص ٢٠(٧٨) .

وفي حين أن سجل حماة قد ذكر ١٩٧ عقد زواج فانه بالمقابل لم يسجل سوى ٢١ طلاقا . وتتأكد هذه القلة في قضايا الطلاق بقلة عدد المتزوجين بمطلقات . فهناك خمس حالات زواج بمطلقات من مجموع عقود الزواج. وكان وسطي مهر المطلقات ٢٤٨٠ درهما عثمانيا وهذا يفوق وسطي مهر المرأة الثيب ولكنه يقل عن وسطي المهر في حماة والريف. وبدراسة قضايا الطلاق هذه يتبين أن ١٨ منها تخص حمويين و ٣ تخص ريفيين . ويلاحظ أن ست حالات من الطلاق كانت بالمخالعة أي بالاتفاق بين الزوج والزوجة مقابل تخلي الزوجة عن مؤخر مهرها ونفقة عدتها . وتخص احدى حالات الطلاق هذه قرويا نصرانيا هو سالم بن سمعان بن معمر من قرية إلبية الذي اقرّ في محكمة حماة الشرعية انه طلق زوجته وجدة بنت عيسى بن سعيد النصرانية طلاقا باينا(٧٩) . ولم ندرج بين المطلقين في فترة دراستنا حالة اليهودية استار بنت ابراهيم التي حضرت في مجلس الشريعة وقبضت من سليمان بن يوسف اليهودي الوكيل عن اخيه يعيش بن يوسف اليهودي مبلغ ٢٠٠٠ درهم عثماني عن متأخر صداقها على مطلقها يعيش لاننا لا نعلم فيما اذا تمّ الطلاق خلال الفترة التي يغطيها السجل او في وقت سابق كما توحي القضية (٨٠) .

وتطرح قلة قضايا الطلاق بالمقارنة مع كثرة عقود الزواج استنتاجات اجتماعية واقتصادية تتعلق بالاستقرار الاجتماعي والالتزام بقواعد اخلاقية مبنية على مبادىء الشريعة . وربما ساهمت أوضاع اقتصادية متواضعة لدى قطاع كبير من السكان في الحد من الطلاق لما يترتب عليه من مؤخر ونفقة عدة وغيرها وكذلك نفقات اضافية للزواج من جديد . ولا تتضح مدلولات هذه الظواهر الا باجراء مقارنة افقية مع مناطق أخرى من بلاد الشام وغيرها وكذلك بدراسة هذه الظواهر في فترات لاحقة من تاريخ حماة .

ومما يدل على التزام سكان حماة بصورة عامة بانضباط اخلاقي ذاتي قلة الجرائم وحوادث الاخلال بالامن والعبث بالاخلاق العامة التي ترد في سجل محكمة حماة الشرعية . فهناك ثلاثة حوادث قتل(٨١) ، وستة حوادث من التهديد بالسلاح أو الضرب (٨٢) ، وخمسة حوادث سرقة جرت جميعها في حماة وفي الريف التابع لها(٨٣). ويلاحظ في هذه القضايا أن سلاح القتل أو التهديد كان اما عصا أو سكينا أو خنجرا أو سهم نشاب ، ولا ذكر للبندقية مما يفسر بعدم انتشارها بين الناس بعد . والمهم في هذه القضايا أن المتخاصمين لجأوا الى المحكمة للنظر في قضاياهم دون أن يعمدوا للثأر بأنفسهم مما يدل على التزام السكان بقواعد العدل وعلى أهمية القاضي والقضاء في حياتهم واحترام الناس لهما وكذلك على قدرة القاضي على اقامة العدل .

وترد في سجل حماة سبع قضايا من شرب الخمر وفيها جميعها يذكر السجل أن الشارب أتى الى المحكمة واعترف بشربه الخمر طائعا وان رائحة الخمر موجودة فيه . وفي حالتين منهما اقترن شرب الخمر باعتداء أو جريمة(٨٤) . وحدثت أربع حالات زنى(٨٥) وذكرت قضيتا لواطة تمتا برضى الطرفين(٨٦) . وهناك حادث واحد يتضمن اتهاما برشوة لم تثبت ، وأربعة قضايا من الغش في الوزن في بيع اللبن والزيت ، ثم قضية بيع جلد جاموس فيه عيب وهو مشموس(٨٧) . ويدل نظر المحكمة في هذه الامور على أن الحس العام بالعدل والانضباط كان قويا لدى السكان والسلطة الدينية على حد سواء .

وترتبط بهذه القضايا مسؤولية الدولة في اقامة الامن . ويبدو أن المسؤول عن ذلك في حماة كان الصوباشي . وذكرت ثلاثة أسماء لصوباشية في سجل حماة في ثلاثة قضايا بتاريخ سلخ شعبان و ٢ ذي القعدة ٩٤٢ ثم في ٣ صفر من العام التالي . واذا لم يكن هناك اكثر من صوباشي واحد في حماة فان هذه الاسماء تدل على سرعة تبدل الصوباشي . ومما يؤيد هذا الاستنتاج أن ملتزمي مقاطعة العسسية في حماة وهم المسؤولون عن حراسة الدكاكين في الاسواق وبخاصة منها التي تسوّق الاقمشة والسلع

الثمينة كانوا يلتزمونها لبضعة أشهر تراوحت بين أربعة وستة وأحيانا لم يتمموا المدة. وكان يلتزم مقاطعة عسسية حماة شخص أو أكثر لقاء مبلغ من المال يدفع جملة أو شهريا . فقد جاء في سجل حماة بتاريخ ١٢ شعبان ٩٤٢ / ٥ شباط ١٥٣٦ أن ثلاثة أشخاص من محلة الجعابرة قبلوا مقاطعة رئاسة عسسية حماة من غرة شعبان ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر مقابل ١١٢٥ درهما عثمانيا عن كل شهر وتكافلوا بالمال والنفس وصدقهم وكيل الصوباشي (لم يذكر اسمه)(٨٨) . ويبدو أن هذا الالتزام لم يتم لان سجل حماة يذكر في سلخ شعبان ٩٤٢ / ٢٢ شباط ١٥٣٦ أن ثلاثة أشخاص من محلة الصفصافة التزموا رئاسة عسسية حماة بطريق المقاطعة من غرة شعبان ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر بأجرة اجمالية قدرها ٤٤٠٠درهم عثماني وتكافلوا بالمال والنفس وصدقهم وكيل الصوباشي مصطفى بن موسى(٨٩) . ويلفت النظر أن هذا الالتزام لم يتم لغاية الاربعة أشهر لان سجل حماة يذكر في ١٦ ذي القعدة ٩٤٢ / ٧ أيار ١٥٣٦ أن أحمد بن علي (لعله أحد الملتزمين الثلاثة من محلة الجعابرة) ومحمد بن يونس كان بعهدتهما رئاسة عسسية حماة بطريق المقاطعة من غرة شوال ٩٤٢ الى تمام أربعة أشهر لقاء ألف درهم عثماني شهريا وتكافلا بمعرفة قره مصطفى الصوباشي(٩٠). ويبدو أن خلافا دب بين هذين الشريكين اذ أن شكوى قدمت للقاضي في ٢٥ محرم ١٤/٩٤٣ تموز ١٥٣٦ من أن أحمد بن علي رئيس العسسية بحماة كسر باب دكان صاحب الشكوى بدون حق ، وأثبت الشهود ذلك . ولعل هذا هو سبب تنحية أحمد بن علي عن العسسية لان محمد بن يونس ولعله شريك أحمد بن علي سابقا ولكنه يوصف الان أنه من محلة العليليات التحتا قد قبل في عهدته مقاطعة عسسية حماة من غرة شهر صفر ٩٤٣ الى تمام ستة أشهر مقابل ١٠٥٠ درهما عثمانيا بكفالة أحد الاشخاص من محلة المرابط وبمعرفة وكيل الاكز بن عبد الله الصوباشي(٩١) .

ومما يلفت النظر أن التزام العسسية كان يوصف بأنه « مقاطعة رئاسة عسسية حماة » أي أن هناك رئاسة واحدة للعسسية في حماة . واذا كان الامر كذلك فان تبدل هوية ملتزمي هذه المقاطعة قبل اتمام مددهم يدل على تخبط في تعيينهم وعلى صراع فيما بينهم الى أن أصبحت المقاطعة في عهدة ملتزم واحد . كما أن تأرجح مبالغ الالتزام لا بد وأن ينعكس على الرسوم التي يتقاضاها العسسية على الدكاكين التي يقومون بحراستها (٩٢) .

ولا نعلم بدقة علاقة ملتزمي العسسية بالصوباشي وفيما اذا كانوا خاضعين له بدليل حضور وكيل عنه في المحكمة ومصادقته على التزامهم . ولكن مما لا شك فيه أن تبدل الصوباشية والعسسية بهذا الشكل المتسارع وهم الذين يمثلون السلطة الامنية قد يكون دليل قوة او ضعف من جانب السلطة ومجالا للمنافسة والتعسف

من قبل هؤلاء الموظفين . ومهما يكن ، يبقى القاضي ممثل الشريعة الضمانة الاكيـدة للشعب ضد أي سوء تصرف .

ويمكن القول ختاما أن ما يحفل به سـجل حماة الشرعي من مظاهر اقتصاديـة واجتماعية يشكل رصدا دقيقا للاوضاع السائدة في حماة في أوائل الحكـم العثماني . وتتمثل فيها التقاليد المحلية الراسخة في التعامل المالي والعلاقات الاجتماعية . ومـن هنا أهمية هذه الفترة في اجراء دراسة مقارنة مع الفترات اللاحقة من الحكم العثماني لمعرفة التغيرات التي طرأت علىهذه التقاليد المحلية والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ومقدار ما ثبت أو تبدل منها بفعل القوانين العثمانية .

* * *

الحواشـــي :

(١) لا يوجد تسلسل تاريخي للقضايا ضمن هذا الاطار الزمني . وليس مرد ذلك الى كتاب المحكمـة الاصليين وانما الى العبث في ترتيب الصفحاتلان الثغرات أو الانقطا عالفاجيء في تواريخ القضايـا لا يقع ضمن الصـــفحة الواحدة وانمـا بين الصفحات مما يدل على أن أوراق هذا السجل قـد رتبت خطأ قبل أن تجلد بشكلها الحالي في أوا ئل السبعينات من هذا القرن ، وأيضا قبل أن ترقم صفحاتها وقضاياها من قبل الباحث المرحوم عبد الودود محمد يوسف برغوث الذي يعود اليـه الفضل في كونه أول من درس سجلات المحاكم الشرعية في بلاد الشام على الاطلاق وقد أشـار الـى ترقيمه صفحات وقضايا هذا السجل وغيره . حين كانت السجلات في حماة ، في رسالة الماجستير التي تقدم بها الى جامعة عين شمس وعنوانها: لواء حماة في القرن السادس عشر (من سـجلات المحكمة الشرعية في حماة) نظام الحكم وبنيةالمجتمع (طبعت على الالة الكاتبة، ١٩٧٠) انظرص١.

(٢) يضم السجل حسب ترقيم صفحاته وقضاياه٤٢٦ صفحة و ١٢٠٣ قضية أو وثيقة ، كما يشير الى ذلك أيضا عبد الودود يوسف (ص٣) . ولكننظرا للاخطاء في ترقيم الصفحات والقضايا (مثـلا هناك قفزة منص٣١٢ الى٣١٨ بالرغم منتتابعأرقام القضايا في الصفحتين وهناك أخطاء في ترقيـم القضايا ، زيادة أو نقصا ، في عدد كبير من الصفحات كما في ص ٣٧ و ٧٧ و ٨١ و ١٤٩ الخ ،ثم قفزة منوثيقة٩٧٦ الى٩٩٦ فيصفحة٢٥٢)فانأعداد الصفحات تصبح في الواقع ٤٢٠ صفحة وعـدد القضايا يهبط الى ١١٥٦ قضية . ونظرا لكونأوراق القضايا بعد صفحة ٣٨٩ تالفة جزئيا ولا يمكن الاستفادة منها جميعها فان عدد القضايا التياستخدمناها فعلا في هذه الدراسة يبلغ ١٠٩٠ قضية.

(٣) انظر ما كتبه كـل من :

Jon E. Mandaville, « The Ottoman Court Records of Syria and Jordan», **Journal of American Oriental Society,** 86.3 (1966), p. 318; Bishara B. Doumani, «Palestinian Islamic Court Records : A Source for Socioeconomic History», **Bulletin,** Middle East Studies Association of North America, 19.2 (1985), p.156 .

(٤) لم يشر عبد الودود يوسف فيحواشي أطروحته الى هذا السجل الا لماما (في ١٤ حاشية من مجموع قدره ١٩٣ حاشية) لانه في دراسته لنظام الحكم وبنية المجتمع اطلع على حوالي ستة وثلاثين سجلا من حماة ، ويذكر عبد الودود أن سجل حماة الاول هذا واحد من مجلدين من القرن العاشر / السادس عشر يعنيان بضبوط ودعاوى المحكمة الشرعية (ومن هنا رمز اليه بحرف د) في حين انه أشار الى السجلات الاخرى بانها سجلات المحكمة الشرعية . وفي الواقع ليس هناك ما يبرر هذا التقسيم لان السجل الثاني من سجلات حماة يستمر في عرض الانواع ذاتها من القضايا التي يعالجها السجل الاول وان اختلف حجم الاوراق وبالتالي السجل .

(٥) انظر حول ذلك :

Roland C.Jennings, « Loan and Credit in Early 17 th Century Ottoman Judicial Records» , **Journal of the Economic and Social History of the Orient,** XVI (1975), pp . 183 - 187 ; Halil Inalcik , « Capital Formation in the Ottoman Empire » , **Journal of Economic History,** XXIX, on.1 (1969), pp.101-102.

(٦) محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، جزءان ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ، الدار المصرية للتاليف والترجمة ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ، جـ ٢ ، ص ٨٢ ، وانظر أيضا ص ١١٣ ، ١١٤ ، عبد الكريم رافق ، بلاد الشام ومصر ، ١٥١٦ ــ ١٧٩٨) ، دمشق ، أطلس ، ط ٢ ، ١٩٦٨ ص ١١٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ .

(٧) انظر :

Halil Inalcik, **The Ottoman Empire, the Classical Age 1300 - 1600,** translated from Turkish by N. Itzkow itz and C. Imber , London . Weidenfeld and Nicolson, 1973, p. 106.

(٨) انظر :

Robert Mantran et Jean Sauvaget, **Règlements Fiscaux Ottomans , Les Provinces Syriennes,** Institut Farnçais de Damas, Paris, 6951, pp. 59, n. 2, 77.

ومن بين عدة اقوال متناقضة حول تاسيس ولاية طرابلس والحاق لواء حماة بها نذكر قول ستريبلينغ الذي يبني معلوماته على مصدر بندقي ــ والبنادقة كما يدلنا سجل حماة الشرعي قيد الدراسة كانوا يتاجرون مع حماة آنذاك ــ انه بعد القضاء على ثورة الغزالي قسمت سورية الى ثلاث ولايات (الشام وحلب وطرابلس) على يد ابراهيم باشا الذي أرسله السلطان سليمان الى مصر في ١٥٢٤ لتنظيم امورها واصدر فيها القانون نامه المعروف لعام ٩٣١ هـ آنذاك ونظم كذلك أمور الشام ، انظر :

George W.F. Stripling, **The Ottoman Turks and the Arabs, 1511 - 1574,** University of Illinois Press, Urbana, 1942, p. 71.

(٩) سجل حماة رقم ١ ، ص ١٠٦ ، ٢٨٠ ، ٢٤٥ (سنكتفي بالاشارة الى هذا المصدر انه سجل حماة. وهناك اشارة في سجل حماة بتاريخ ٢٦ محرم ٩٤٣/١٥ تموز ١٥٣٦ أن علاء الدين بن الخاصكي كفل نفس اخوته الى حين مجيء حضرة أمير الامراء عيسى باشا ويحضر لهكفالة مقبولة (ص ١٢٨).

ولا يعلم من هو عيسى باشا هذا ولا أية ولاية او منصب كان يشغل آنذاك . ولا يتفق هذا التاريخ مع شغل ((عيسى باشا)) ، لولاية دمشق آنذاك (انظر : الباشات والقضاة لابن جمعة (نشر المنجد) ص ١٣ ، انظر أيضا ص ٧٣ وقد يكون واليا على حلب (انظر : الكواكب السائرة للغزي (نشر جبور) جـ٢ ، ص ٤٩ ، ١٣٦) ولكن لايعرف ذلك بدقة من در الحبب لابن الحنبلي .

(١٠) انظر تفاصيل شرعية ضافية حول القرض في حاشية محمد أمين الشهير بابن عابدين المسماة رد المحتار على الدر المختار (المعروفة اختصار بحاشية ابن عابدين) ، خمسة اجزاء ، القاهرة ، بولاق ، ١٢٧٢ هـ (طبعة مصورة عنها اصدار دار احياء التراث العربي ، بيروت ١٤٠٧/١٩٨٧) ، جـ٤ ، ص ١٧١ - ١٧٦ ، فصل في القرض . ولابن عابدين تكملة در المحتار المسماة قرة عيون الاخيار ، جزءان ، القاهرة ، المطبعة اليمنية ، ١٣٢١ هـ (أعيد تصويرها كالسابقة) . (ويراجع كذلك تحرير المختار لرد المحتار على الدر المختار المعروف باسم تقريرات الرافعي على حاشية ابن عابدين ، لمؤلفه الشيخ عبد القادر الرافعي ، جزءان ، القاهرة ، المطبعة الكبرى الاميرية ، ١٣٢٤ هـ (اعيد تصويره كالسابق .

(١١) ابن حجر المكي الهيتمي ، الفتاوى الكبرى الفقهية ، أربعة أجزاء ، القاهرة ، المطبعة الميمنية ، ١٣٠٨ هـ ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ ، (أعيد طبعه من قبل دار الفكر ، بيروت ، ١٤٠٣/١٩٨٣) .

(١٢) انظر محمد أمين الشهير بابن عابدين ، العقود الدرية في الفتاوى الحامدية ، جزءان ، القاهرة ، بولاق ، ١٢٧٠ ، جـ ٢ ، ص ٢٠٦ ، (أعيد طبعه من قبل دار المعرفة ، بيروت ، دون تاريخ) .

(١٣) انظـر :
H.A.R. Gibb and H. Bowen, **Islamic Society and the West.** vol. I in 2 parts, London, Oxford Universtiy Press, 1957, I.ii, pp. 49, 51.

(١٤) عبد الودود يوسف ، ص ٢٠٨ ، وانظر أيضا سجل حماة الشرعي ، رقم ٤ ، وثيقة ٨٢ قضية بتاريخ ١٢ جمادى الاولى ٩٥٥/(١٩ حزيران ١٥٤٨) .

(١٥) ابن طولون ، مفاكهة ، جـ ٢ ، ص ١٦ ، ٨١ .

(١٦) هذا الرقم مبني على سجل محكمة حماة الشرعية ، جـ ٤ ، وثيقة ٩٨ تاريخ ١٢ جمادى الثانية ٩٥٠/ (١٢ أيلول ١٥٤٣) . وأشكر السيد فلاديمير غلاسمان مدير مكتبة المعهد العلمي الفرنسي بدمشق الذي لفت نظري الى هذه الوثيقة .

(١٧) سجل حماة ، ص ٢٢٣ و ٣٣٢ . ويزن المكوك كما يقول عبد الودود يوسف ص ٢٠٦ ، حوالي ٣٧٤ كغ .

(١٨) يضم المكوك ستة عشر شنبلا ، ويزن الشنبل حوالي ٢٨ر٢٣ كغ ، انظر : عبد الودود يوسف ، ص ٢٠٦ .

(١٩) انظـر :
Gibb and Bowen, I. ii. pp. 47;; Wolf-Dieter Hütteroth and Kamal Abdulfattah, **Historical Geography of Palestine, Transjordan and Southern Syria in ihe late 16 th Century,** Erlangen , Erlanger Geographische Arbeiten, 1977, pp. 20-23,98.

(٢٠) سجل حماة ، ص ١٧٢ .

(٢١) سجل حماة ، ص ١٤٧ .

(٢٢) انظــر الحاشــية ٥ .

(٢٣) ابن عابدين ، الدر المحتار ، جـ٤ ، ص ١٧٥ ، وانظر أيضــا حول المفتي أبي السعود :
Joseph Schacht, **An Introduction to Islamic Law**, Oxford University Press, 1964, pp. 90-91.

(٢٤) ابن عابدين ، العقود الدرية ، جـ ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٢٥) سجل حلب الشرعي ، رقــم ٦ ، ص ١٠٧ ، قضية مؤرخة في ٢محرم ٩٩٤/(٢٤كانون الاول١٥٨٥).

(٢٦) انظر المصدر نفسه ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤حيث يبرز اسم الدائنسيدي عمر بنيحيى بن العوفي.

(٢٧) سجل حماة الشرع ي، رقم ٢٥ ، ص ٤٣٨ ، قضية مؤرخة في٣ ذي القعدة ٩٩٣ / (٢ تشرين الاول ١٥٨٥) ، وانظر بحثنا :
« Aspects of Land Tenure in Syria in the Early 1580 s » , in **Les Provinces Arabes à l'époque Ottomane,** ed. Abdeljelil Temimi (Actes du VIIe Congrès du CIEPO tenu à Cambridge en 1948) , Zaghouan (Tunis), 1987, p. 163.

(٢٨) سجل حماة ، ص ٢٣١ .

(٢٩) سجل حماة ، ص ٣٩٣ .

(٣٠) انظر مثلا : سجل حماة ، ص ١٩ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٤٠٢ .

(٣١) نجم الدين الغزي، لطف السمر وقطف الثمر، جزءان ، تحقيق محمود الشيخ ، دمشق ، وزارة الثقافــة ١٩٨١ ـ ١٩٨٢ ، جـ٢ ، ص ٥٠٣ (وانظر أيضــا : المحسبي ، خلاصة الاثر ، جـ٢ ، ص ٣٧٨) . وانظر حول تكاليف الحج : عبدالكريم رافق ، « قافلة الحــج الشامي وأهميتها في الدولة العثمانية » ، دراسات تاريخية ، عدد ٦ (١٩٨١) ، ص ٥ ـ ٢٨ .

(٣٢) انظر : سجل حماة ، ص ٣٥٩ ، قضية بتاريخ١ شعبان ٩٤٢/(٢٥ كانون الثاني ١٥٣٦) . وانظـر بشان احتفاظ السباهي بقسم من ثمانية ، سجل حماة ، ص ٣٧٩ .

(٣٣) سجل حماة ، ص ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٦٥ ، ٢٠١ ، ٢٥٤ ، ٣٣٠ .

(٣٤) سجل حماة ، ص ١٦٥ .

(٣٥) انظر مثلا : ســجل حماة ، ص ٩ ، ١١ ، ١٣ .

(٣٦) ســجل حماة ، ص ٢٥١ .

(٣٧) ســجل حماة ، ص ٣٧٧ .

(٣٨) سجل حماة ، ص ١٠٧ و ٢٠٩ .

(٣٩) قمنا بتحويل الاثمان التييعطيها السجل لبعضالسلع بالدراهم العثمانية الى ما يعادلها من الدراهم الحلبية التي تذكر معظم أثمان السلع بموجبهاوذلك لمعرفة الحجم الموحد للاثمان واخراج نســبة واحدة لها . والسلع التي أعطي بعض اثمانهابالدرهم العثماني والحلبي معا هي الحبوب (٨٠٨٤٠ عثماني = ٢٠٢١٠٠ تضاف الى ١٩٠١٤٩ حلبيفيصبح المجموع ٣٩٢٢٤٩) والقطــن (٥٠٠٠ عثماني = ١٢٥٠٠ تضاف الى ٥٤٠٥٣ حلبــي فيصبحالمجمــوع ٢٦٦٥٥٣) ، والقماش (٣٧١٠ عثماني = ٩٢٧٥ تضاف الى ٢٧٠٨١٠ فيصبح المجموع٢٨٠٠٥٤) ، والحيوانات (١٠٤٥٠ عثماني = ٢٦١١٢٥ تضاف الى ٧١٨٤٣ حلبي فيصبح المجمـــوع٩٧٩٦٨) ، والســلع الاخرى (١٥٧٦٧ عثمانــي = ٣٩٤١٧ تضاف الى ١٠٦٦٩٠ حلبي والــى ١٨قبرصي = ٢٢٨٨٠ حلبي فيصبح المجموع ١٤٩٣٩٥).

(٤٠) انظر الحاشيتين ١٧ و ١٨ .

(٤١) عبد الودود يوسف ،ص ٢٠٧ يذكر ان القنطار يعادل مائة رطل ويزن ٢٣٣٫٦٤ كغ .

(٤٢) سجل حماة ، ص ١٦٤ ، قضية بتاريخ ٢٢ رمضان ٩٤٢/(١٥ آذار ١٥٣٦)، وانظر ايضا ص١٧٢.
(٤٣) انظـر :
R.P.A. Dozy, **Dictionnaire Détaillé des Noms des Vétements chez les Arabes,** Amsterdam, 1843 (Librairie du Liban, Beirut), pp. 153 - 155; J.W. Redhouse, **Turkish and English Lexicon,** C'ple, 1890 (Librairie du Liban), p. 840.

(٤٤) انظر : سجل حماة ، ص ٣٩ ، قضية بتاريخ؛ شوال ٩٤٢/ (٢٧ آذار ١٥٣٦) .
(٤٥) تمّ تحويل الاثمان الواردة في السجل بالدراهم العثمانية الى ما يعادلها بالدراهم الحلبية وذلك وفق مجموع أثمان كل سلعة على حدة كالتالي : الحبوب (٧١٦٠٠ عثماني = ١٧٩٠٠٠ + ٢١٣٢٤٩ حلبي ، المجموع ٣٩٢٢٤٩) والقطن (٥٠٠٠عثماني = ١٢٥٠٠ + ٥٤٠٥٣ حلبي المجموع ٦٦٥٥٣٠) والقماش (٣٧١٠ عثماني = ٩٢٧٥ + ٢٧٠٨١٠حلبي ، المجموع ٢٨٠٠٨٥) والحيوانات (١٠٤٥٠ عثماني = ٢٦١١٢٥ + ٧١٨٤٣ حلبي ، المجموع٩٧٩٦٨) ، والسلع الاخـرى (١٥٧٦٧ عثمانـي = ٣٩٤١٧ + ١٠٩٩٧٨ حلبي ، المجموع ١٤٩٣٩٥) .
(٤٦) انظر مثلا سـجل حماة ، ص ٥٦ ، ١٥٠ ، ١٩٢ .
(٤٧) سجل حماة ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٢ .
(٤٨) سجل حماة ، ص ٣٠٣ .
(٤٩) سجل حماة ، ص ٢٩ .
(٥٠) سجل حماة ، ص ٢٤٥ .
(٥١) سجل حماة، ص ١٦٤ و ١٧٢ .وذكر في قضيةأخرى أن احد كبار التجار الحاج محمد بن النوام كان بذمته لتاجر افرنجي يدعى « دمبيلكو بن فرنسيس الافرنجي » (هكذا ورد الاسم في السجل) أربعة عشر قنطارا دمشقيا من القطن المحلوج .وكان وكيل هذا التاجر هو أحمد بن شعبان الذي قبل في المحكمة كفالة أحد الاشخاص لذمة الحـاج محمد ، انظر سجل حماة ، ص ٢٦ .
(٥٢) سجل حماة ، ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .
(٥٣) جـ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٥٤) سجل حماة ، ص ٧٩ .
(٥٥) حاشـية ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ١٧٦ .
(٥٦) سجل حماة ، ص ٢٢٨ .
(٥٧) انظر حول الرهن : سجل حماة ، ص ١٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٢٤ .
(٥٨) انظر كامثلة : سجل حماة ، ص ١٦ ، ١٧ ، ٤٦، ٥٤ ، ٥٩ ، ١٨٦ ، ٢١٣ ، ٢٥٠ .
(٥٩) حاشـية ابن عابدين ، جـ ٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٩ .
(٦٠) سجه حماة ، ص ٨٦ .
(٦١) سجل حماة ، ص ٢٤٧ ، ٣٦١ .
(٦٢) سجل حمـاة ، ص ٣٧١ .
(٦٣) سجل حماة ، ص ١٥١ ، ١٥٩ .
(٦٤) سجل حماة ، ص ١٥٣ .
(٦٥) سجل حماة ، ص ١٢٦ .
(٦٦) سجل حماة ، ص ١٢٠ .

(٦٧) انظر شروط الزراعة ومواسمها في بلاد الشام في : عبد الغني النابلسي ،علم الملاحة في علم الفلاحة، بيروت ، دار الافاق ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٩ .

(٦٨) Antoine Abdel Nour, **Introduction à l'Histoire Urbaine de la Syrie Ottomane (XVIe-XVIIIe siècle)**, Beyrouth, Librairie Orientale, 1982, p. 74; Pierre Chaunu, « Démographie Historique et systeme de civilisation», **Mélanges de L'Ecole Francactse de Rome, Moyen Age Temps Moderns,** t. 86 (1974), 2, pp. 301-321.

(٦٩) Abdel Nour, p. 74.

(٧٠) انظـر حـول ذلك :

Ömer Lutfi Barkan, « Essai sur les Données Statistiques des Registres de Rencessement dans l'Empire Ottoman aux Xve et XVIe siècles», **JESHO, vol. 1, pt. 1** (**August** 1957), pp, . 9-35.

(٧١) هكذا ينسب زقاق الوتارين الى محلـة دارالغنم ، عبد الودود يوسف ، ص ٦٥ .

(٧٢) سجل حماة ، ص ٢١ ، ٢٤٥ .

(٧٣) سجل حماة ، ص ١٨٢ .

(٧٤) سجل حماة ، ص ١٧٣ .

(٧٥) سجل حماة ، ص ٣٢ .

(٧٦) انظر مثلا سجل حماة ، ص ٣٠٤ .

(٧٧) سجل حماة ، ص ٤٨ .

(٧٨) سجل حماة ، ص ٣٥٥ .

(٧٩) سجل حماة ، ص ٣٧٢ .

(٨٠) سجل حماة ، ص ١١٧ .

(٨١) سجل حمـــاة ، ص ٨٧ ، ١٦١ ، ١٦٣ ، ٣٨٢ .

(٨٢) سجل حماة ، ص ٩٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ، ٢٠٨ ، ٢٣٣ ، ٣٦٨ .

(٨٣) سجل حماة ، ص ٢٠٩ ، ٢٢٣ ، ٣٥٧ ، ٣٩١ ، ٤١٦ .

(٨٤) سجل حماة ، ص ١٢٩ ، ٢٨٢ ، وانظر أيضاص ٥٢ ، ١٢٥ ، ٢٧١ .

(٨٥) ســجل حمـــاة ، ص ٨٥ ، ٩٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٢ .

(٨٦) سجل حماة ، ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٨٧) سجل حماة ، ص ١٠٠ ، ١١٩ ، ٢٢٥ ، ٢٥٠ ، ٢٧٧ .

(٨٨) سجل حماة ، ص ٣٨٦ .

(٨٩) ســجل حماة ، ص ٢٥٧ .

(٩٠) سجل حماة ، ص ٤٧ .

(٩١) سجل حماة ، ص ١٤٢ .

(٩٢) حدد هذا الرسم في قونية مثلا بمقدار درهـمشهريا كما جاء في قانون نامه محمد الفاتح ، ولكـن العسس استبعدوا من قونية بطلب اصحاب الدكاكين ، انظر : خليل ساحلي أوغلي ، « قانـون نامه آل عثمان » ، مجلة دراسات ، الجامعة الاردنية ، مجلد ١٣ ، عــدد ٤ (١٤٠٦ / ١٩٨٦) ص ١٨٧ . وانظر ايضـا :

Cibb and Bowen , I,ii, P. 8 n. 4 , See also : I. i , P. 291 .

١٦٩ [illegible]

[illegible] في مجلس الشرع [illegible]

[illegible]

حضر [illegible]

[illegible] في مجلس الشرع الشريف المطهر [illegible]

[illegible]

حضر [illegible] في مجلس الشرع الشريف المطهر [illegible]

[illegible]

[illegible] في مجلس الشرع [illegible]

[illegible]

١٦٢ [illegible]

[illegible]

حضر [illegible] في مجلس الشرع الشريف المطهر [illegible]

[illegible]

حضر [illegible] في مجلس الشرع [illegible]

[illegible]

١٧٧

حضر في مجلس الشريعة المطهرة الحاج سويدان بن ماجد [illegible]
[illegible] في ذمته
[illegible] ادعى عليه [illegible] الدراهم [illegible]
الحاج عند ذمة ابي بكر [illegible] فاجاب بالاقرار
[illegible] حرر سابع سادس عشر شهر
[illegible] سنة [illegible]

شهد [illegible]
عبد الله [illegible] الحاج عيسى [illegible]

حضر في مجلس الشرع المطهر ناصر الحاج محمد [illegible]
[illegible] في ذمته [illegible] في [illegible]
[illegible] النقي [illegible] العين [illegible]
[illegible] في مجلس العقد مبلغ [illegible] الدراهم [illegible]
[illegible] فاطمة [illegible] والباقي [illegible]
[illegible] الحجة [illegible]
[illegible]
[illegible] الدراهم [illegible]
[illegible]
[illegible] في [illegible]
فلما [illegible] حرر سابع سادس عشر [illegible]
رمضان سنة [illegible]

شهد [illegible]
الحاج [illegible] عبد الله [illegible] [illegible]
[illegible]

١٧١

[illegible] شاه بن [illegible]
في [illegible] عثمان [illegible] والده [illegible]
والاجابة [illegible] حرر سابع سادس عشر [illegible]
[illegible] سنة [illegible]

شهد [illegible]
محمد [illegible] عبد الله [illegible]
نظام

تزوج فرج محمد فرج [illegible] لنفسه مخطوبته فاطمة بنت
[illegible] البالغ [illegible]
بأذنها ورضاها [illegible] على [illegible]
على صداق [illegible] العاجل [illegible]
[illegible] الدراهم [illegible] والباقي [illegible]
[illegible]
على [illegible]
على [illegible] حرر [illegible]
رمضان سنة [illegible]

شهد [illegible]
محمد [illegible] الناصر [illegible]

تزوج احمد [illegible] لنفسه مخطوبته عائشة بنت عيسى [illegible]
[illegible] البكر البالغ العاقل [illegible] باذنها ورضاها
[illegible] الى [illegible]
[illegible] الدراهم [illegible]
مبلغ [illegible] الدراهم [illegible] والباقي [illegible]
[illegible] الزوج [illegible]
[illegible] حرر [illegible]
[illegible]

النشاط الصهيوني في العراق
خلال فترة الانتداب البريطاني

د. هشام فوزي حسني عبد العزيز
الجامعة الاردنيـــة

تعد الطائفة اليهودية في العراق من اقـدم الطوائف اليهودية في العالـم . وقـد تمتعت في ظل الحكم الاسلامي بالحرية والتسامح الديني ، ولقيت من المسلمين معاملة حسنة كانت أفضل واكرم مما لقيته من حكـام العراق قبل الفتح الاسلامي ، ومـن الشعوب الاخرى . وخلال الفترة العثمانية (١٥٣٤ ــ ١٩١٨) كان وضـع اليهود في العراق حسنا ومرضيا ، ولهم منزلة اقتصادية مهمة في ميدان الاستيراد والتصدير ، وفي السوق المحلية ، والمصارف . كما كان لهم ممثلون في المجالس الاداريـة المحليـة والخارجية ، وتقلد بعضهم مناصب سياسية رفيعة المستوى .

وتميز يهود العراق بالنشاط في الميدان الثقافي والتربوي ، نظرا لانتشار المدارس اليهودية ، بالاضافة الى وجود عدد من يهود العراق درسوا في جامعات بريطانيا وفرنسا وتركيا وايران ، وكانت لهم جرائد ومجلات ومطابع خاصة بهم .

وقد اندمج اليهـود بالمجتمع العراقي وأصـبحوا جزءا منه ، وتمتعوا في الوقت نفسه بحرية واسعة في ادارة شؤونهم الذاتية عن طريق مجالسهم الخاصة التي تشرف على الشؤون الدينية والدنيوية ، وتنظم علاقاتهم بالمجتمع والدولة .

وخلال الفترة التي عاش فيها اليهـود في العراق عبروا عـن علاقتهم بفلسـطين بالصلوات وبانتظار المسيح والخلاص ، شأنهم بذلك شأن بقية اليهود المنتشرين في كـل أنحاء العالم . وكان بعض المبعوثين الدينيين من الحاخاميين قد قصدوا العـراق ، في أواخر الفترة العثمانية ، لجمع التبرعات لصالح المؤسسات الدينية في المدن المقدسـة الاربع : القدس ، والخليـل ، وطبريا ، وصفد(١) . وهاجر عـدد من يهود العراق الى البلاد المقدسة، بدافع ديني ليس إلا ، اذ ان الصلة الدينية التاريخية مع البلاد المقدسة لم تنقطع منذ اجلاء اليهود من فلسطين الى بلاد ما بين النهرين ، في القرن السادس قبل الميلاد(٢) . وفي عام ١٨٥٤ ، انتظم قسم من طلاب المدارس الدينية اليهودية في العراق واسرهم في مجموعة هاجرت الى فلسطين لايمانهـا بأن الاستيطان فيها سيقرب يـوم الخلاص(٣) .

ويمكن القول بأن بداية النشاط الصهيوني في العراق ، تعود الى أواخر العقد الاخير من القرن التاسع عشر ، وتمثلت ، آنذاك ، بقراءة بعض الصحف اليهودية التي كانت تصل الى العراق ، وتحتوي على أنباء ما يجري في فلسطين ومختلف أنحاء العالم. وفي تلك الصحف وقف يهود العراق ، لاول مرة ، على التنظيمات الصهيونية في أرجاء أوروبا ، فنشأت بهذا صلات مبكرة بين يهود العراق والصهيونية(٤) . وعلى الرغم من وجود نشاط صهيوني في العراق قبل الانتداب البريطاني ، الا أن ذلك النشاط بقي محدودا ومحصورا في بعض الافراد ، والمجالات ذات الطابع الصهيوني ، مثل انتشار بعض المبادىء والافكار الصهيونية ، وظهور جمعيات صهيونية متفرقة ، هنا وهناك ، كانت ما تلبث أن تنهار . اضافة الى ما سبق ، تبرع بعض اليهود بمبالغ ضئيلة الى مؤسسات صهيونية . كما قامت بعض المحاولات الصهيونية الفاشلة لانشاء وطن قومي لليهود في جنوب العراق ، في العقد الاول من القرن العشرين(٥) .

وثمة عوامل عديدة ساهمت في تحجيم النشاط الصهيوني وعدم افساح المجال أمامه في العراق ، قبل الانتداب البريطاني ، ولعل من أهمها معارضة الدولة العثمانية، بشكل عام ، وعدم التجاوب الكبير من عامة اليهود مع هذا النشاط(٦) .

ظهور المنظمات الصهيونية أثناء الانتداب البريطاني :

في بداية ١٩٢٠ وضع العراق تحت الانتداب ، وخضع للسيطرة البريطانية ، بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٣٢ ، وقد أتاح ذلك المجال للحركة الصهيونية بأن تنشط(٧) وساعد على ذلك وجود طائفة يهودية كبيرة تقيم في أهم المدن العراقية لها امكانات اقتصادية كبيرة (٨) . فأصبحت الحركة الصهيونية في العراق أكثر فاعلية وتنظيما وقوة ، مما سبق . وظهرت التظيمات الصهيونية وكانت على اتصال مباشر بالمؤسسات الصهيونية العالمية ، كما برزت النشاطات الصهيونية المختلفة في المجال الثقافي والتعليمي ، اضافة الى التوظيفات المالية من يهود العراق الى الجهات الصهيونية ، ثم الهجرة اليهودية الى فلسطين .

وفي ١٥ تموز عام ١٩٢٠ سمحت سلطات الانتداب البريطاني في العراق لمجموعة صهيونية في بغداد بتأسيس جمعية ذات مظهر اجتماعي ، تسمى « الجمعية الادبية الاسرائيلية » ، ولكنها في الواقع ، كانت جمعية ذات أهداف صهيونية ، كما يستدل من نشاطاتها المختلفة . وترأس الجمعية الادبية ضابط يهودي عراقي كان في عداد الشرطة البريطانية ، واسمه سلمان حيا ، وكان ذا شخصية جذابة ، وله نفوذ ليس في جهاز الشرطة فحسب بل في صفوف الطائفة اليهودية في بغداد ايضا(٩) . وكانت هذه

الجمعية تهدف الى تعليم اللغة العبرية والادب العبري ، ومجد اسرائيل ، وتقديم المساعدات المالية للمنظمات والمؤسسات الصهيونية . ومن أجل ذلك فتحت نادياً ومكتبة صهيونية(١٠) . وفي شهر تشرين الثاني من عام ١٩٢٠ ، ألقيت في نادي الجمعية ١٤ محاضرة في مواضيع صهيونية مختلفة ، وبلغ عدد أعضاء الجمعية الادبية الاسرائيلية ، آنذاك ، ٧٠٠ عضو(١١) .

وأصدرت الجمعية صحيفة « يشورون » Yeshurun (الاستقامة) باللغتين العربية (وبحروف عبرية) والعبرية ، وقام باصدارها صيون ادرعي ، ويعقوب معلم نسيم ، والياهو ناحوم ، واستمرت في الصدور بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٢١(١٢) . ويستدل من قصيدتين لاهارون ساسون*، بأن مجلة « يشورون » ، كانت تتضمن دعاية صهيونية ، ففي العدد الاول من المجلة ، نشرت هذه القصيدة لساسون :

وفي العدد الثالث نشرت له :

يا ابنة بابل !	جرحي هذا لا يندمل !
لا تتركي لغة الآباء	وليس له ضماد في المهجر !
تعلمي لغتك العبرية	خذني الى الوطن !
ولا تكوني هزأة للشعوب	فهناك تجد الضماد (١٣) !

وفي ١١ كانون الاول ١٩٢٠ أغتيل سلمان حيا (١٤) ، رئيس الجمعية الادبية الاسرائيلية . وبعد فترة وجيزة من وفاة سلمان ، نشب خلاف بين مجموعتين في الجمعية ، حول طريقة الادارة ، الا أن الجماعة الاكثر حماسا للاتجاهات الصهيونية ، والتي تشكل الاغلبية ، انفصلوا عن الجمعية(١٥) وأسسوا جمعية جديدة تحمل اسما صهيونيا صريحا ، هو « الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين – بغداد » ، تقدموا بطلب تأسيسها الى المندوب السامي البريطاني ، في٢٢ شباط ١٩٢١ ، وفي الخامس من آذار ١٩٢١ وافق المندوب السامي البريطاني على تأسيس الجمعية الصهيونية ، وهي فرع تابع للوكالة اليهودية في فلسين « ويعتبر هذا التاريخ ، تاريخ الانشاء الرسمي

---

* من وجهاء يهود بغداد . عمل في التدريس وتزعم النشاط الصهيوني حتى أبعدته السلطات الوطنية عام ١٩٣٥ . انظر سلمان درويش ، ص ٢١ – ٢٣ .

للجمعية الصهيونية الوحيدة في العراق ، التي أذنت لها السلطات بأن تظهر تحت اسمها الصهيوني ، دون تمويه وتستر »(١٦) .

وتكونت الهيئة الادارية « للجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ـ بغداد »على الشكل التالي :

الرئيس	: أهرون ساسون
نائب الرئيس	: يوسف الياس غباي
السكرتير	: مويز مئير
المدير المالي	: سلمان شينه

وبعد برهة من الوقت استقال سكرتير الجمعية ، وحل مكانه بنيامين الياهو بنيامين . وكان يساعدهم بعض الشبان اليهود ، من حين الى آخر منهم ، يهوشع بطاط ، وأبراهام بينو ، وروبين سوميخ(١٧) .

وفي منتصف عام ١٩٢٢ ، صدر في العراق قانون الروابط والنقابات ، الذي نص على أنه لا يجوز لأي رابطة أو جمعية الظهور أو العمل في العراق بدون موافقة رسمية من وزير الداخلية العراقي ، ووفقا لذلك قدم أهرون ساسون ، في ٢٢ آب ١٩٢٢ ، طلبا لتجديد ترخيص « الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين » ، ولكن وزير الداخلية ، عبد المحسن سعدون ، رفض تجديد رخصة الجمعية الصهيونية ، ويدعي يوسف مئير بأن السعدون قد أوضح لاهارون ساسون : « بأنه على الرغم من معرفته بأن يهود فلسطين يحققون التقدم للمنطقة ، وأن ذلك يعتبر لمصلحة العرب ، أيضا ، الا أن العراق بوصفه بلدا عربيا لا يستطيع السماح ، رسميا ، بنشاط يتناقض مع المصلحة العربية . . . »(١٨)

وبعد الضغط الذي مارسته المنظمة الصهيونية العالمية على وزارة المستعمرات البريطانية ، تم التوصل الى اتفاق تتغاضى السلطات البريطانية بموجبه عن وجود الجمعية الصهيونية في بغداد ، بشرط أن تمارس نشاطاتها بصورة خفية وسرية (١٩) .

وفي نيسان ١٩٢٢ بعث الدكتور ارئيل بن صيون ، وهو يهودي من فلسطين ومبعوث للكيرين هيسود (٢٠)keren Hayesod الى البلاد الشرقية ، برسالة الى رؤسائه في لندن ، جاء فيها انه قام بزيارة للمندوب السامي البريطاني في بغداد ، وهذا « حذرنا من التفوه بأمور قد تلحق ضررا بعلاقات اليهود بغيرهم »(٢١) . وكانت السلطات البريطانية تلفت نظر الصهاينة ، من حين الى آخر ، الى وجوب الحفاظ على أن يكون

النشاط الصهيوني سريا وخفيا ، لان الجو العام في العراق ، لا يسمح باظهار هذا النشاط علانية(٢٢) . ونتيجة لذلك يقول حاييم كوهين : « في الفترة التي نعمت فيها الجمعية (الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ــ بغداد) بترخيص من السلطات ، لم تعمل هذه ، علنا ، باسمها الكامل ، فقد عرضت نشاطها باسم الجمعية الادبية الاسرائيلية ، فتحت هذا الاسم نشرت اعلانات المكتبة التابعة للجمعية ، كذلك فقد استعملوا هذا الاسم عندما أخذت الجمعية الصهيونية على عاتقها تمويل مسرحية بالعبرية عرضت علنا . . . »(٢٣) .

أما الاسم الصريح للجمعية ، فكان يستعمل عند مراسلة المؤسسات الصهيونية خارج العراق ، فقط(٢٤) . مارست الجمعية الصهيونية ، نشاطا صهيونيا متشعبا ، وواسع النطاق . اذ بثت المبادىء والافكار الصهيونية بين أفراد الطائفة اليهودية، ذلك عن طريق مادة اعلامية باللغة العبرية واللغات الاجنبية،طلبت من المؤسسات الصهيونية في فلسطين وبريطانيا . وعقدت مؤتمرات اعلامية في المناسبات والاحتفالات الصهيونية، اضافة الى نشر اللغة العبرية بين اليهود . بتنظيم دورات خاصة ، من أجل اعدادهم صهيونيا وتهجيرهم الى فلسطين للمساهمة في بناء « وطنهم القومي » المزعوم (٢٥) .

وفي سنوات العشرينات تكونت في العراق تنظيمات صهيونية سرية أخرى ، كانت تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ، وهي :

١ ــ الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ــ البصرة(٢٦) .

٢ ــ جمعية شبان أبناء يهودا في بغداد ، وهي الجمعية التي تشرف على شؤون الكيرن كييمت .

٣ ــ مندوب جمعية شبان أبناء يهودا في خانقين ، أي ممثل الكيرن كييمت في خانقين.

٤ ــ مندوب جمعية شبان أبناء يهودا في أربيل (ممثل الكيرن كييمت في أربيل) .

٥ ــ مندوب جمعية شبان أبناء يهودا في العمارة (ممثل الكيرن كييمت في العمارة)(٢٧)

وفي مدينة البصرة كان النشاط الصهيوني محدودا وغير منتظم ، ويعزى عدم نجاح النشاط الصهيوني في البصرة الى عدم موافقة الحكومة العراقية على منح التنظيمات الصهيونية في البصرة ترخيصا رسميا لمزاولة أعمالها ،وردود الفعل الوطنية في مدينة البصرة المعادية للنشاط الصهيوني ، وأخيرا عدم تجاوب الكثير من يهود البصرة مع هذا النشاط (٢٨).

واقتصر النشاط الصهيوني في مدن أربيل وخانقين والعمارة على جمع التبرعات المالية للمؤسسات الصهيونية ، ولم يمارس في هذه المدن نشاط آخر (٢٩) .

النشاط الصهيوني في المجال الثقافي والتربوي :

المدارس : لعبت مدارس الاليانس دورا بارزا في بث المبادىء والافكار الصهيونية بين طلابها ، وكانت تركز على دراسة اللغة العبرية والتاريخ اليهودي . يقول أنور شاؤل ، أحد طلاب مدرسة الاليانس في بغداد آنذاك : «ومن معلمي اللغة العبرية قدرت وأحببت فيمن عرفت منهم أستاذنا (الحاخام حزقيل شموئيل) ... وكنت أترقب، بفروغ صبر ، درسه عن التراث الاخلاقي اليهودي المتمثل بأقوال كبار حاخامينا من مختلف العصور وبأمثالهم وقصصهم الحكيمة ... »(٣٠). ومما لا شك فيه بأن ذلك أدى الى التشبث بالتاريخ اليهودي ، ودراسة التاريخ في مدارس الاليانس كان يشمل تاريخ العالم بوجه عام والفرنسي واليهودي بوجه خاص ، ويتابع شاؤل قوله : « وكان لأستاذ التاريخ اليهودي أسلوبه الخاص في شرح الاحداث الجسام التي واكبت هذا الشعب الفريد ،في صعوده وهبوطه ، وصراعه عبر آلاف السنين ،وكان يكشف أحيانا، عما وراء الاحداث ... وقرأ لنا مرة ما قاله المؤرخ الشهير (كراوتز) في خراب البيت الثاني ، وانهيار دولة الشعب اليهودي على يد الرومان، وكيف ختم المؤرخ بحثه بقوله: هكذا حوّم النسر الروماني على تراث اسرائيل ، وظل يداور فريسته ، ويصاولها حتى انقض عليها ، منشبا فيها أظفاره ، ليغادرها آخر الامر جثة مثخنة بألف جرح »(٣١).

أما أهرون ساسون فقد تابع مسيرته الصهيونية بنشر الافكار والمبادىء الصهيونية بين تلامذة مدرسة « **راحيل شحمون** » ، ولما طلبت منه اللجنة المشرفة على المدارس اليهودية الامتناع عن نشر آرائه الصهيونية بين التلاميذ استقال من المدرسة المذكورة (٣٢) . وبتأثير من أهرون ساسون هاجر ، بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٢٣ ، عدد كبير من طلاب مدرسة « راحيل شحمون » الى فلسطين . كما أن وجود عضوي الجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ــ بغداد ، في المدرسة المذكورة : يعقوب نيسيم ، الذي كان مديرا لها حتى ١٩٢٧ ، وموريز مئير ، الذي تولى ادارة المدرسة بعد يعقوب معلم ، أثر كبير في تثقيف الطلاب ، تثقيفا صهيونيا(٣٣) .

وفي عام ١٩٢٤م افتتح أهرون ساسون مدرسة خاصة به ، اسمها « فردوس الاولاد » ، كانت في بدايتها تضم خمسة صفوف ، يدرس فيها ٢٥٠ طالبا ، وفي عام ١٩٢٥ ، بلغت صفوفها سبعة صفوف فيها ٣٥٠ طالبا يتشربون الروح القومية الصهيونية (٣٤) . ثم اخذت مدرسة « فردوس الاولاد » بالتوسع ، فزيدت عليها صفوف ابتدائية (الثاني والثالث) ، يقول سلمان درويش : « واتخذها (ساسون)

مقرا لنشر الدعاية الصهيونية ، بصورة أعم واوسع ، وسار على المنهج المتبع في مدارس اليهود في فلسطين »(٣٥) .

وكانت الطائفة اليهودية في العراق حريصة على جلب المعلمين الاجانب الى مدارسها ، بتأثير من الجمعية الصهيونية ، ومن أوائل يهود فلسطين الذين قدموا للتدريس في مدارس الطائفة اليهودية ببغداد « صيون ادرعي » ، وذلك في أوائل العشرينات (٣٦) . وفي عام ١٩٢٤ قدم بغداد معلم يهودي من فلسطين ، هو موشيه سوفر ، الذي ولد في بغداد وهاجر الى فلسطين مع والديه ، فعين في مدرسة « راحيل شحمون » ، لتدريس اللغة العبرية (٣٧) . وفي صيف ١٩٢٦ ، قدم من فلسطين الى العراق خمسة معلمين ومعلمتان لتدريس اللغة العبرية في مدارس الطائفة اليهودية (٣٨). ووجهت الحركة الصهيونية أنظارها الى مدينة الحلة ، خاصة في عام ١٩٢٦ ، بعد ان أوفدت من فلسطين اليهودي الدكتور نسيم ملول لادارة المدرسة هناك ، فقام بنشاطه الدعائي والتنظيمي للصهيونية ، وبعد عام واحد استقال من التدريس في المدينة (٣٩).

ولعل المعلم اليهودي ابراهام روزن ، الذي وصل الى العراق قادما من فلسطين عام ١٩٢٩ ، من أهم المدرسين الصهيونيين في العراق ، اذ بدأ التدريس في مدرسة شماش فقام بتدريس التوراة واللغة العبرية والادب العبري الحديث(٤٠) .

يقول يتسحاق بونفيس ، الذي درس في مدارس الطائفة اليهودية في بغداد ، بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ :

« منذ ١٢ عاما ، أدرس اللغة العبرية في شتى أنحاء المهجر ... وأعتقد انني أقوم بواجبي ، وابذل قصارى جهدي لمصلحة مشروعنا المقدس ... وفي الدعاية التي أقوم بها بين أوساط الشبيبة . ان المكتب الرئيسي (للكيرن كييمت) يرى بأم عينيه نتائج أعمالي ، غير أنه لا يعرف اليد الخفية التي تعمل لمصلحته هنا في بغداد ، عاصمة العراق ، وضواحيها . ان رؤوبين سومخ ويهوشع بطاط من طلابي ، وقد وصلا الى مرتبة مرموقة والمكتب يعرفهما جيدا »(٤١).

وكان تعليم اللغة العبرية في مدرسة (فردوس الاولاد) يتضمن دراسة كتابات وأشعار صهيونية ، حتى ان التلاميذ أنفسهم قد تمكنوا من اعداد تمثيليات باللغة العبرية كانت تعرض في الاعياد ، ودمجت في التمثيليات أغان عن فلسطين ، وفي الختام كانوا ينشدون « هاتكفا » ـ الامل ، وهو النشيد الذي كان ينشده الصهاينة في المناسبات قبل قيام اسرائيل ، وبالاضافة الى وجود مكتبة صهيونية مفتوحة أمام

الطلاب لاستعمالها بحرية ، وفي كل صف كان يوجد صندق للكيرن كيمت ، وبين فترة وأخرى كان يعرض في مدرسة (فردوس الاولاد) أفلام عن الحياة اليهودية في فلسطين (٤٢) .

وكانت الجمعية الانكليزية اليهودية Anglo-Jewish Association في لندن تمد مدارس الاليانس بعدد من المعلمين ، مثل الاستاذ سلومون وكولد سمث (٤٢) ، كما قدم بعض المدرسين الصهيونيين المتحمسين من سوريا ، للتدريس في مدارس الاليانس، مثل : المسيو اسرائيل ، والمستر روزنتال ، والمسيو فرانكو (٤٤) .

ومن مظاهر ازدياد النشاط الصهيوني في المجال الثقافي والتربوي، افتتاح مدارس جديدة للطائفة اليهودية ، ومن هذه المدارس : المدرسة الوطنية ، التي افتتحت عام ١٩٢٣ ، وهي من المدارس الابتدائية للبنين ، ومدرسة نوعم وطوبه الابتدائية للبنات ؛ وقد افتتحت عام ١٩٢٤ ومدرسة شماش الاعدادية للبنين والتي أنشئت عام ١٩٢٨ . وتدرس التوراة ، واللغة العبرية ، وبعض اللغات الاجنبية (٤٥) .

الكتب العبرية والصهيونية : شرع قسم من الصهاينة في استيراد الكتب الصهيونية من فلسطين . يقول سلمان درويش : « وشرع الموريه (ساسون) ، بكل همة ونشاط ، لنشر الفكرة الصهيونية ، وتعلم اللغة العبرية الحديثة ، بكتب دراسية استوردها من فلسطين ، ووزع الكثير من صورة زعماء الصهيونية المعروفين ، مجانا ، على اليهود ، لتعليقها على جدران الغرف في دور السكن ، كما جلب نشرات وجرائد وكتب سياسية وأدبية من فلسطين »(٤٦) .

وفي مجال ترويج الكتب الصهيونية في العراق ، وصل عام ١٩٢٣ ، الى بغداد من القاهرة ، ميخائيل سركيس ، وهو مسيحي سوري ، لترويج كتابه « النهضة الاسرائيلية »، الذي طبع في مطبعة رمسيس بشارع الفجالة ، ويشير فاضل البراك في كتابه « المدارس اليهودية والايرانية في العراق » بأن خلاصة الكتاب اشادة بتقدم الاماكن اليهودية في فلسطين ، اضافة لمقالات مشاهير اليهود في البلدان المختلفة(٤٧) .

وقد قالت جريدة الاستقلال عن هذا الكتاب : « الكتاب ليس كما يدعي المؤلف في عنوانه نهضة وتاريخ ، بل دعوة للانضواء الى لواء الصهيونية ، لانه يحبذ الصهيونية واعمالها ، ونحن نعتقد أن نشره ليس دفاعا عن مصلحة الاسرائيليين العرب ، بل تزلفا الى الصهيونية . وهذا كان الشعور الذي استحوذ علينا ، حين مطالعتنا الكتاب »(٤٨). وعندما استفسرت منه الشرطة العراقية عن مهمته ، أوضح انه اعجب بوضع اليهود في

فلسطين ودورهم في « تطويرها » ، وانه جاء ليطلع يهود العراق على الاوضاع«الراقية» التي يعيش فيها يهود فلسطين(٤٩) .

وخلال الفترة بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٢٩ ، أنشئت مجموعة من المكتبات العامة تحوي على الكتب الصهيونية ، منها : المكتبة الادبية الاسرائيلية ، وهي تابعة للجمعية الصهيونية في بغداد ، وتضم كتب باللغات العبرية والانكليزية ، والعربية . ومن الكتب المتوافرة في المكتبة الادبية : كتاب شمعون دوفنوف : « تاريخ اسرائيل » ، وكتاب ابراهام مافو « حب صهيون » ، وكتب مكوينزنر وبنسكار (لغة العبرانيين لغة حية ، لغتنا ، تاريخ اسرائيل) ، وكتاب الدكتور بروح (كنوز أدب اسرائيل) ، بالاضافة الى كتب دينية وتاريخية وقواميس . وكانت الكتب العبرية ترسل لهم من دور نشر صهيونية ، مثل « دفير ، واحيميفر » في تل أبيب ، ومن «رزنيك منشك» في نيويورك، واحتوت قاعة القراءة في المكتبة الادبية على بعض أعداد من الصحف الصهيونية ، التي كانت تصدر في فلسطين والولايات المتحدة وبريطانيا(٥٠).

وكانت أبواب المكتبة الادبية الاسرائيلية مفتوحة أمام اليهود ، كما أن رسوم العضوية كانت آنذاك ، نصف روبية شهريا ، ويمكن للعضو استعارة كتبها خارج المكتبة . وتسلم أهرون ساسون مسؤولية ادارتها ، منذ عام ١٩٢٤ وحتى اغلاقها في عام ١٩٢٩(٥١) . وأسس اسحق معلم نسيم وشلومو صالح غباي مكتبة في المدراش تلمود توراة(٥٢) ، حيث كانا مع زملاء لهما يدرسون ، في المساء ، اللغة العبرية والرياضيات وفي عام ١٩٢٦ ، أسست مكتبة « الاصلاح الادبي » في كنيس ألبير ساسون ، وأنشأ يتسحاق بونفيس ، معلم اللغة العبرية في مدرسة أليانس بغداد ، مكتبة عامة اسمها « توعيلت » (الفائدة) . وقد احتوت على كتب عبرية . كذلك أنشأ موشيه سوفر ، بمساعدة شمعون ويعقوب معلم ، مكتبة في مدرسة ، راحيل شحمون « واحتوت على الكتب العبرية والعربية التي كانت تصدر ، آنذاك ، وقد استمرت المكتبة لفترة طويلة »(٥٣) . وعندما كان موشيه سوفر في فلسطين ، أرسل أعدادا كبيرة من الكتب العبرية الى المكتبات اليهودية العامة في العراق (٥٤) .

وبادر بعض الاشخاص اليهود الى تأسيس مكتبات صغيرة ، فأسس يوسف عبيدي مكتبة ، اسمها ناهدا Nahda ، بالاشتراك مع بعض رفاقه منهم : الياهو نسيم ويعقوب حاييم وعبيدي بطاط(٥٥) .

ومن أوجه **النشاطات الصهيونية الاخرى** ، مساهمة بعض الشعراء اليهود في مناسبات صهيونية عديدة ، مثل ذلك الشاعر اليهودي البغدادي ، أنور شاؤل ، عندما

بعث بقصيدة شعر بعنوان (تحيتي الى الجامعة) ، الى الجامعة العبرية في القدس ، بمناسبة افتتاحها عام ١٩٢٥ « فكتب القصيدة في خط جميل ، فاذا بها صورة فنية رائعة بحتضنها علم المملكة العراقية من جهة ، وشعار نجمة داود ، ومن أبيات القصيدة (٥٦) :

أجامعة العلوم عليك مني سلام ملؤه الشوق العميم
لعل غدا وان غدا قريب يحقق ذلك الحلم العظيم
فترتفع المباني شاهقات وتزدهر المعارف والعلوم

ونشر آهرون ساسون كراسا صغيرا ، بعنوان : « كتاب أغاني البعث » ، احتوى على قصائد : « الامل » و « بركة شعب » .. وفي عام ١٩٢٥ / ١٩٢٦ نشر ساسون الجزء الثاني من هذا الكراس ، وبه عشرون قصيدة من نظمه . وأهاب ساسون ، في جميع قصائده ،بيهود العراق أن يتعلموا اللغة العبرية، وأن يهاجروا الى فلسطين(٥٧) .

وقامت دور السينما في العراق بعرض أفلام صهيونية : « عرض على ستائر السينما الوطني (بغداد) ليلة الاربعاء الماضية مناظر المستعمرات الزراعية وبلاد تل أبيب وحيفا . . .مع أهم المدارس منها مدرسة الزراعة والتخنيكوم وهرزليه وكانت العروض بديعة جدا وفي نية أصحاب السينما عرضها مرة أخرى ليلة الاحد القادم فنحث أرباب الذوق على مشاهدتها »(٥٨) . ويبدو أن السينما آنفة الذكر كانت من أهم مراكز الدعاية الصهيونية في العراق ، ففي شهر تشرين الاول ١٩٢٧ عرضت فيلم « بئر يعقوب » ، وهو دعاية سافرة للصهيونية ، تعالج موضوع الهجرة الصهيونية الى فلسطين وتبرز انجازاتهم ، خاصة في مجال بناء المستوطنات الصهيونية . وأثار عرض هذا الفيلم استياء الرأي العام العراقي، وعبرت جريدة «الاستقلال» عن ذلك ، بقولها: « . . . ثم اني لا أدري بم تعتذر الحكومة ، من ذلك ، وهي حكومة عربية ، تعمل ، قبل كل شيء ،لمصلحة العرب؟ هذا ما أردت التنبيه عليه لتضرب حكومتنا الموقرة مثل هذه الدعايات ، التي من شأنها الطعن في صميم الامة العربية فالمصلحة العربية فوق جميع المصالح الاجنبية »(٥٩) .

المجلات : من المجلات الصهيونية التي صدرت في بغداد ، باللغة العربية ، مجلة « ها منوراه » (المصباح) ، الاسبوعية ، وقام باصدارها سلمان شينه ، المدير المالي للجمعية الصهيونية في بلاد ما بين النهرين ، وحررها ، في سنتيها الاولى والثانية ،انور شاؤل ، باسمه المستعار ابن السموءل ، صدر العدد الاول من المجلة في بغداد بتاريخ ٠ انيسان ١٩٢٤ ،واستمرت المجلة بالصدور ، وبشكل متقطع حتى ٦ حزيران ١٩٢٩ . وصدر منها ١٢٧ عددا ، وتراوحت صفحاتها بين ٨ و ١٢ صفحة من القطع المتوسط .

وكان من اهداف المجلة الصهيونية ما يلي :

١ ــ التعريف بقادة الحركة الصهيونية العالمية ، امثـال : ادموند روتشـلد وماكس نورداو ، وناحوم سوكولوف ، وحاييم وايزمن ، والبرت انشتاين ونحمـان بياليك . فتحت عنوان « مشاهير الرجال » كانت تسرد لمحة عن حياتهم وأعمالهم ، مع مجموعة من الصـور الكبيرة لبعض القادة الصهاينـة ، مثل روتشـلد ، وبياليـك ، وشابيرا (٦٠) .

٢ ــ تعريف يهود العراق بالنشـاط الصهيوني في فلسطين ، ومجالات الهجـرة الصهيونية ، والمعاهد التعليمية ، للالتحاق بهـا ، مثل الجامعـة العبرية في القدس ، والمدرسة الفنية العالية للعلوم في تل أبيب(٦١) . وبمناسـبة افتتاح الجامعة العبرية ، جاء في مجلة المصباح ما يلي : « ان الحفلـة التي سـتقام في أول نيسـان سـنة ١٩٢٥ لافتتاح الجامعة العبرية في أورشليم لهي أعظم واقعة في تاريخ الشعب الاسـرائيلي ، وسيبقى هذا اليوم ذكراً خالداً في قلوب الذين يشاهدون الاحتفال ، مدى حياتهم ، والشعب الاسرائيلي سوف يتذكر الآلام التي قاساها في البلاد المتمدنة ، من جراء انكبابه علـى العلوم »(٦٢) . ثم ان مجلة المصباح قامت بالدعاية للجرائد الصهيونية ، التي تصدر في فلسطين ، والتعريف بها ، وحث يهود العراق على الاشتراك فيها . جاء تحت عنـوان دعاية : « جريدة دفار هايوم ، أكبر جريدة يومية سياسية أدبية تجارية ، تصدر باللغة العبرية ، في القدس ، لرئيس تحريرها الاستاذ ايثامار بن أبي والاستاذ ابراهيم المالح ، بدل الاشتراك عن سنة كاملة في فلسطين جنيهان ونصف ، وفي الخارج ثلاثة جنيهات ، والعنوان دوار هايوم ، صندق البريد ٢٥٥ ، القدس »(٦٣) .

٣ ــ حث الطائفة اليهوديـة في العراق على التبـرع والمساهمة في المؤسـسات الصهيونية مثل الكيرن هيسود ، والكيرن كييمت ، عن طريق متابعة الهبات التي تصل هذه المؤسسات ، من قبل المنظمات الصهيونية من جهة ، والافراد مـن جهة أخرى ، خاصة أثرياء يهود العراق ، لايجاد حافـز يحث يهـود العراق على التبـرع الى تلـك المؤسسات(٦٤) . كما حثت يهود العراق على التبرع لمؤسسات صهيونية خيرية ، مثـل مأوى العجزة في فلسطين : « نذكركم بمأوى العجزة موشاف زقينيم ، لم يزل مندوب مأوى العجزة ، الحاخام مردخاي ألفيه ، باقيا في العاصمة ، وهو يجمع ما تجود بـه أيدي المحسنين لمعاضدة المؤسسة التي انتدب من أجلها »(٦٥) .

٤ ــ نشر الدعاية لنشاط المهاجرين الصهاينة الى فلسطين ، وابراز انجازاتهم في مجال بناء المستوطنات والمدن والمؤسسات الثقافية والصحية . وقد سـبق الحديث عـن ذلك(٦٦) .

٥ ـ الدعاية للمنتجات الصهيونية في فلسطين ما يلي : « خمور براندي وليكور من مخازن ريشون لازيون (وهي مستعمرة صهيونية في فلسطين)الشهيرة المعروفة من أكبر مخازن المشروبات في العالم : تباع عند داود عبودي، وساسون حسقيل ، وصيون ما شاء الله (بغداد) »(٦٧) .

٦ ـ نشر الاخبار المتعلقة بالطوائف اليهودية والنشاط الصهيوني في مختلف أنحاء العالم(٦٨) ، فعن أخبار الطائفة اليهودية بالمغرب ، تقول مجلة المصباح ، تحت عنوان من كل روضة زهرة،«جامعة اسرائيلية فيطانجر(٦٩) : تنوي الطائفة الاسرائيليةفيطانجر تأسيس جامعة اسرائيلية في مراكش تحت أشراف رئيس الحاخامين في طانجر(٧٠) وعن نشاط اليهود في الولايات المتحدة ، تقول المصباح : « بلغ ما أنفقه الاسرائيليون في أميركا على المشاريع الخيرية ، في تلك البلاد وخارجها ، فضلا عن المسائل الدينية ، ٤٠ مليونا من الدولارات ، في سنوات قليلة »(٧١).

ويبين شموئيل موريه دور الصحافة اليهودية باللغة العربية في العراق ، بقوله : « وعلى الرغم من ظهور الصحف اليهودية باللغة العربية الفصحى ، في فترات متقطعة ، فانها لعبت دورا هاما في حياة المجتمع اليهودي ، فقد دافعت عن اليهود ... وعرضت مطالبهم وموقفهم أمام الحكومة ، ووحدت صفوفهم ، وكانت منبرا للمثقفين ، كما أنها طالبت بنشر التربية والثقافة الغربية بين طلاب الطائفة ، وشجعت المثقفين على الانتاج الادبي والعمل الاجتماعي والثقافي ، ومدتهم بآخر الاخبار عما يجري لدى يهود أوروبا وأميركا وسائر المهاجر ، ولدى السكان اليهود في الديار المقدسة مثلا يحتذى في الميادين الثقافية والعلمية المختلفة »(٧٢) .

بداية التوظيفات والتبرعات المالية للمؤسسات الصهيونية :

منذ أواخر عام ١٩١٩ ، بدأت الحركة الصهيونية بجمع الاموال من يهود العراق لمصلحة الكيرن كييمت(٧٣) . ففي عام ١٩٢٠ تبرع يهود العراق ب (١٠ر٣٩٦) جنيهـا استرلينيا ، أي بنسبة مقدارها ٥ر٦٪ من مجموع التبرعات التي قدمت من أرجـاء العالم ، وقد احتل العراق المرتبة الرابعة بعد الولايات المتحدة ، وانكلترا ، والصين . وفي ١٩٢١ ارتفعت تبرعات يهود العراق للكيرن كييمت، الى ١٥ر٩٤٧ جنيها استرلينيا وبنسبة مئوية مقدارها ٥ر١٢٪ من مجموع دخل الكيرن كييمت العام ، آنذاك ، واحتل بذلك العراق المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة . وفي عام ١٩٢٢ انخفضت تبرعـات يهود العراق الى ٥ر٨٤٣ جنيها استرلينيا ، وبنسبة مئوية مقدارها ٨٪ من مجمـوع التبرعات التي قدمت للكيرن كييمت ، وانخفضت نسبة التبرعات بعد ذلك .

دخل الكيرن كييمت في العراق بالجنيهات الاسترلينية(٧٤) :

السـنة	التبرعات بالجنيهات الاسترلينية	النسبة المئوية مجموع الدخل من العالم
١٩٢٠	١٠ر٣٩٦	٥ر٦٪
١٩٢١	١٥ر٩٤٧	٥ر١٢٪
١٩٢٢	٥ر٨٤٣	٨ ٪
١٩٢٣	٦ر٢٨٤	١ ٪
١٩٢٤	٢٢٠	
١٩٢٥ ــ ١٩٢٧ ؟ ٢٤ شهرا)	٤١٧	
١٩٢٧ ــ ١٩٢٩ (٢٤ شهرا)	١٥٣	
١٩٢٩ ــ ١٩٣٠ (١٢ شهرا)	٧١	
المجموع	٣٩٣٣١	

وتعود ضخامة هذه المبالغ بين عامي ١٩٢٠ ــ ١٩٢٣ ، الى التبرع السخي الذي قام به الصهيوني عزرا سحايك ، الذي رغب في انشاء مستعمرة باسم اخيه يحزقيل ، فقد تبرع خلال هذه الفترة بمبلغ ٥٠ر٣٦ جنيه استرليني من مجموع تبرعات يهود العراق البالغة ٤٧٠ر٣٨ ، أي أن سحايك تبرع بنسبة مئوية مقدارها ٨ر٩٤٪ من مجموع تبرعات يهود العراق للكيرن كييمت ، آنذاك ، بينما تبرع باقي يهود العراق بمبلغ ٩٧٠ر١ جنيه استرليني ، وبنسبة مئوية مقدارها ٢ر٥٪ من التبرعات(٧٥) .

تميزت تبرعات يهود العراق لصندوق الكيرن هيسود ، خلال الفترة بين ١/٤/١٩٢٢ و ٣١/٣/١٩٢٤ ، بأنها كانت مرتفعة ، نسبيا(٧٦) .

ويعود ارتفاع التبرعات بين عام ١٩٢٢ و ١٩٢٤ ، الى الجهود الحثيثة التي قام بها الفنسو بن صيون ، مبعوث الكيرن هيسود ، الى الشرق ، وبدعم من أقطاب الحركة الصهيونية العالمية ، من أمثال ألفريد موند ، الذي كان يعمل بوزارة الخارجية البريطانية ، وادموند دو روتشلد ، وهو من كبار اليهود الانكليز ، والصهيوني حاييم وايزمن(٧٧) . اضافة الى تبرعات أثرياء يهود العراق ، فقد وصل الكيرن هيسود ، بين عامي ١٩٢٤ ــ ١٩٢٨ ، مبلغ ١٠٧٧ جنيها استرلينيا من وقف كورجي شمطوف في البصرة(٧٨) .

وانتشر **بيع الشيكل** (٧٩) في العراق بشكل واسع ، بين عامي ١٩١٩ – ١٩٢٥ . ثم أخذ في الانخفاض من ١/٤/١٩٢٥ . فبين العامين ١٩١٩ – ١٩٢٠ بيع في العراق ٤٫٠٠٠ شيكل وأتاح ذلك تمثيل يهود العراق في المؤتمر الصهيوني الثاني عشر ، في أيلول ١٩٢١ ، بمدينة برلين ، بمندوبين هما : الدكتور برنشتاين ، ويسرائيل زيف ، وخلال الاعوام ١٩٢١ – ١٩٢٣ ، بيع في العراق ٢٥٢٤ شيكلا ، فأرسل يهود العراق مندوبا واحدا للمؤتمر الصهيوني ، عام ١٩٢٣ في كارلسباد ، وهو دافيد فيشر . وخلال الاعوام ١٩٢٣ – ١٩٢٥ ، بيع في العراق ١٫٩٧٧ شيكلا ، وحصل اليهود على مقعد واحد في المؤتمر الصهيوني الرابع عشر ، والذي عقد في آب ١٩٢٥ ، بمدينة فيينا ، هو آرئيل بن صيون ، وبعد عام ١٩٢٥ لم يمثل يهود العراق في أي مؤتمر صهيوني لان ما بيع في العراق كان أقل من ١٠٠٠ شيكل(٨٠) .

جدول بيع الشيكل في العراق بين عامي ١٩١٩ – ١٩٣٠ :

الفتـــرة		عدد الشيكل	ثمنها بالجنيهات الاسترلينية
مـن	الى		
١/٤/١٩١٩	٣١/٣/١٩٢٠	١٫٠٠٠	٥٥٫٠٠
١/٤/١٩٢٠	٣١/٣/١٩٢١	٢٫٧٩٢	٣٥٫٠٠
١/٤/١٩٢١	٣١/٣/١٩٢٢	١٫٥٠٤	١٨٨٫٠٠
١/٤/١٩٢٢	٣١/٣/١٩٢٣	١٫٠٢٠	١٢٦٫٠٠
١/٤/١٩٢٣	٣١/٣/١٩٢٤	٦٧	٥٫٠٠
١/٤/١٩٢٤	٣١/٣/١٩٢٥	١٫٩١٠	٩٦٫٠٠
١/٤/١٩٢٥	٣١/٣/١٩٢٦	—	—
١/٤/١٩٢٦	٣١/٣/١٩٢٧	٩٠٠	٤٥٫٠٠
١/٤/١٩٢٧	٣١/٣/١٩٢٨	٢٤٠	١٢٫٠٠
١/٤/١٩٢٨	٣١/٣/١٩٢٩	٨٠	١١٫٠٠
١/٤/١٩٢٩	٣١/٣/١٩٣٠	٢٠٠	١٥٫٠٠
المجمـوع		٩٧١٣	٥٨٨

واسهم يهود العراق في **المساعي الصهيونية للاستيطان** في فلسطين ، وبدأ بعضهم بشراء الاراضي قبل عام ١٩٢٠(٨١) . وفي فترة الانتداب ، اخذت عمليات شراء الاراضي في فلسطين شكلا منظما(٨٢) ، وتركزت في منطقة القدس بشكل رئيس(٨٣) . وربما كان

ذلك للافادة من مزايا منطقة القدس الاقتصادية ، اذ ان قسما من اليهود العراقيين الذين اشتروا الاراضي كانوا من رجال الاعمال والتجارة ، اضافة الى مكانة القدس الدينية بالنسبة لليهود .

وساهم يهود العراق في بناء المستوطنات اليهودية في فلسطين، فتبرع عزرا سحايك بمبلغ ٥٠٠ر٣٦ جنيه استرليني ، كما ذكر سابقا ، لانشاء مستوطنة يهودية في فلسطين باسم اخيه يحزقيل ، اذ سميت بمستعمرة كفار يحزقيل kfar yeheskel . وانشأ عدد من يهود العراق مستعمرة في فلسطين اسمها موتزاه Motza ، وهي قرب القدس ، ومن المستوطنات الحديثة ، آنذاك(٨٤)

وانشأ اليعزر سيلاس خضوري عام ١٩٢١ مدرستين زراعيتين ، احداهما لليهود والاخرى للعرب في طولكرم(٨٥) ، وبنى خضوري بعض المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، تقول مجلة المصباح : « مستعمرة اليعزر خضوري : ان المستعمرة التي ينوي المحسن الكبير اليعزر خضوري انشاءها في فلسطين سوف تلقب ب Kedorie Garden City .... أما مستعمرة « لورا خضوري » فسوف تخصص لعلمي وطلاب الجامعة الاسرائيلية ،وتنشأ على جبل الزيتون .وقد اشترك السير ألفرد موند (٨٦) والمستر الياس ماير في اللجنة التي أخذت على عاتقها القيام بالانشاءات مع السنيور اليعزر خضوري »(٨٧) .

كما وصل الى بغداد بعض الشخصيات الصهيونية ، لجمع التبرعات لمؤسسات صهيونية خيرية في فلسطين ، ومن هؤلاء يعقوب تسوري ، ممثل الجمعية الخيرية « مسجاف لداخ » في القدس ، وذلك في عام ١٩٢٦(٨٨) والحاخام مئير ، مبعوث صفد، والحاخام يعقوب ، مبعوث طبريا (١٩٢٢ ـ ١٩٢٣) ، ويسرائيل ترجمان (١٩٢٨ ـ ١٩٢٩) ، وآخرون(٨٩) .

والمظهر الاخير للتوظيفات اليهودية الاوقاف الصهيونية . وكانت أوقاف اليهود في العراق تشمل الاراضي والدور والحوانيت ، وريع بعضها كان يذهب الى الجهات الصهيونية في فلسطين وخارجها ، مثل وقف كورجي شمطوف ، من أملاك وعقارات ، في مدينة البصرة ، والتي يقدر ثمنها بـ (٠٠٠ر١٤٠) جنيه استرليني ، وجهة التولية الدكتور ارئيل بن صيون ، ومئير يوزيل ، وعبد الله رافئيل ، المسؤول عن تنفيذ الوصية(٩٠) .وكان هؤلاء يقومون بارسال المبالغ التي تصل من هذا الوقف الى صندوق الكيرن هيسود . وقد صدق القاضي اليهودي ، روبين بطاط ، نائب رئيس المحاكم المدنية في البصرة ، على حجة هذا الوقف ، عام ١٩٢٣ (٩١).

بداية الهجرة الصهيونية من العراق الى فلسطين :

على الرغم من ان وضع اليهود في العراق كان حسنا ، الا أن الحركة الصهيونية وجدت لها مجالا للانتشار بين يهود العراق. وقد يعزى ذلك الى أن الصهيونية انتشرت، وبشكل واسع ، بين الطبقات الفقيرة ، اضافة الى بعض الاثرياء والتجار ، من جهة ، وبين أوساط الشبيبة اليهودية ، وخاصة طلاب المدارس ، من جهة أخرى فمن طبيعة هؤلاء الشبيبة ، أنهم ، وفي سن مبكرة يكونون عرضة للتأثر بأنواع الايديولوجيات بشكل عام ، والايديولوجية الصهيونية ، بشكل خاص ، ولذلك هاجرت أعداد كبيرة من يهود العراق الى فلسطين .

بدأت الهجرة من العراق الى فلسطين ، منذ عام ١٩١٩ ، نتيجة لانتشار الافكار والمبادىء الصهيونية في العراق عامة وبغداد خاصة ، وكانت هجرة (شرعية) عن طريق الحصول على تصاريح(٩٢) من الوكالة اليهودية في القدس ، وهجرة (غير شرعية) أي بدون تصاريح هجرة ، نظرا لقلة التصاريح التي كانت تمنح ليهود العراق . وقد هاجر عدد كبير من يهود العراق دون تصاريح(٩٢) .

وقد سمحت السلطات العراقية بهجرة يهود العراق الى فلسطين بطرق شرعية ، أي بواسطة تصاريح الهجرة ، لان الهجرة تتم حسب قوانين الانتداب البريطاني في فلسطين ، بينما عارضت الهجرة غير الشرعية (٩٤) ، هذا مع العلم بأن المصادر الرسمية العراقية لا تشير الى موقف السلطات العراقية من الهجرة اليهودية العراقية الى فلسطين(٩٥) .

وكانت الطائفة اليهودية في العراق من أكثر الطوائف اليهودية الشرقية تحمسا للهجرة الى فلسطين . ويذكر الكاتب اليهودي ايلي ليفي أبو عسل أن عدد اليهود الذين هاجروا من العراق الى فلسطين بين عامي ١٩٢٢ ــ ١٩٢٥ بلغ نحو (١٠٨٠) مهاجرا(٩٦) وبذلك يأتي يهود العراق في المرتبة الخامسة بين دول العالم ، بعد بولونيا ١٣٩٤٠ ، ورومانيا ٦٨١٤ ، ولتونيا ١٦٥٧ ، وروسيا ١٤٨٤ . وبنسبة مئوية مقدارها ٧ر٣٪ من الهجرة الكلية التي تبلغ ١٧٥ر٢٩ مهاجرا ، وتشكل هجرة يهود العراق نسبة مئوية مقدارها ١ر٣٥٪ من مجموع الهجرة اليهودية السفاردية ، أي اليهود الشرقيين (مجموعها ٣٠٧٢ر٣)أي أن ٢ر١ ٪ من مجمل يهود العراق ، آنذاك ، (نحو ٩٥ الف يهودي آنذاك قد هاجروا الى فلسطين ، خلال الفترة بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٥(٩٧) .

وخصص قسم الهجرة التابع للوكالة اليهودية ، ليهود العراق ، عام ١٩٢٣ ،(١٥) تصريحا ، وفي عام ١٩٢٤ ، (٣٥) تصريحا ، وفي عام ١٩٢٥ ، خصص لهم (٢٥)

تصريحا(٩٨). وكانت هذه التصاريح تعطى وفقا لمقاييس اقتصادية ، تمشيا مع قوانين الهجرة لحكومة الانتداب البريطاني في فلسطين .واستغلت التصاريح التي منحت ليهود العراق لتهجير الاسر ذات الامكانيا الاقتصادية المرتفعة ، ولما كان عددها لا يلبي الطلبات المتزايدة على الهجرة ،فقد اضطر الراغبون بالهجرة الى البحث عن طرق غير شرعية(٩٩)

ومن مظاهر تحمس يهود العراق للفكـرة الصهيونية ، والهجرة ، وللاستيطان في فلسطين أن قام ٥٥٠ شخصا بالسفر الى فلسطين ، بغرض السياحة ، بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٥ ، بقي في فلسطين ، للاستيطان بصورة غير شرعية ١٦٥ شخصا منهم(١٠٠) .

وبعثت الجمعية الصهيونية في بغداد برسالة الى الوكالة اليهودية في فلسطين عام ١٩٢٦ ، جاء فيها :

« توجد حاليا في دولتنا أكثـر من ٥٠٠ عائلة ترغب في الهجـرة الى فلسطين ، ومعظمهم ملائمون ، وتوجد في حوزتهم مبالغ تتراوح بين ٥٠ ــ ٥٠٠ جنيه استرليني، قسم كبير منهم من أصحاب المهن ، ولهم أقرباء قد استوطنوا من قبـل في فلسطين ، ووعدوهم بأن يساعدوهم على الاستقرار هناك عند مجيئهم دون أن تصرفوا عليهم مليما واحدا ، وعليه فاننا نطلب منكم أن تزودونا بعدد مناسب من الشهادات (التصاريح) عندما تحصلون عليها ــ ونحن بدورنا سنختار ، بعناية ، أصلح العناصر ، حسب تعليماتكم »(١٠١).

وكانت الجمعية الصهيونية في بغداد تهدف الى تهجير اليهـود ، ذوي الامكانيات الاقتصاديـة الكبيرة ، وتفضيلهم على غيرهـم . لان هـؤلاء المهاجرين يتكلفون بدفـع نفقات الهجرة .

وقد استغلت الدعاية الصهيونية في العراق فكرة « العودة الـى صهيون » لدى بعض يهود كردستان (العراقية) ، خاصة لاستخدامهم في الاعمال الزراعيـة ، حيث جرى توطينهم في مستعمرات الجليل ، وعمـل بعضهم كحراس في منظمة الهاشـومير Hashomer (١٠٢) .

وأخذت الجمعية الصهيونية في بغداد على عاتقها عملية تهجير اللاجئين اليهود ، الذين قدموا من ايران وبولندا وروسيا وكردستان العراقية ، بين عامي ١٩٢٤ و ١٩٢٨ فكان هؤلاء يأتـون الى المكتب الصهيوني في بغداد ، ومن ثم الـى مدرسـة « فردوس الاولاد » ، ولما كان معظم هؤلاء قد هربـوا بطرق غير شرعية ، فكان يتـم اخفاؤهم في

المدرسة المذكورة ، وأعالتهم ، حتى يتم أمر تهجيرهم الى فلسطين . وباستثناء التصاريح ، لم يقدم لهم من المنظمات الصهيونية أية مساعدة في تمويل النشاط الصهيوني في مجال الهجرة . اذ ان هجرة اللاجئين تتم بواسطة جباية محلية من داخل العراق(١٠٣) .

وعن الصعوبات المشاكل التي اعترضت الهجرة الصهيونية من العراق الى فلسطين ، ١ ـ التكاليف الباهظة لعملية الهجرة ، ٢ ـ عدم توفر العناية اللازمة والارشاد ومحطات الاقامة للمهاجرين اليهود الذين قدموا الى فلسطين من العراق ، ٣ ـ شكوى يهود العراق ، الذين استوطنوا في فلسطين من سياسة التمييز التي يلقونها من قبل المؤسسات الصهيونية ، ٤ ـ قلة التصاريح الممنوحة ليهود العراق(١٠٤).

ردود الفعل الوطنية تجاه النشاط الصهيوني في العراق :

كان لردود الفعل الوطنية العراقية المعادية للنشاط الصهيوني أثر كبير في التقليل من أهمية هذا النشاط وفاعليته . فالموقف الحكومي الرسمي من النشاط الصهيوني ، بالرغم من تأثير الانتداب البريطاني عليه ، كان ، في بعض الاحيان ، يحد من هذا النشاط كرفض الحكومة العراقية تجديد ترخيص الجمعية الصهيونية في بغداد ، عام ١٩٢٢ ، وامتناعها عن منح بعض التظيمات الصهيونية في البصرة ترخيصا لمزاولة أعمالها . ولذلك كانت التنظيمات الصهيونية السياسية ، في العراق ضعيفة نسبيا . وأخذت المقاومة الحكومية للاتجاهات الصهيونية في الازدياد ، بعد عام ١٩٢٩ (١٠٥).

واذا كانت الجهات الرسمية واقعة تحت الضغط البريطاني ، فان قطاعات الرأي العام كانت أقل تعرضا لهذا الضغط ، واكثر مقدرة على التعبير عن معارضتها للنشاط الصهيوني .

تنبهت الصحافة العراقية ، لبواكير النشاط الصهيوني في العراق ، منذ بداية القرن العشرين ، فرصدته وحذرت الشعب العراقي من خطورته . فعلى سبيل المثال ، تابعت جريدة « الاستقلال » البغدادية ، النشاط الصهيوني عن كثب ، فكتبت :

«ويشهد الله أننا قد غضضنا الطرف عن الصهيونية ، ولكننا رأيناها تتفشى بيننا ، رأينا النجمة الصهيونية مرسومة على أبواب المخازن ، والتبرعات تذهب الى فلسطين ، كما بلغنا . وكتاب « النهضة الاسرائيلية وتاريخها الخالد » يباع على مشهد منا ، رأينا السكوت على ذلك خيانة للعرب والوطن »(١٠٦) ثم ان الجريدة المذكورة ناشدت ابناء الطائفة اليهودية بمقاطعة الكتاب ، لان فيه دعوى صريحة الى الصهيونية(١٠٧) .

وحذرت الجريدة الحكومة العراقية من النشاط الاجنبي في العراق، فنشرت مقالا بعنوان « العراق والصهيونية » تقول فيه : « نذكر صاحب الجلالة الهاشمية بنصيحة أسداها الفيلسوف سبنسر لموفد حكومة اليابان ، اذ قال ما مفاده « لا تدعوا الاجانب يدخلون عليكم ، قبل أن تبلغوا مستواكم من الرقي ، لئلا يستولوا على مرافقكم الاقتصادية ويستعمروتكم ... فليت صاحب الجلالة الهاشمية وأنجاله الكرام وحكوماتهم وجميع زعماء العرب ومفكريهم في كل بلد عربي يبذلون جهدهم في المحافظة على سلامة البلاد العربية وتعميرها بواسطة أهلها». وحذرت الجريدة من مغبة السيطرة الصهيونية على اقتصاديات العراق ، ونبهت الحكومة العراقية والملك فيصل الاول ، كي لا يتمكن اليهود من السيطرة على العراق ، قبل أن يؤسس حكم قوي ويتطور الاقتصاد فيه »(١٠٨) .

وبمناسبة مجيء ميخائيل سركيس ، وهو أحد دعاة الحركة الصهيونية ، الى العراق ، ذكرت جريدة « الاستقلال » بفضائل العرب والاسلام عليهم ، وحثتهم على عدم تشجيع الحركة الصهيونية ، ووجهت نداءها الى يهود الشرق عامة، ويهود العراق خاصة ، وقالت : « نوجه نداءنا بمناسبة مجيء داعية الصهيونيين (سركيس) الى بغداد راجين أن يتجنبوا كل ما من شأنه الاخلال بمصالح سويداء الاقطار العربية ، فلسطين، وأبنائها النجباء ، نخشى أن يلتهب الشعور الوطني المنتشر في الامصار الناطقة بالضاد، فيلتهم كل أعجمي سعى ، أو يسعى ، لاذلال العرب وابادتهم فالحذار ، الحذار »(١٠٩).

وفي حزيران ١٩٢٤ ، نشر الشاعر الشعبي العراقي ، الملا عبود الكرخي ، قصيدة في صحيفة « البدائع » البغدادية ، تحت عنوان « جمعية اليهود »(١١٠) أي الجمعية الصهيونية في بغداد ، ندد فيها بأعضاء الجمعية وبنشاطهم الصهيوني المعادي للعراق(١١١) .

ونشرت صحيفة « المفيد » في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٤ مقالا افتتاحيا تحت عنوان « حقائق عن الصهيونية » ، تحدثت فيه عن تغلغل الافكار والمبادىء الصهيونية بين أوساط الطائفة اليهودية في العراق ، فقالت عن ذلك : « أما في العراق فالحركة الصهيونية يقوم بها أناس معدودون ، أجانب في الاغلب . فهي دعاية لا يشعر يهود العراق بلزومها ، بل هي تنشر بينهم ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه ، وفي هذا الامر ما فيه من الخطر على وحدة الشعب العراقي ، وانه لامر جديد بأن يتنبه له الشعب ، الشعب المسكين الذي لا يدري ولا يعلم بالامور التي تدبر ضده ، في طي الخفاء ، كفانا التواني، كفانا التساهل في أمورنا الحيوية » ، ودعت الى منع هذه الدعاية في العراق وفي البلاد العربية ، وبينت أخطار تنمية شعور قومي آخر في العراق غير الشعور القومي العربي،

واعتبرت صحيفة « المفيد » افساح المجال لذلك من «الجنايات التي لا تغتفر» بعد ذلك تطرقت « المفيد » الى الجمعية الصهيونية في بغداد ، فقالت : « ان اللجنة الصهيونية الموجودة في بغداد تعمل ، بكل نشاط ، على بذر بذور الشقاق بين ظهرانينا . نعم انها تعمل على ذلك ، وقد أثرت على كثير من العقول ، وقد تعددت ظواهر هذا التأثير ،منها تعليق ماغين داود (نجمة داود) مسدسة ، تتكون من مثلثين الواحد مرسوم على الآخر ، ورسماهما متجهين الى جهتين مضادتين ، ومكتوب في وسطهما كلمة (صيون) باللغة العبرية ــ وهذه النجمة هي رمز الصهيونية ــ على الصدور ، وتطريزه على ألبسة الاولاد الصغار . . . والظاهر أن هؤلاء الصهيونيين يعمدون الى بث مفاسدهم ، حتى في مجال العبادات »(١١٢) .

وبينت الصحيفة دور بث صيون ، الذي أشرنا اليه سابقا ، بجمع التبرعات من يهود العراق ، وبنجاحه البارز الذي حققه في أداء مهمته ، وأشارت الى صناديق التبرعات للمؤسسة الصهيونية ، والمتواجدة في الكثير من البيوت اليهودية البغدادية(١١٣) .

وهاجمت جريدة « العالم العربي » ، اليهود الذين « يعبسون ويدلغمون » على العالم العربي ، بل يتبرأون منه ، لسبب دفاعه الشديد عن « العرب » ضد السياسة الصهيونية « ودسائسها وتعدياتها » حتى ان بعض هؤلاء لجأ الى قطع « الاعانات » عن جريدة العالم العربي ، وعدم شراء أعدادها ، من أجل « الارهاب » أو « العقاب » ، وأوضحت جريدة العالم العربي بأنها لن ترضخ لهم ، ولن يتصهينوا أبدا (١١٤) .

وتمثلت ردود الفعل الشعبية المعادية للحركة الصهيونية العالمية بشكل عام ، والحركة الصهيونية في العراق بشكل خاص ، بالقيام بمظاهرة احتجاج ضد الفرد موند، وهو أحد أقطاب الحركة الصهيونية العالمية ، والذي زار العراق،في ٨ شباط ١٩٢٨ ، من أجل ايجاد مشاريع اقتصادية لاستخدام العمال اليهود العاطلين عن العمل في فلسطين ، ووضع حد للهجرة الصهيونية العكسية في فلسطين ، وبغرض انعاش النشاط الصهيوني في العراق(١١٥) . وفي اليوم الذي وصل فيه موند الى بغداد ، قامت مظاهرة شعبية كبيرة ، ندد ت بالصهيونية وبوعد بلفور وبالسياسة البريطانية في فلسطين ، وطالبت برجوع موند من حيث اتى .ونتيجة لهذه المظاهرة فشل الفرد موند في تحقيق الاهداف من وراء زيارته للعراق(١١٦) .

وأخيرا ، جاء موقف بعض اليهود المعارض للصهيونية . فعلى الرغم من تعاطف قسم من يهود العراق مع الصهيونية ،وقف قسم آخر ضدها ،ورأوا أن من مصلحتهم

عدم تشجيعها حفاظا على مصالح اليهود الذين عاشوا في العراق قرونا طويلة . بعث مناحيم صالح دانيال برسالة الى المنظمة الصهيونية العالمية جاء فيها : « يحذرها من نشر الدعايات الصهيونية في بغداد ،ويذكر أن الآراء التي يبشر بها الدكتور بن صيون في بغداد ، أحدثت بلبلة في أفكار الطبقة الفقيرة من اليهود ، وأخذت هذه الطبقة تعتقد بأن الصهيونية ستكون السبب في انعتاقها وتخلصها من الخوف والاضطراب والقلق الذي تعاني منها ، كما أنها أخذت تعتقد، أيضا ،بعدم الحاجة الى مراعاة شعور العرب الذين نعيش بين ظهرانيهم ، وهذه كلها لا تبشر بالخير ، اذ ستوحي للعرب بأن موقف يهود العراق معاد لهم »(١١٧) .

ولم يرغب رئيس الطائفة اليهودية في البصرة ، يعقوب نوح ، في العمل من أجل القضية الصهيونية ، وكذلك الامر بالنسبة للرابي يحزقيل ساسون ، حاخام البصرة بين عامين ١٩٢٠ ــ ١٩٣٨ ، فانه رفض التعاون ، عندما طلبت اليه المؤسسات الصهيونية ذلك(١١٨) . وكان يعقوب موشيه ،رئيس الطائفة اليهودية في خانقين، معاديا للحركة الصهيونية ، ووقع على برقية يندد فيها بالصهيونية(١١٩) .

وأبدى ساسون خضوري ، كبير حاخامي الطائفة اليهودية في العراق بين عامي ١٩٢٨ ــ ١٩٣٠ ، اعتراضه على بعض الحاخامين في العراق ،بسبب ممارستهم للنشاط الصهيوني ، ولم يكتف بذلك، بل وشى بهم الى الحكومة العراقية(١٢٠). وكتب ساسون رسالة الى رئيس الوزراء العراقي ، قال فيها انه « وجد ، بعد الفحص والتحقيق،بأن اليهود ، بالأخص الحاخامين ، يحبون الصهيونيين ، ويبغضون العرب » ، وقام بعرض الصناديق المرسومة عليها نجمة داود على أنظار الحكومة ، وقال « بهذه يجمعون الدراهم ويرسلونها الى المؤسسات الصهيونية » وكان ذلك في عام ١٩٣٠(١٢١).

حظر النشاط الصهيوني في العراق :

نظرا لاتساع النشاط الصهيوني في العراق، وازدياد ردود الفعل الوطنية تجاهه، استدعي أهرون ساسون ، رئيس الجمعية الصهيونية ببغداد ، في ٣١ آب ١٩٢٩ ، الى دائرة المفتش الاداري البريطاني لمدينة بغداد ، والذي قدم له نصيحة بضرورة مغادرته الى البصرة ، خلال عشرة أيام ، فبين أهرون ساسون للمفتش الاداري البريطاني انه لا يستطيع المغادرة ، مدعيا أن له طفلا مريضا ، كما أن عليه المكوث في مدرسة « فردوس الاولاد » ، لان الامتحانات النهائية قد بدات . ويضاف الى ذلك أن ذهابه الى البصرة لن يجعله بمأمن من أعدائه . واستغل وزير الداخلية العراقي ، عبد العزيز القصاب ، الهياج الشعبي للضغط على اهرون ساسون من أجل وقف نشاطه كممثل للوكالة اليهودية والامتناع عن جمع التبرعات للمؤسسات الصهيونية ، والتعهد بعدم تدريس

التعاليم الصهيونية في مدرسة « فردوس الاولاد »(١٢٢) وقد رفض أهرون ساسون الاستجابة لمطالب وزير الداخلية العراقي ، بحجة أن عليه استشارة رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية ، وأنه يمارس عمله في بغداد بتيقظ وحذر ، دون اثارة العرب . وانه خول العمل كرئيس للجمعية الصهيونية في بغداد من قبل وزارة المستعمرات البريطانية وبواسطة المندوب السامي البريطاني في العراق(١٢٣) .

ويبدو أن جهود الحكومة العراقية قد تكللت بشيء من النجاح ، اذ كتب أهرون ساسون الى المنظمة الصهيونية في لندن يقول : « منذ أن كتبنا لكم بتاريخ١٨/٩/١٩٢٩ امتنعنا عن القيام بأي نشاط صهيوني ، وعن جمع الاموال » ، وفي شهر كانون الاول استدعت الشرطة العراقية أهرون ساسون ، بناء على أوامر صادرة من وزير الداخلية ووقع على وثيقة يتعهد فيها بأن يمتنع عن كل نشاط صهيوني وعن جمع الاموال(١٢٤) .

وطلب متصرف بغداد من أهرون ساسون التوجه الى وزارة المعارف ، من أجل الحصول على ترخيص لمدرسة «فردوس الاولاد » التي يديرها ،وعندما توجه ساسون الى وزارة المعارف طلبت الوزارة المذكورة الامتناع عن ممارسة النشاط الصهيوني في المدرسة . لكنه تعهد بأن لا يخرج على البرنامج الدراسي. على اثر ذلك استلم ساسون، في ١٣ آذار ١٩٣٠ ، رخصة من وزارة المعارف ليصبح وجود مدرسته قانونيا(١٢٥) .

الحواشــــي

(١) Ezra Haddad and priscilla Fishman, **History Round the Oclock: The Jews of Iraq,** Tel Aviv, The women's International zionist Organization, 1952, p. 15.

(٢) عزت ساسون معلم ، على ضفاف الفرات : ذكريات أيام مضت وانقضت ، شفا عمرو ، دار المشرق ، ١٩٨٠ ، ص ١١٠ – ١١١ .

(٣) اميل مراد ، قصة الحركة السرية الصهيونية في العراق : العمل السري في بابل ، (مترجم عن العبرية) ، بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٣ ، ج ١ ص ٢٠ ، يوسف مئير ، خلف الصحراء ، الحركة السرية الطلائعية في العراق ، ترجمة حلمي عبد الكريم الزعبي ، بغداد مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦ ، ج١ ، ص ١٨ .

(٤) حاييم كوهين ، النشاط الصهيوني في العراق ، ترجمه عن العبرية – مركز الدراسات الفلسطينية – بغداد ومركز الابحاث الفلسطينية – بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٨ – ٤٣ .

(٥) لمزيد من المعلومات انظر : هشام عبد العزيز« النشاط الصهيوني في العراق بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٤٥ » رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الاردنية – قسم التاريخ ، ١٩٨٦ ص ٣٦ – ٣٧.

Nissim Rejwan, **The Jews of Iraqi. 30 00 Years of History and Culture** London, weiden Feld and Nicolson, 1985, p. 200.

(٦) عبد العزيز ، ص ٣٠ ـ ٤٣ ، مـراد ، ص ٢٠ .

(٧) Abbas Shiblak, **The Lure of zion, Thecase of Iraqi Jews,** London, Al-Saqi Books, 1985 pp. 41 - 42.

وفي احصاء نشرته حكومة الاحتلال البريطاني لعام ١٩٢٠ ، بلـغ عدد يهـود العراق نحو ٨٨٤ر٨٧ نسمة . انظر : يوسف غنيمة ، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق ، بغداد ١٩٢٤ ، ص ١٨٤ .

(٨) علي ابراهيم عبده وخيرية قاسمية ، يهـودالبلاد العربية ، بيروت مركز الابحاث الفلسطينية ، ١٩٧١ ، ص ٥٢ ـ ٥٥ .

(٩) Rejwan, op. Cit. pp. 204 - 205.

كوهين ، ص ٢٧ ، مئير ، جـ ١ ص ١٩ ـ ٢٠ .

(١٠) المكتبة الصهيونية ، هي التي تحوي صحف ، أو مجلات ، أو منشورات ، أو كتب تخص الحركة الصهيونية في مختلف أرجاء العالم ، بشكل عام ، وفلسـطين بشكل خاص ، سـواء كانت كتب تاريخية ، أو جغرافية ، أو مواد دعائية للحركة الصهيونية .

(١١) كوهين ، ص ٢٩ ، مئير ، جـ١ ص ٢٠ .

(١٢) Rejwan, op. Cit., p. 205; Shmael Moreh, **Short stories By Jewish Writers from Iraq,** Jerusalem, th Hebrew university of Jerusalem , 1981, pp. 17-18.

(١٣) قصائد ساسون في مجلة يشورون منقولة عن كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٨٥ .

(١٤) يعود سبب اغتياله الى وشايته على احـد المجرمين فاغتاله أقرباء المجرم ، انظر : المصـدر السابق ، ص ٤٣ ، هامش رقم ٣٠ .

(١٥) بعد انشاء الجمعية الصهيونية في بغـداد توقف نشاط الجمعية الادبية الاسرائيلية .

(١٦) C. O. 730 / 153/78089. From Eliahou Nahom to the Hight comissioner for Iraq. 11/9/1929, Rejwan, The Jews of Iraq, p. 205.

وسلمان درويش ، كل شيء هادىء العيادة ، القدس ، رابطـة الجامعيين اليهود النازحين مـن العراق ، ١٩٨١ ، ص ٣١ .

وسلمان شينه كان ضابطا في الجيش العثماني خلال الحرب العالميـة الاولى ، أسره الانكليـز وسجنوه في الهند . وبعد خروجه من السجن انهى دراسته في كلية الحقوق في بغداد وزاول المحاماة. مثل اليهود في البرلمان العراقي من ١٩٤٧ الى ١٩٥١ ، وهاجر في العام نفسه الى فلسطين . انظر : كوهين ، المرجع السابق ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(١٧) Abraham Twena, **Jewry of Iraq, Dispersion and Liberation:** Suplement to Book seven Addenda and Errata, Ramla , Geoula Synagogue Committee, 1979, part, 2, p. 19.

(١٨) مئير ، جـ١ ص ٢٢ .

(١٩) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٢٠) الكيرن هيسود ، أو الصندوق التأسيسي أنشىء عام ١٩٢٠،كمؤسسة تابعة للمنظمة الصهيونية ثم أصبح يتبع الوكالة اليهودية ، عام توسعها ، ١٩٢٩ ، ليكون جهازها المالي ، في حين يتولى الصندوق القومي امداد المستوطنين بالارض،انظر : محمد عبد الرؤوف سليم ، نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين منذ انشائها وحتى قيام دولة اسرائيل ١٩٢٢ - ١٩٤٨ ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٢ ، ص ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢١) كوهين ، ص ٣٢ .

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٢٣) المصدر السابق ، ص ٣٧ ، وانظر أيضا : أنور شاؤل ، قصة حياتي في وادي الرافدين ، القدس ، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٠ ، ص ١٧٦ .

(٢٤) Zionist work During 1921-1922, Report of the Exective of Zionist Organization to the Annual conference, Garisbed, 1922, p. 31.

(٢٥) ومئير ، جـ ١ ، ص ٢٤ .

(٢٦) Zionist work During , 1921-1922, p. 31 .

(٢٧) الكيرن كييمت أو الصندوق القومي اليهودي، أنشىء عام ١٩٠٧ كمؤسسة مالية تابعة للمنظمة الصهيونية العالمية ليتولى تمويل عمليات شراء الاراضي في فلسطين وتنميتها . انظر : سليم ، نشاط الوكالة اليهودية ص ٣٢٢ ، انظر : كوهين ، النشاط الصهيوني ص ٣٧ .

(٢٨) مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ص ٢٣ .

(٢٩) كوهين ، ص ٣٧ ، مئير ، جـ ١ ، ص ٢٣ .

(٣٠) مدارس الاليانس أسستها جمعية الاتحاة الاسرائيلي العالمي Alliance Israélite Universelle بهدف رفع مستوى اليهود الفكري والمعنوي وتطوير حياتهم بالعناية بالشؤون التربوية والتعليمية. انظر : عبد العزيز ، الطائفة اليهودية في العراق ١٨٦٠ - ١٩١٨ ، ص ١٣ ، شاؤل ، ص ٦١ .

(٣١) المصدر السابق ، ص ٧١.

(٣٢) نرويش ، ص ٣١ - ٣٢ ، مئير جـ ١ ص٢٣ .

(٣٣) Abraham Twena, op . cit, part, 7, Jewish Autonomy in Iraq , Ramla, Geoula Synagogue Committee, 1979,p. 123, and Supplement to the Album; Ramla, Geoula Synagoque Committee, 1981, p. 12.

(٣٤) Zionist Organization, Report of the Executive of zionist organization submitted to the XIV th congress, London, 1925, p. 353.

(٣٥) درويش ، ص ٣٢ .

(٣٦) جريدة الانباء (القدس) ، ١٩٧٦/١٠/٨ .

(٣٧) Abraham Twena, Jewry of Iraq, Dispersion and Liberation, part, 3 Ahi-Ever Zionist party, Ramla, Geoula Synagogue Committee, 1973, p. 8.

(٣٨) مجلة المصباح (بغداد) ، ١٩٢٦/١/٢٢ ، ص٤ ، ١٩٢٧/٣/٧ ، ص٤ .

(٣٩) David Moualim, Jewry of Iraq: Dispersion and liberation, part 4. the Jewish community in Hillah, Ramla, Geoula synagogue committee, 1975, p. 6.

(٤٠) كوهين ، ص ٨٢ – ٨٣ .

(٤١) المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٤٢) درويش ، ص٣١ .

(٤٣) المصباح ١٩٢٥/٥/٧ ، ص ٦ ، ١٩٢٥/٣/٥، والجمعية الانكليزية اليهودية ، هي فرع الاليانس في انكلترا ، انفصلت عنه عام ١٨٧١ ، وتعنى هذه الجمعية بالشؤون الثقافية والتعليمية لليهود ، في مختلف أرجاء العالم ، انظر : صبري برجيس ، تاريخ الصهيونية ، الجزء الاول(١٨٦٢ – ١٩١٧) ، بيروت ، مركز الابحاث ،١٩٨١، ص ٢٩ .

(٤٤) المصباح ١٩٢٥/١١/٥ ، وتجدر الاشارة الى أن الاسماء ذكرت كما جاءت في المجلة .

(٤٥) المجلس الجسماني الاسرائيلي ببغداد – لجنةالمدارس ، تقرير عن المدارس الاهلية الاسرائيلية لسنة ١٩٥٠ ، بغداد المجلس الجسماني الاسرائيلي ، ١٩٥١ ، ص٧ ، ٢٣ . وانظر أيضا : فاضل البراك ، المدارس اليهودية والايرانية في العراق ، دراسة مقارنة ، بغداد ، دار الرشيد ١٩٨٤ ، ص ٣٢ – ٣٣ .

(٤٦) درويش ، ص ٣١ .

(٤٧) البراك ، المدارس اليهودية والايرانية ، ص٦٧ .

(٤٨) جريدة الاستقلال (بغداد) ١٩٢٣/٩/٤ ، خيري العمري ، حكايات سياسية من تاريخ العراق الحديث ، القاهرة ، دار الهلال ، د.ت ،ص١٧٣ – ١٧٤ .

(٤٩) المركز الوطني ، ملفه د /٨/٦ ، التبشير الصهيوني في العراق ١٩٢٣ – ١٩٢٤ ، نقلا عن صادق السوداني ، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤ – ١٩٥٢ ، بغداد ، دار الرشيد ، ١٩٨٠ ص ٣٨ .

(٥٠) Haddad and Fishman, the Jews of Iraq pp. 18-19.
كوهين ، ص ٨٧ .

(٥١) Twena, Ahi-Ever zionist party, pp. 10-11.
المصباح ١٩٢٥/٤/٢ ، ص ٨ ، ١٩٢٧/١٠/٢ ، ص ٦ .

(٥٢) المصدر السابق ١٩٢٧/١٠/٢٣ ، ص ٨ . المدراش تلمود توراه ، مدارس يهودية لتعليم التوراة أسسها الحاخام موشيه هاليفي في النصف الاول من القرن التاسع عشر . وكانت تدرس الى جانب التوراة بعض المواد الدنيوية الاخرى بشكل مبسط ، كاللغة العربية والحساب والجغرافية والتاريخ . انظر عبد العزيز ، المرجع السابق ص ٤ .

(٥٣) اسحق بارموشيه ، بيت في بغداد ، القدس، منشورات رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٣ ، ص ٢٣٢ .

(٥٤) Twena, Addenda and Errata, part, 2,p. 20.

(٥٥) Twena , Jewisy Antonomy in Iraq, p.112 .

(٥٦) شاؤل ، قصة حياتي ، ص ٩٥ ــ ٩٧ .

(٥٧) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٨٥ .

(٥٨) المصباح ١٩٢٦/٦/٣ ، ص ٥ . وتجدر الاشارة الى أن أسماء المدارس وردت كما في النص .

(٥٩) الاستقلال ١٩٢٧/١٠/٢٦ .

(٦٠) المصباح ١٩٢٦/٤/٤ ، ص ٥ ــ ٦ .

(٦١) المصباح ١٩٢٥/١٠/١ ، ص ٢ ١٩٢٥/١٢/٣١ ، ص ٤ .

(٦٢) المصباح ، ١٩٢٥/٤/٢٦ ، ص ٢ .

(٦٣) المصباح ، ١٩٢٦/١/٢١ ، ص ٣ .
اسمها دفار هايوم ، أي حديث اليوم أو خبر اليوم .

(٦٤) المصدر السابق ١٩٢٥/٩/١٠ ، ص ٤ ، ١٩٢٦/٣/٤ ، ص ٥

(٦٥) المصدر السابق ، ١٩٢٥/٣/٥ ، ص٣ .

(٦٦) انظر أيضا : قيس عبد الحسين ، مجلة المصباح ودورها الصهيوني في العراق ، ملحق جريدة الجمهورية (بغداد) ، ١٩٧٨/١/٧ .

(٦٧) المصباح ١٩٢٥/٤/٢٦ ، ص ٨ .

(٦٨) تجد مثل هذه المعلومات في جل أعداد المصباح .

(٦٩) طنجة .

(٧٠) المصدر السابق ، ١٩٢٤/٤/٢٤ ، ص٦ .

(٧١) المصدر السابق ، ١٩٢٤/٤/١٧ ، ص٦ .

(٧٢) Moreh, Short Stories by Jewish writers, pp. 18-19.

وشموئيل موريه ،.يهودي عراقي ، وأستاذ الاداب العربي في الجامعة العبرية في القدس .

(٧٣) Rejwan, the Jews of Iraq, p. 204 .

(٧٤) قام الباحث باستخلاص المعلومات من المصادر التالية :

Keren kayemeth Leisrael, Report of the Head office to the XVI th Zionist congress at zurich, Jerusalem ,1929, pp. 64-67; zionist zation, Report of the Executive of the zionist organization to the XIII th Zionist congress, London, 1923 ,pp. 130-131.

(٧٥) Keren kayemeth Leisrael, Report of the Head office to the XVI th Zionist congress, Jerusalem, 1923, pp. 67-69.

(٧٦) جدول دخل الكرن هيسود بالجنيهات الاسترلينية :

الفتـــرة من	الفتـــرة الى	تبرعات يهود العـراق	المجموع العام للتبرعات
١٩٢١/٤/١	١٩٢٢/٣/٣١	٥	٤١١ر١٢٣
١٩٢٢/٤/١	١٩٢٣/٣/٣١	٢ر٠٩٨	٣٧٩ر٢١٥
١٩٢٣/٤/١	١٩٢٤/٣/٣١	١ر٦٥٠	٤٦٣ر٠٧٤
١٩٢٤/٤/١	١٩٢٥/٣/٣١	٣١٣	٤٩٤ر٨٥٨
١٩٢٥/٤/١	١٩٢٧/٣/٣١	٣٠٥	١ر١٤٣ر٨٥٠
١٩٢٧/٤/١	١٩٢٩/٣/٣١	٤١١	١ر١٤٣ر٨٥٠
١٩٢٩/٤/١	١٩٣١/٣/٣١	١٢٦	٦٤٧ر١٧٧
المجمـوع		٤٩٠٨	

Keren Hayesod, Report of the Head office of Keren Hayesod ti council of the Jewish Agency, Basle 1931, p. 26; Keren Hayesod to the XVI Zionist Congress at Zuerich, Jerusalem, 1929, p. 119; Z.O. Report to XIV zionist congress,pp. 138-139. Z. O. Report to the zionist organization submitted to theXV th zionist congress at Basle, London, 1927, p. 158.

(٧٧) البراك ، المدارس اليهودية والايرانية ، ص ٦٥ ـ ٦٦ .

(٧٨) Twena, Supplement to the Album, p.70.

(٧٩) الشيكل ، شهادة تمنح لمن يدفع بدل اشتراك للمنظمة الصهيونية العالمية ، وكان يقدر الشيكل آنذاك ، بفرنك فرنسي ، أو مارك ألماني ، وكان الشيكل المصدر الرئيس للمنظمة الصهيونية حتى تأسيس الكيرن كييمت . انظر : عبدالوهاب الميسري ، موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٨٠) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٩٦ .

ويعتبر الشيكل رسوم العضوية للمنظمة الصهيونية العالمية، فاذا بيع في العراق ما بين...ر١ ـ ٩٩٩ر٢ شيكلا ، فانهم يحصلون على مقعدواحد في المؤتمر الصهيوني العالمي ، واذا بيع ما بين ٣٠٠٠ ـ ٣٩٩٩ شيكلا ، فانهم يحصلون على مقعدين في المؤتمر الصهيوني ، وهكذا ... ، واذا بيع أقل من ...ر١ شيكل ، فانهم لا يمثلون في هذه المؤتمرات . انظر : أسعد عبد الرحمن ، المنظمة الصهيونية العالمية ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٥ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ .

(٨١) Itzhak Ben-Zvi, the Exiled and Redeemed, Translated from Hebrew by Issac Abbas, Jerusalem, 196, p. 15.

(٨٢) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٩٨ ـ ١٠٣ ، مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ، ص ٢٢٥ .

(٨٣) Ben-Zvi, The Exiled and the RedeemeIbld, p. 15.

(٨٤) Ibid , P. 15 .

(٨٥) مير بصري ، اعلام اليهود في العراق الحديث، القدس ، رابطة الجامعيين اليهود النازحين من العراق ، ١٩٨٣ ، ٨٩ .

(٨٦) ألفرد موند Alfred Mond وهو من أثرياء بريطانيا ، ألماني الاصل ، وتقلد مناصب عليا في بريطانيا ، منها أنه انتخب ، عام ١٩٠٦ ، عضوا في البرلمان البريطاني ، ثم وزيرا للصحة البريطانية ، عام ١٩٢١ / ١٩٢٢ ، ومنذ صغره كان متحمسا للصهيونية ، وساهم في مجالات صهيونية عديدة ، منها التبرع للمؤسسات المالية الصهيونية بمبالغ طائلة ، كما ساهم في انشاء الوكالة اليهودية الموسعة عام ١٩٢٩ ، وقد كان ، آنذاك ، رئيسا لمجلسها ، لمزيد من المعلومات انظر :

Encyclopaedia Judaica, vol. 12, pp. 241-242, (Alfred Mond).

(٨٧) الصباح ، ٢٨/١٢/ ١٩٢٤ ، ص ٥ .

(٨٨) المصدر السابق ، ١١/٣/١٩٨٦ ، ص٧ـ٨ .

(٨٩) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١٩٨ .

(٩٠) Twena, Supplement to the Aibum, p.70.

(٩١) Ibid, p. 70 .

وحامد مصطفى ، مدد الصهيونية من الاوقاف العراقية ، مجلة آفاق عربية (بغداد) سنة ٣ ع٩ ، أيار ١٩٧٨ ، ص ٧٤ . وحامد مصطفى أحد العاملين في مجال الاوقاف العراقية آنذاك .

(٩٢) التصاريح شهادات تمنحها حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين حسب قوانين الهجرة هناك ، لليهود الذين يرغبون بالهجرة الى فلسطين والاقامة فيها بشكل دائم وشرعي ، وتقوم حكومة الانتداب البريطاني بمنح هذه التصاريح بشكل سنوي وبعدد محدد الى الوكالة اليهودية ، ويكون قسم الهجرة في الوكالة اليهودية هو المسؤول عن التصاريح وتوزيعها على اليهود في مختلف أرجاء العالم ، وأي طريق للهجرة أو الدخول الى فلسطين بغير طريق التصاريح ، تعتبر هجرة غير شرعية أو دخول غير شرعي .

(٩٣) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١٠٩ - ١٢٥ .

(٩٤) تسفي يهودا ، الهجرة والمغامرة في العراق : الهجرة من العراق في أوائل العشرينات وصعوباتها ، في تسفي يهودا (المحرر) من بابل الى القدس ، تل أبيب ، مركز تراث يهود بابل ، ١٩٨٠. (بالعبرية) ، ترجمة خاصة غير منشورة ص١٠٣ - ١٠٧ .

(٩٥) لقد اطلعت على ملف القوانين والانظمة والقرارات والمراسيم والبيانات والتعليمات العراقية الخاصة باليهود العراقيين ، بغداد مركز الدراسات الفلسطينية ، كانون الاول ١٩٧٦ الذي اعده خلدون ناجي معروف ، واعتمد فيه على الوثائق العراقية الرسمية ، وخاصة جريدة « الوقائع العراقية» وهي الجريدة الرسمية في العراق ،ولكنني لم أجد أية معلومات عن موقف السلطات العراقية من الهجرة اليهودية الى فلسطين ، كما لم تشر المراجع التالية : خلدون ناجي معروف ، الاقلية اليهودية في العراق بين سنة ١٩٢١ و ١٩٥٢ ، بغداد ، مركز الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٦ ،الجزء الثاني، والسوداني ، النشاط الصهيوني في العراق ١٩١٤ - ١٩٥٢ ، الى موقف السلطات العراقية من هذه الهجرة .

(٩٦) يبدو أن هذه الاعداد تشمل الذين هاجروا الى فلسطين بطرق شرعية وغير شرعية على السواء .

(٩٧) ايلي ليفي أبو عسل ، يقظة العالم اليهودي مصر ، مطبعة النظام ، ١٨٣٤ ، جـ١ ص ٢١٣ - ٢١٤.

(٩٨) يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينات ، ص ١٠٨ - ١١١ .

(٩٩) مئير ، خلف الصحراء ، جـ ١ ، ص٢٥ . (١٠٠)

(١٠٠) Z.O. Report to the XIV zionist congress, p. 354.

يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينيات ، ص ١١٠ .

لمزيد من المعلومات عن تحمس يهود العراق للهجرة ، انظر :

C.O. 733/177/67498/ Government Mandats comission , Report sesson 1929, p. 191 .

(١٠١) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١١٠ .

(١٠٢) Ben-Zvi, The Exiled and the Redeemed , p. 43.

عبده وقاسمية ، يهود البلاد العربية ، ص ٦٩ .

والهاشومير ، كلمة عبرية تعني الحارس ، وهي منظمة عسكرية أقيمت في فلسطين عام ١٩٠٩ لتنظيم عملية حراسة المستوطنات وتنظيم الحراس واعداد غيرهم بتدريبهم على ركوب الخيل واستعمال السلاح . انظر : أحمدان بدر ، تاريخ منظمة الهاغاناه في فلسطين من١٩٢٠ الى ١٩٤٥، بيروت ، منشورات فلسطين المحتلة ، ١٩٨٢ ، ص ١٧ .

(١٠٣) مئير ، خلف الصحراء ، جـ١ ص ٢٥ — ٢٦ .

(١٠٤) يهودا ، الهجرة من العراق في أوائل العشرينات ، ص ١٠٨ — ١١١ .

(١٠٥) United State of America, Department of state, 890G. 00/ 2 - 745, Despatch No. 619, 7/2/1945, the Jewish minority in Iraq, pp. 2 - 3; Hayyim Cohen, The Jews if the Middle East, 1800 - 1972, Jerusalem, Israel Unixersity press, 1973, pp. 25-26.

(١٠٧) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/٤ .

(١٠٧) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/٤ .

(١٠٨) الاستقلال ، ١٩٢٣/١٠/١٩ .

(١٠٩) الاستقلال ، ١٩٢٣/٩/١١ .

(١١٠) نظرا لان القصيدة كتبت باللغة العامية ، اضافة الى انها تحتوي على الكثير من الكلمات العبرية، فانه لم تذكر نماذج من هذه القصيدة .

(١١١) ديوان الملا عبود الكرخي ، نشره حسين حاتم الكرخي ، بغداد ، ١٩٥٢ ، جـ ٢ ، ص ١٧٠ — ١٧٣، وانظر أيضا جريدة البدائع البغدادية (بغداد) ١٩٢٤/٦/٦ .

(١١٢) جريدة المفيد ١٩٢٤/١١/٣٠ .

(١١٣) المصدر السابق .

(١١٤) جريـدة العالم العربـي (بغداد) ، ١٩٢٩/٩/١٠ .

(١١٥) مجلة الفكر الجديد (بسداد) ١٩٨٢/٢/١١ ، ص٤ .
F.O. 371/200211/E 5484/94/3 .

نقلا عن : ردود الفعل العراقية تجاه اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، ترجمة ممدوح الروسان مجلة المؤرخ العربي (بغداد) ، ع ٢٥ ، ١٩٨٤ ، ص ٦٨ ، العمـري ، حكايات سياسـية ، ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(١١٦) Shiblak, The Lure of Zion, pp. 43-44.

لويدجي غبريللي ، الطائفة اليهودية في العراق ، ترجمة غادة المقدم عنره ، تاريخ العرب والعالم، سنة ٥ ، ع ٥٤ ، نيسان ١٩٨٣ ، ص ٧٠ .

(١١٧) درويش ، كل شيء هادىء ، ص ٢٥ .

(١١٨) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ١١٧ .

(١١٩) جريدة العراق (بغداد) ، ١٩٢٩/٩/٧ .

(١٢٠) 890G. 00/2-745, Despatch, No. 619, 7/2/1945: The Jewish Minority in Iraq, p. 6.
U.S.A. : Department of State.

(١٢١) موسى بن نصير ، شذوذ مآسي في الطائفة الاسرائيلية ، بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٣٤٢ هـ ، ص ١٨٢ .

(١٢٢) C.O. 730/158/78089, From, Eliahou Nahom to the Administrative Inspector of Baghdad, 13/9/1929, Rejwan, the Jewe or Iraq,225

(١٢٣) C.O. 730/ 158 / 78089, Form Eliahou Nahom, to the Hight commissioner for Iraq, 11/9/1929.

(١٢٤) C.O. 730/ 158 / 78089, Form Eliahou Nahom, to the Head office to the Zionist Organization London, 28/12/1929.

(١٢٥) كوهين ، النشاط الصهيوني ، ص ٣٦ .

البيروني وأسس الأنثروبولوجيا الثقافية

د. أحمد الربايعة
الجامعة الاردنيـة

تمهيـــد :

يغفل مؤرخو الانثروبولوجيا في كثير من الاحيان – عن قصد أو عن غير قصد – دور المفكرين العرب في التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة. اذ غالبا ما يشيرون الى كتابات هيرودتس عن حياة الشعوب القديمة وعاداتها وتقاليدها في القرن الخامس ق.م ، وكتابات المبشرين والرحالة الغربيين في عصر الكشـوف الجغرافيـة في القـرن الخامس عشر للميلاد على أنها المقدمات التمهيدية لنشـأة الاهتمام بهـذا النمط مـن الدراسـات(١)، متجاهلين بذلك فترة العصور الوسطى التي شهدت فيها الدراسات الانثروبولوجية تقدما كبيرا على أيدي نخبة من جهابذة المفكرين والرحالة العرب أمثال ابن فضلان والبيروني وابن خرداذبة وابن بطوطة وابن جبير والمسعودي وابن خلـدون وغيرهم من المؤرخين والرحالة العرب الذين ألفوا مصنفات عديدة تشتمل على معلومات اثنوغرافية (وصفية) وفيرة عن أحوال الشعوب التي زاروها وكتبوا عنها وعن عاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية المختلفة . وما زالت مؤلفاتهم حية حتى يومنا هذا تشهد على عظمة انجازاتهم العلمية في ميدان الدراسات الانثروبولوجية وفي غيرها من ميادين المعرفة الاخرى بصورة تؤكـد ما قاله لوثرب « بأن العرب كانوا أكثـر ممالك الدنيـا حضارة وعمرانا ورقيا طيلة القرون الوسطى »(٢).

واذا كانت الاكتشـافات الجغرافية في القرن الخامس عشر للميلاد هي التي مهدت لنشأة الاهتمام بالدراسات الانثروبولوجية ، فان الرحالة العـرب هي الذين مهـدوا الطريق للرحالة الغربيين وللاكتشافات الجغرافية الحديثـة بما قدموه من معلومـات

---

* البيروني : هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ولد صباح الخميس الثالث من ذي الحجة ، عام ٦٣٢ هـ في نواحي بلدة «كات» المعروفة في هذه الايام بخيـوا . أما بيرون فهي كلمة فارسـية للضواحي والاطراف ، أو كان مسقط رأسـه وتوفي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨م) . انظر وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولـة في العقل أو مرزولة » ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، الدكن الهند ، ١٣٧٧ هـ وانظر كذلك بجياتند البنارسي ، غـرة الزيجات، ترجمة أبو الريحان ، محمد بن أحمدالبيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعة السند ، حيدر اباد ، السند ، باكستان ١٩٧٣ ، ص (ح) .

وفيرة عن أحوال البلاد الجغرافية والاقتصادية والعمرانية والادارية وغيرها(٣). وقد كانوا يهدفون من وراء الرحلة وجمع المعلومات من البلاد الاسلامية والبلاد الاخرى المتاخمة لها الى تمتين صلة هذه البلاد بعاصمة الخلافة الاسلامية في بغداد والى حماية سكانها من الاعتداءات الخارجية ، وذلك بخلاف الساسة الاوروبيين الذين كانوا يستغلون المعلومات الاثنوغرافية (الوصفية) التي كان يجمعها الرحالة وحكام المستعمرات والمبشرون لتقوية قبضتهم الاستعمارية على هذه البلاد ولتسهيل ادارتها واستنزاف خيراتها واستغلال مواردها البشرية بأجور زهيدة أو بدون أجور .

ومن ناحية أخرى فان اتصال العرب بحضارات العالم القديم مثل الهند والصين لم يكن كله بفعل الفتح الاسلامي . فقد كان للعرب اتصالات تجارية مع هذه البلاد قبل الفتوحات الاسلامية(٤) . وكان التجار يدونون ملاحظاتهم ومشاهداتهم عن عادات الشعوب في أثناء أسفارهم وتنقلاتهم ، وكانت تعرض على شكل قصص وروايات تحكي قصة حياة الشعوب التي زاروها(٥) ، ولم يعرفوا أن هذه المشاهدات والملاحظات سوف تصبح يوما موضوعا لعلم مستقل قائم بذاته وهو علم الانثروبولوجيا . وهذا كله يشير الى أن الدراسات العربية الاثنوغرافية لم ترتبط منذ البداية بأية أهداف استعمارية .

وعلى الرغم من أن جهود العرب في هذا المجال قد أُسدِلَ عليها الستار لمدة طويلة من الزمن فان الاوروبيين أصبحوا يدركون كما يقول يهودا مقدار دينهم لما قدمه التمدن العربي للاوروبيين(٦) وأصبحوا يسلمون كذلك كما يقول كراتشكوفسكي بأن الحضارة العربية تشغل مكانة مرموقة في تاريخ البشرية(٧) . ولسوء الحظ فان نسبة كبيرة من المثقفين العرب وطلبة الجامعات والمعاهد العلمية في الوطن العربي ما زالت تجهل الى حد ما الاسهامات الحضارية والانجازات العلمية التي قدمها العرب لبناء صرح الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . وربما يعود ذلك في جزء كبير منه الى ندرة الكتابات في هذا الموضوع ، والى خلو المناهج تقريبا في أقسام علم الاجتماع والانثربولوجيا في الجامعات العربية من مادة دراسية توضح اسهام العرب في هذا الموضوع الحيوي الهام .

واني لأقف بحزم مع العلماء والمفكرين العرب الذين ينادون بضرورة انشاء علم انثروبولوجيا عربي ،وذلك بأن نمد ايدينا الى المصنفات الضخمة التي خلفها رواد الفكر العربي الاوائل والفقهاء والمفسرون والرحالة المتجولون ونحلل مادتها ومحتوياتها الاثنوغرافية الخصبة بأساليب عصرية تنسجم مع الطريقة العلمية المتبعة في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . فبذلك نمهد لماضينا الثقافي كما يقول الكيالي أن يكون ماثلا أمامنا بشكله المقبول المحبب الذي لا يمكن انكاره مهما حاول البعض أن يقلل من قيمته(٨) . . .

وقد كانت أول محاولة لكاتب هذه الاسطر في هذا المجال في عام ١٩٨٣ عندما نشر بحثا بعنوان « اسهامات الرحالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة »(٩) حاول أن يستعرض فيه الخطوط العريضة للجهود العلمية التي بذلها الرحالة العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة .

وقد رأى الباحث في هذه المحاولة الثانية أن يقف جهده العلمي المتواضع على تحليل جزء يسير من المادة الاثنوغرافية الفزيرة التي تضمنها كتاب البيروني « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة » ذلك لان هذا الكتاب يشتمل على كثير من ركائز المنهج الانثروبولوجي وعلى كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور اهتمام الانثروبولوجيا المعاصرة . وبالاضافة الى ذلك ، فان هذا الكتاب يتناول مجتمعا عجيبا يتميز بتعدد دياناته ولغاته وسلالاته وعاداته الاجتماعية الى درجة أنه يمثل كما يقول لوبون « زبدة جميع العوالم وخلاصة ناطقة بجميع أدوار التاريخ وصورة صادقة للادوار المترجحة بين الهمجية والحضارة الحديثة »(١٠) ولذلك فان التعرف الى النظم والعادات الاجتماعية التي أبرزها البيروني في هذا الكتاب ربما يمدنا بفكرة عامة عن مجمل الحضارة في العالم في ذلك الوقت . ولعل هذه الفكرة الاخيرة هي التي كانت تقف وراء عبارة « طاغور » شاعر الهند العظيم ، انه لا يجب أن يعد نفسه مثقفا من لم يمض في الهند ثلاثة شهور على الاقل ، فمن لم يزر الهند اطلاقا يجب أن يكون أبعد ما يكون عن الثقافة(١١) .

وربما لا يكون هنالك دليل أبلغ على أهمية هذا الكتاب من وصف روزن له الذي وصفه منذ خمسين عاما بأنه أثر فريد في بابه لا مثيل له في الادب القديم أو الوسيط سواء في الغرب أو في الشرق(١٢) :

لقد كان البيروني واسع الاطلاع والمعرفة وملما بجميع العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره . فقد جاء في « غرة الزيجات » انه كان رحمه الله متبحرا في علوم كثيرة ومعارف جمة نحو الرياضيات والفلك والنجوم والجغرافية ومساحة الارض والمعادن وطبقات الارض والتاريخ والاخبار والسير والآثار القديمة والتمدن والفلسفة والدين ونظام الكون والطب والعرافة وجسد الانسان والبصريات والطبيعيات واللغة والاساطير والحديث(١٣) . أما بالنسبة لابحاثه في الهند والسند فقد كانت واسعة جدا ومتنوعة ، فلكي يقف البيروني على جميع أبعاد التفكير الهندي فقد حدد لنفسه مهمة صعبة وشاقة وهي دراسة جميع كتابات الهنود في كل ميدان من ميادين المعرفة ، فكان بحق أول من أوجد أسس الانطولوجيا . ويعتبر كذلك أول من أرسى أسس الانثربولوجيا الثقافية لكونه درس معتقدات الهنود وأفكارهم الثقافية

وطريقة حياتهم دراسة موضوعية وبطريقة علمية مخططة(١٤) . وقد أراد البيروني بذلك أن تكون كتاباته عن الهند مرشدا وهاديا لكل باحث علمي ولكل من رام مخالطة الهنود والعيش معهم «يقول: سأعمل باذن الله كتابا في حكاية شرائعهم، والابانة عن عقائدهم ، والاشارة الى مواضعاتهم وأخبارهم وبعض المعارف في أرضهم وبلادهم يكون عدة لمن رام مداخلتهم ومخاطبتهم »(١٥) . ولا شك أن هذا يدل على أن البيروني كان واعيا بأهمية محتويات هذا الكتاب . ومدركا لفوائده الجمة الغزيرة . وقد وصف زاخو دراسات البيروني عن الهند بأنها تمثل عصر النهضة والانبعاث العلمي ، وذكر كذلك ان معرفته المتخصصة بالهند التي يفتقر اليها الآخرون جعلت من أعماله ممثلة للفكر العالمي في تلك الفترة (أي فترة العصور الوسطى)(١٦). وصفوة القول ، ان البيروني من كبار العلماء الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري ، وقد أطلق على هذا القرن، اسم عصر البيروني لانه أكبر شخصية علمية عاشت في ذلك الوقت(١٧).

ولأن المادة الاثنوغرافية التي اشتمل عليها كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) غزيرة واسعة جدا ومتنوعة ويصعب الالمام بها جميعا في هذا المقام ، فقد اختار الباحث منها موضوع الطبقات الاجتماعية وما يرتبط بها من بعض السنن والآداب الاجتماعية ، نظرا لأن الطبقة تشكل وحدة الحياة الاجتماعية الاساسية في الهند وتتحدد بموجبها معظم تصرفات الهنود وأنشطتهم الاجتماعية المختلفة . كذلك فقد اختار الباحث أن يتحدث عن المنهج الذي استخدمه البيروني في جمع المادة الاثنوغرافية ليبين اسهامه في هذا المجال العلمي الهام . ونرى أنه من المناسب أن نبدأ بالحديث عن منهجه والوسائل والطرق التي استخدمها في جمع المعلومات الاثنوغرافية عن الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم في فترة العصور الوسطى .

المنهج الانثروبولوجي عند البيروني :

يقوم المنهج في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة على الدراسة الحقلية الميدانية، واستخدام الملاحظة المباشرة وغير المباشرة والمشاهدة الحسية أسلوبا لجمع المعلومات والبيانات من الميدان الاجتماعي ثم تحليل هذه المعلومات وتفسيرها في ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعي القائم والاطار الحضاري العام للمجتمع موضوع الدراسة، على أساس انه لا يمكن فهم أية ظاهرة اجتماعية أو أي نظام اجتماعي بمعزل عن شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة في مجتمع الدراسة نظرا لما يقوم بين الظاهرات الاجتماعية من ترابطات تكاملية من جهة ونظرا لما يقوم بينها جميعا وبين البناء الاجتماعي من تأثيرات متبادلة وتساندات وظيفية(١٨) .

وبعد مالينوفسكي الانثروبولوجي الشهير أول من وضع أسس الدراسة الميدانية بعد أن قام بدراسته الحقلية لسكان جزر التروبرياند في مالينزيا ، على الرغم من أن مواطنه العلامة رادكليف براون هو أول من قام بدراسة حقلية لسكان جزر الاندمان(١٩). وهذه الاسس هي :

أولا : اقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة وقطع كل اتصال له بالعالم الخارجي .

ثانيا : أن يكون لديه معرفة تامة بما توصلت اليه الدراسات العلمية الحديثة في مجال تخصصه وأن يكون لديه هدف علمي واضح للبحث.

ثالثا : أن يستخدم أدوات مناسبة لجمع بياناته الحقلية(٢٠) .

والمتمعن في الاسلوب الذي استخدمه البيروني في دراسته للمجتمع الهندي ، يلاحظ أنه يشتمل على الكثير من المبادىء والاسس التي طرحها مالينوفسكي في هذا العصر . وبذلك يكون البيروني قد سبق مالينوفسكي في التمهيد للمنهج الانثربولوجي بمدة تقرب من تسعة قرون . والمبادىء التي طرحها البيروني هي : ـ

أولا : ملاحظة الظواهر الاجتماعية الماثلة للعيان ومشاهدتها في وقت وقوعها وفي مكان حدوثها . يقول البيروني «انما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان» لان العيان هو ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله(٢١) . ويتضمن هذا المبدأ الاقامة في مجتمع الدراسة بصورة مستمرة، ذلك لانه من غير المعقول ملاحظة الظواهر الاجتماعية ومشاهدتها في الوقت الذي يكون فيه الباحث مقيما في خارج المجتمع المدروس . وتشير المصادر التاريخية الى أن البيروني دخل الى بلاد الهند في عام ١٠١٧ ميلادية (٤٠٨هـ) وانه تجول في المناطق الشمالية الغربية في الهند التي تدعى اليوم الباكستان قرابة أحد عشر عاما ، من سنة ١٠١٩ ـ ١٠٢٩م . وسافر في بلاد الهند زهاء ٤٠ عاما(٢٢) . وهذه المدة تزيد كثيرا جدا على المدة التي قضاها مالينوفسكي عند سكان جزر التروبرياند في مالينزيا فيما فيما بين عام ١٩١٤ ـ ١٩١٨ والتي تعتبر أطول مدة قضاها باحث أنثروبولوجي في المجتمع المدروس في العصر الحاضر(٢٣) . وتضمن هذا المبدأ كذلك ضرورة مشاهدة الحادثة الاجتماعية في اللحظة التي حدثت فيها ، وفي المكان الذي وقعت فيه ، ذلك لان أفراد المجتمع قد يكونون أشد تفاعلا مع الحادثة الاجتماعية وأكثر اهتماما بها لحظة وقوعها ،ولذلك فانهم قد يجيبون بصدق أكثر عن استفسارات الباحث وتساؤلاته بشأنها اذا اقتضى الامر ذلك . ثم

ان الحادثة الاجتماعية قد تكون من النوع الذي لا يتكرر في فترة زمنية قصيرة ولذلك ينبغي على الباحث مشاهدتها في زمن حدوثها حتى لا يضطر الى الاعتماد على المخبرين للحصول على معلومات بشأنها . وقد حذّر البيروني كما سنبين بعد قليل من الاعتماد على الاخبار المنقولة نظرا لما تسببه من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكذلك الامر فقد يكون للحادثة الاجتماعية صلة بالمكان الذي وقعت فيه فلا نستطيع أن نفهمها الا من خلال هذه الصلة . وهكذا يكون البيروني قد قرر اطارا تصوريا في رؤية الظواهر الاجتماعية ودراستها قوامه انه يقوم بين الظواهر الاجتماعية من جهة ثم بينها وبين المجال البيئوي المحيط بها والمناخ الاجتماعي اللازم والزمن الذي تحدث فيه ترابطات تكاملية ، وما زال هذا الاطار الفكري هو الذي يحكم رؤية الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع المعاصرين للظواهر والنظم الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها .

ويترتب على اقامة الباحث في المجتمع المدروس بصورة متواصلة مشاركته لهم في بعض فعالياتهم وأنشطتهم الاجتماعية ، وظهوره بينهم مرات عديدة ، فيألفون وجوده ويطمئنون اليه وهذا من شأنه أن يسهل مهمته الدراسية . وعلى الرغم من أن البيروني قضى في الهند قرابة أربعين عاما فانه أشار الى كثير من الصعوبات في التكيف معهم نظرا لنفورهم من كل وافد غريب وابتعادهم عن مخالطته والتفاعل معه . يقول البيروني : « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا الى دينهم »(٢٤) .

وتقضي اقامة الباحث في مجتمع الدراسة ومشاهدة الحادثة الاجتماعية تسجيل وقائعها وتفصيلاتها وكل ما يتعلق بها وعدم الاعتماد على الذاكرة والحفظ . يقول البيروني « لكني كنت أعتمد فيما كنت أحصل على الضبط بالكتابة دون الحفظ اعتزازا بالسلامة وأمنا من الحوادث »(٢٥) .

ثانيا : عدم الاعتماد على الخبر وحده على الرغم من أهميته : يرى البيروني أن هنالك مشكلات عديدة تحف بالخبر ولا تجعل منه وسيلة ملائمة لجمع الحقائق الاثنوغرافية وأهمها الكذب أو عدم الصدق في نقل الاخبار وروايتها(٢٦) . ويرى أنه لولا هذه المشكلة اي الكذب التي يسميها (آفة) لكان الاخبار عن الظاهرة الاجتماعية افضل من الملاحظة والمشاهدة ، ذلك لان الملاحظة تقتصر على مشاهدة الظاهرة ومعاينتها في وقت حدوثها ومكان حصولها ، أما الخبر فانه ييسر للباحث جمع معلومات عن الظاهرة ، ولو لم تقع أمام عينيه ، وذلك عن طريق الكتب والرواية والاستماع وغيرها من الوسائل. يقول البيروني : « ولولا لواحقُ آفاتٍ بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آنات الزمان ، وتناول الخبر اياها وما قبلها من ماضي الازمنة وبعدها من مقتبلها حتى يعم الخبر لذلك الموجود والمعدوم معا »(٢٧) .

ويحدد البيروني دواعي الكذب في :

أ - التعصب للذات أو للسلالة التي ينتمي اليها المخبر فيرفع قدر نفسه ومن قدر سلالته ويحط من قدر السلالات الاخرى. ومبعث ذلك هو الشهوة والغضب، يقول البيروني : « ومن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه لانها تحته أو يقصدها فيزري بخلاف جنسه لفوزه فيه بارادته»(٢٨) .

ب - تحيز المخبر لطبقة اجتماعية معينة بسبب ما يحصل عليه من فوائد ومكتسبات وذم طبقة اجتماعية أخرى لعدم حصوله على مكتسبات منها . يقول البيروني : « ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، والداعي الى ذلك هو المحبة والغلبة »(٢٩) .

جـ - التزلف والمحاباة طمعا في خير يصيبه أو تجنبا لشر قد يقع له : يقول البيروني : « ومن مخبر عنه متقربا الى خير بدناءة الطبع أو متقيا لشر من فشل وفزع » (٣٠).

د - أن يكون المخبر أو الناقل مجبولا بطبعه على الكذب . يقول « ومن مخبر عنه طباعا كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره ، وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابىء الطبيعة »(٣١).

هـ - الجهل بالاخبار أو ما يسميه الخشاب : الذهول عن المقاصد (٣٢). « ومن مخبر عنه جهلا وهو المقلد للمخبرين وان كثروا جملة أو تواتروا فرقة بعد فرقة ، فهو وهم وسائط فيما بين السامع وبين المتعمد الاول »(٣٣) . وقد ضرب البيروني أمثلة على نقل الاخبار غير الصحيحة بماورد في كتابات بعض العلماء الهنود عن ديانة الهند ومذاهب أهلها . يقول « ان أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط ، مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب »(٣٤). ومع ذلك فان البيروني يرى أن الخبر قد يكون في بعض الاحيان الوسيلة الوحيدة لجمع معلومات عن الظاهرة الاجتماعية .

وفي هذه الحالة ينبغي مقارنة هذه الاخبار ومقابلتها بعضها ببعض والاخذ بما هو صحيح منها . يقول البيروني : « وانما فعلت ما هو واجب على كل انسان أن يعمله في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمنة وتصحيح خلل ان عثر عليه بلا حشمة»(٣٥). ويقول في كتاب آخر : « وأبتدىء فأقول ان أقرب الاسباب المؤدية الى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الامم السالفة وانباء القرون الماضية لان اكثرها أحوال عنهم ، ورسوم

باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أساً يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض »(٢٦) . الى أن يقول في مكان آخر من الكتاب نفسه : « فان الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي الى حاق المقصود ، وأقوى معين على ازلة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك ، وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهيد ، على أن الاصل الذي أصلته ، والطريق الذي مهدته ، ليس بقريب المأخذ ، بل كأنه من بعده وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الاباطيل التي تدخل في جُمَل الاخبار والاحاديث، وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميَّز وتهذب ، لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أُخر »(٢٧) .

ثالثاً : المام الباحث الانثروبولوجي بلغة المجتمع المدروس وبلهجاته :

لقد تنبه البيروني منذ تسعة قرون تقريبا الى ضرورة أن يكون الباحث الانثروبولوجي ملما بلغة المجتمع الذي سيدرسه ومتقنا للهجاته ، ذلك لان معرفة اللغة ـ من وجهة نظر البيروني ـ هي أداة اتصال فكري وتفاعل وجداني بين الباحث وبين أفراد المجتمع الذي يدرسه ، وبدون معرفة قواعد اللغة وكشف مضامينها الفكرية ، فانه يتعذر على الباحث تفهم المجتمع ودراسته حيث يحصل بينه وبين أفراد المجتمع نوع من القطيعة وعدم التفاهم والتواصل مما يعجزه عن كشف المعاني والقيم الاجتماعية السائدة فيه، نظرا لما يقوم بين اللغة وبين بناء المجتمع ونسقه الثقافي العام من علاقات وترابطات تكاملية . يقول البيروني في هذا الصدد : « يجب أن نتصور أمام مقصودنا الاحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند ، فاما أن يسهل بمعرفتها الامر واما أن يتمهد له العذر ، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة ، ولها فيما بيننا أسباب : منها أن القوم (يقصد الهنود) يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الامم وأولها اللغة وان تباينت الامم بمثلها ومتى رامها أحد لازالة المباينة لم يسهل ذلك »(٢٨) .

ويؤكد علماء الانثروبولوجيا المعاصرون أن اللغة ليست أداة للتفاهم ونقل الافكار وايصالها فحسب ، بل هي أداة لفهم المضمون الحضاري للمجتمع بكل ما تشتمل عليه الحضارة من قيم ومعانٍ وعادات وتقاليد ومعتقدات اجتماعية وشعائر طقوسية وغيرها من حقائق الحياة الاجتماعية ، على أساس ان هنالك علاقة بين المضمون الحضاري للمجتمع وبين لغة أفراده (٢٩). ويقول ايفانز برتشارد في هذا الصدد : « فلكي يفهم الباحث الانثروبولوجي فكر المجتمع الذي يدرسه يجب أن يعرف كيف يفكر بنفس الطريقة التي يفكرون بها ، كما انه حين يتعلم لغة ذلك المجتمع فانه يتعلم كذلك ثقافتهم

ونسقهم الاجتماعي نظرا لانه يعبر عنهما بمصطلحات تلك اللغة والفاظها ، فكل علاقة اجتماعية وكل معتقد وكل تقنية بل وكل شيء في الحياة الاجتماعية يعبر عنه الافراد في الفاظهم وفي افعالهم ، وحين يصل الباحث الى فهم معاني كل كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها في المواقف والمناسبات المختلفة يكون قد انهى دراسة المجتمع »(٤٠).

فاللغة على هذا الاساس ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو لتوصيل الافكار بل تتحدد وظيفتها كما يقول الخشاب في الاطار الوظيفي العام باعتبارها احدى حلقات السلوك الجماعي والنشاط الانساني المنتظم(٤١) . ويذهب مالينوفسكي الى القول : « بأن اللغة هي الاداة الاساسية والوسيلة الضرورية لوصل الروابط البنائية التي يستحيل بدونها تحقق أو قيام العمل الجماعي المشترك »(٤٢).

ولا شك أن التأكيدات على أهمية دراسة لغة المجتمع المدروس التي يلح عليها علماء الانثروبولوجيا المعاصرون وتأكيداتهم على عدم اعتماد الباحث على المترجمين الا في الظروف والحالات الاستثنائية ، يشير الى مبلغ ما وصل اليه البيروني من مكانة علمية رفيعة في هذا المجال حيث سبق الانثروبولوجيين المعاصرين بالمناداة بضرورة تعلم لغة الاهالي في المجتمع المدروس بقرون عديدة . وغني عن البيان أن نذكر أن البيروني لم يتعلم اللغة الهندية فحسب ، بل تعلم اللغة السنسكريتية التي تولدت عنها الهندية وأجادها وسيطر عليها سيطرة تامة ، بدليل انه ترجم كثيرا من كتبهم الى اللغة العربية حيث كان يرى أن اللغة العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية(٤٣) .

رابعا : الموضوعية : كان البيروني يلتزم جانب الحياد في كل ما يلاحظه فلا يعترض ولا ينتقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية وغيرها من المتواضعات والانشطة الاجتماعية المختلفة . فهو يقول « وانا في أكثر ما سأورده من جهتهم حاكٍ غير منتقد الا عن ضرورة ظاهرة »(٤٤)

خامسا : تكوين فكرة مسبقة عن المجتمع موضوع الدراسة : ويعد هذا المبدأ من أهم مرتكزات الدراسة الحقلية في الانثروبولوجيا المعاصرة . وتعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي يجب ان يكون لديه اطلاع ومعرفة بالمجتمع الذي ينوي دراسته دراسة ميدانية قبل أن يصل اليه : اما عن طريق الاخبار أو عن طريق قراءة كتب معينة عن هذا المجتمع . ولا تعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي سوف يظل أسير هذه الفكرة بعد انخراطه في المجتمع ، بل ينبغي أن يغيرها ويبدلها اذا وجد أن الحقائق الاجتماعية القائمة تعارض فكرته المسبقة عن المجتمع أو لا تتفق معها .

والمرجح أن البيروني قد استخدم هذا المبدأ وطبقه . فالعصر الذي عاش فيه البيروني (القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد) قد شهد حركة علمية وثقافية واسعة . فقد كان بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد يزخر بعدد كبير من العلماء الهندوس والعرب وبخاصة بعد أن تم فتح أجزاء كبيرة في شمال الهند(٤٥) في عهد الخليفة العباسي المنصور . وقد قويت حركة الاتصالات العلمية والثقافية بين العلماء العرب والهنود بعد أن تأسست مدينة المنصورة في الهند في عام ٧٦٢م حيث أصبحت هذه المدينة مركزا مهما على الارض السندية للتواصل العلمي والبحثي فيما بين العلماء العرب والهنود(٤٦). وكان البيروني من بين هؤلاء العلماء ، ولذلك فلا بد أن يكون قد اطلع على ما كتب عن أحوال الهند أو وصلته أخبار عنها من خلال العلماء الهنود قبل أن يدخلها ، خاصة وأن صديقه الحميم القائد محمود الغزنوي هو الذي شجعه على دراسة جغرافية الهند ودراسة الحياة الاجتماعية فيها(٤٧) . وقد أشار البيروني نفسه الى هذا التكليف ورحّب به واعتبره شرفا عظيما(٤٨) . وهذا التكليف وتلك الرغبة من قبل البيروني تجعلنا نميل الى القول بأن البيروني قد درس أحوال الهند وكون فكرة عنها قبل دخولها .

سادسا : مبدأ المقارنة :

يولي علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرون هذا المبدأ أهمية كبيرة في البحث الانثروبولوجي ذلك لانه باستخدام هذا المبدأ يمكن التعرف على مدى شيوع النظم الاجتماعية وعموميتها وابراز أوجه التشابه فيما بينها في مختلف العصور تمهيدا لاقامة قواعد عامة تحكم أوجه النشاط الاجتماعي والسلوك البشري . وقد استخدم البيروني هذا المبدأ أحسن استخدام وطبقه أروع تطبيق . فقد قارن بين الديانة الاسلامية وديانة الهنود وبيّن ما بين الديانتين من تباين وتباعد . يقول « ومنها أنهم يباينوننا بالديانة مباينة كلية ، لا يقع منا شيء من الاقرار بما عندهم ولا منهم بشيء مما عندنا »(٤٩) . وقارن بين عادات المسلمين وعادات الهنود وبيّن ما بينها من اختلافات كبيرة . يقول « ومنها أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات ».(٥٠) وقارن كذلك بين ديانة الهنود وديانة اليونان قبل ظهور الديانة المسيحية وبيّن ما بين الديانتين من أوجه التشابه والاتفاق ، يقول « ان اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة ، خاصتهم في النظر قريب من خاصهم ، وعامتهم في عبادة الاصنام كعامهم ، ولهذا أستشهدُ من كلام بعضهم على بعض بسبب الاتفاق وتقارب الامرين » (٥١). وقارن الطبقات التي كانت موجودة في بلاد الفرس قبل الاسلام بالطبقات التي كانت قائمة في الهند ، وبين أوجه التماثل والتشابه بين هذين النظامين من الطبقات(٥٢) . كما قارن بين عادة الاستبضاع التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل

الاسلام بما كان موجودا عند الهنود وقت الجاهلية من انواع النكاح الذي يحرمه الاسلام(٥٣) ، وقارن ديانة الرومان واليونان بديانة الهند (٥٤) .

وقد توصل البيروني بناء على هذه المقارنات الى تعميمات عامة بشأن بعض الظواهر والنظم الاجتماعية بعد أن وجدها شائعة في بلدان كثيرة وفي شعوب مختلفة ، وفي مقدمة ذلك ، التعميم الذي يذهب الى أن عامة الناس ينزعون الى عبادة المحسوسات بينما يتجه المتعلمون العارفون الى عبادة الله المنزه عن الصفات البشرية. يقول البيروني : « معلوم أن الطباع العامي نازع الى المحسوس ، نافر من المعقول الذي لا يعقله الا العالمون الموصوفون في كل زمان ومكان بالقلة »(٥٥) وقد توصل البيروني الى هذا التعميم بعد أن وجد أن عامة الناس في مختلف المجتمعات تتجه الى عبادة الاصنام بينما يتجه المتعلمون المثقفون الى عبادة الله .

وهكذا يتضح مما عرضنا له بصدد المنهج عند البيروني انه استخدم كثيرا من المرتكزات والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثربولوجي المعاصر ، ولا سيما ما يتعلق منه بالتركيز على الدراسة الحقلية الميدانية ، وما ينبغي على الباحث الانثربولوجي أن يلتزم به من اقامة في مجتمع الدراسة ، وملاحظة الظواهر الاجتماعية بنفسه ، وتدوين كل ما تقع عليه عينه في مكان حدوث الظاهرة ، ووقت حصولها ، وعدم الاعتماد على الاخباريين الا في حالة الضرورة ، وتعلم لغة المجتمع المدروس ، والاطلاع على أحواله وعاداته ونظمه الاجتماعية المختلفة قبل النزول الى الميدان الاجتماعي ، ومقارنة ما شاهده من عادات وأنشطة اجتماعية مختلفة بعادات شعوب ومجتمعات أخرى . وبهذا المبدأ الاخير يجمع الباحث الانثروبولوجي بين شتات النظم الاجتماعية ويستخلص القوانين أو القواعد العامة التي تعتبر الهدف الاساسي للبحث العلمي المنظم .

الطبقات الاجتماعية في الهند كما وصفها البيروني

ليس هنالك مجتمع من المجتمعات لعبت الطبقات الاجتماعية فيه دورا مهما في الحياة الاجتماعية مثل المجتمع الهندي . فقد أرست الطبقة التي تستند قواعدها وحدودها الى الديانة البرهمية القواعد والسنن التي تحدد السلوك الاجتماعي وتشرف على الانشطة الاجتماعية في مجالات الحياة المختلفة . وقد حددت كذلك الجزاءات الاجتماعية والقوى الضبطية التي تضمن الطبقة وبموجبها سيادة قوانينها وقواعدها واطاعة الافراد لها وعدم خروجهم عنها . ومن هنا فقد اعتبرت الطبقة على أنها وحدة الهندوس الاجتماعية وانها حجر الزاوية لجميع نظم الهند الاجتماعية منذ آلاف السنين(٥٦) .

وقد أدرك البيروني أهمية النظام الطبقي في الهند ومدى تدخله وتغلغله في معظم شؤون الحياة الاجتماعية .ولذلك فقد حاول أن يبين أصل هذا النظام وأهدافه وغاياته ووظائفه ،وأن يبين عدد الطبقات وخصائصها ،ومميزات كل طبقة ومرتبتها الاجتماعية وأن يربط ذلك كله بالبناء الاجتماعي القائم الذي تعتبر الطبقة وحدته الاساسية . فعن عدد الطبقات فقد ذكر البيروي أن عددها أربع وهي :

أ ــ طبقة البراهمة .

ب ــ طبقة كشتر .

ج ــ طبقة البيشة .

د ــ طبقة الشودرا .

يقول البيروني وهم يسمون طبقاتهم : « برن » ، أي الالوان ، ويسمونها من جهة النسب « جاتك » أي المواليد ، وهذه الطبقات في أول الامر أربع ، علياها « البراهمة » فقد ذكر في كتبهم أن خلقتهم من رأس « براهم » وان هذا الاسم كناية عن القوة المسماة « طبيعة » والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الانس ، والطبقة التي تتلوهم « كشتر » خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورتبتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جدا ودونهم « بيش » خلقوا من رجلي براهم ، وهاتان المرتبتان الاخيرتان متقاربتان ،وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى أربعتهم مختلطي المساكن والدور ، ثم أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقة غير الصناعة ويسمون « انتز » وهم ثمانية أصناف بالحرف ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الأخر سوى القصار والاسكاف واللعاب ونساج الزنابيل والاترسة والسفان وصيادو السمك وقناص الوحوش والطيور والحائك فلا يساكنهم الطبقات الاربع في بلدة، وانما يأوون الى مساكن تقربها وتكون خارجها ، وأما « هادي » و « دوم » و « جندال » و « بدهتو » فليسوا معدودين في شيء ، وانما يشتغلون برذالات الاعمال من تنظيف القرى وخدمتها ، وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزناء فقد ذكر انهم يرجعون الى أب « شودر » وأم « برهمن » خرجوا منهما بالسفاح فهم « منفيون منحطون »(٥٧).

ونستطيع أن نستشف من هذا الوصف بعض الحقائق الاجتماعية المهمة وأولها : ان طبقة البراهمة هي أرقى الطبقات وأنقاها واعلاها منزلة ، ثم تأتي طبقة « كشتر » في المرتبة الثانية وتليها «بيش» ،أما «شودر» فهي أحط الطبقات وادناها منزلة اجتماعية. وثاني هذه الحقائق اقرار الحواجز الفيزيقية أو ما يسمى بالعزل الفيزيقي بين الطبقات

ويترتب على هذا العزل الفيزيقي بطبيعة الحال عزل اجتماعي وثقافي بين الطبقات، وهذا من شأنه أن يسلم الى حقيقة ثالثة وهي التمييز العنصري . فقد أظهر الوصف أنه على الرغم مما يقوم بين الطبقات الثلاث الاولى من تمايز وتفاضل في الدرجات والمراتب الاجتماعية فانها جميعها تسكن الى جانب بعضها بعضا ولا تختلط بالطبقة الرابعة « شودرا » وهذا يدل على أن الطبقات الثلاث تنحدر من سلالة واحدة نقية تختلف عن السلالة المنحطة التي انحدرت منها طبقة الشودرا .

وفيما يتصل بالاصل التاريخي لنشأة نظام الطبقات في الهند ، يرى البيروني أن هذا النظام هو من ابتداع ملوك الهند القدامى . وهؤلاء كما يقول لوبون هم أحفاد الآريين البيض الذين فتحوا الهند قبل الفي سنة تقريبا(٥٨). ويتبين من الوصف التاريخي لنشأة النظام الطبقي الذي قدمه البيروني أن الهدف من التصنيف الطبقي هو منع التمازج والاختلاط بين السلالات النقية التي ينتمي اليها الطبقات الثلاث وبين السلالة المنحطة التي ينتمي اليها الشودرا ، ويبدو أن الملوك من سلالة الآريين قد أدركوا بفعل التجربة ما يترتب على امتزاج سلالة نقية بسلالة منحطة من فساد وتدهور السلالة الراقية وانحطاطها أو تلاشيها على مرور الزمن ، ولذلك فقد عمدوا الى سن تشريعات تقضي بعدم الاختلاط والامتزاج بين فئات الشعوب الهندية ونسبوا هذه التشريعات الى الاله براهما نفسه الذي يعاقب على مخالفتها بعقوبات شديدة . يقول البيروني في هذا الصدد « وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم الى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والتهارج ويحظرون الاختلاط عليهم بسببها ، ويلزمون كل طبقة ما اليها من عمل أو صناعة وحرفة ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته »(٥٩) . ويذكر في مكان آخر « فقد ذكروا أن أمور الايالة والحروب كانت فيما مضى الى البراهمة ، وفي ذلك كان فساد العالم من جهة أنهم أجروا السياسة على مقتضى كتب الملة من السيرة العقلية ولم يطحها ذلك لهم من ذوي العيث والزعارة ، وكاد الامر يعجزهم بما اليهم من أمر الديانة فتضرعوا الى ربهم فيه حتى أفردهم براهم لما اليهم ، وجعل السياسة والقتال الى كشتر ، ولذلك صار معاش البراهمة من السؤال والكدية ،وحصلت العقوبات في الناس بالذنوب من جهة الملوك لا العلماء »(٦٠).

وقد ذكر لوبون بعضا من تعاليمهم الدينية التي وردت في قوانين « مانو » مشرع الهند العظيم ،ما يشير الى مبلغ اهتمامهم بايجاد فواصل حديدية بين الطبقات والاسس التي يقوم عليها هذا الاهتمام ، وأهمها المحافظة على نقاء العرق الآري وصفائه ، والحيلولة دون فنائه بالامتزاج والاختلاط بالسكان الاصليين الكثيري العدد وهم الشودرا . فقد جاء في قوانين مانو « لا تلبث كل بقعة ينشأ فيها أناس من عروق متوالدة أن يعمها الخراب وأن يضمحل سكانها »(٦١).

وهكذا نجد أن نظام الطبقات في الهند قد وضع البذور الاولى لنظرية التمييز العنصري التي تقول بتفوق بعض العناصر البشرية وتخلف البعض الاخر ، بمعنى أن بعض العناصر تملك كفاءة وقابلية ومقدرة طبيعية للتفوق الحضاري اكثر من باقي العناصر البشرية الاخرى ، وان هذا التفوق الحضاري موروث ويرتبط بخصائص جسمانية معينة . ولسنا بصدد مناقشة بطلان هذه النظرية وتهافتها ، ولكن ما نود أن نقوله ان أفكارا معينة مثل التمركز السلالي والتعصب العرقي كانت موجودة في المجتمع الهندي القديم وبخاصة لدى الطبقات الثلاث (« البراهمة » ، « كشتر » ، « بيش ») حيث كانت هذه الطبقات الثلاث ترى أنها أنقى الشعوب الهندية وأفضلها ، أما ما عداهم فانهم أمليج أي منحطون وأنجاس . وقد وصف البيروني هذه النظرية الاستعلائية التفوقية في أثناء مقارنته بين عادات المسلمين وعادات الهنود غير المسلمين : « وذلك أنهم يعتقدون في الارض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك أنهم رؤساؤهم ، وفي الدين أنه نحلتهم ، وفي العلم أنه ما معهم ، فيترفعون ويتبظرمون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون ، وفي طباعهم الضنّ بما يعرفونه ، والافراط في الصيانة له عن غير أهله منهم ، فكيف عن غيرهم ، على أنهم لا يظنون ان في الارض غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها »(٦٢) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا الى دينهم ، وهذا مما يفسخ كل وصلة ويوجب أشد قطيعة »(٦٣) .

ويذكر البيروني أن التمايز والتفاضل موجود في داخل كل طبقة بحيث أدى هذا الوضع الى نشوء مجموعة من الفئات والشرائح الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة . ويقوم هذا التمايز على أساس نوع الخدمة التي تقدم للنار ، وعلى أساس التصرفات والافعال المتوقعة من أفراد كل طبقة . يقول البيروني « يلحق كل واحد من أهل الطبقات سمات وألقاب بحسب فعله وطريقته ، كالبرهمن مثلا فان هذه سمة مطلقة اذا لزم بيته في عمله فاذا لزم خدمة نار واحدة لقب « آيشتهي » واذا خدم ثلاثا من النيران فهو « آكن هوتري » ، واذا قرب للنار مع ذلك فهو ديكشت . فكذلك هؤلاء الا أن «هادي» أحمدهم ، لانه يترفع عن القاذورات ويتلوه « دوم » لانه يجنكي ويطرب ومن بعدهما يترشح للقتل والعقوبات صناعة ويتولاها ، وشرهم «بدهتو» فانه لا يقتصر بأكل الميتة المعهودة ولكنه يتجاوزها الى الكلاب وأمثال ذلك »(٦٤) . وقد أشار البيروني ضمنا في وصفه للوظائف الاجتماعية للطبقات الى مفهوم اجتماعي مهم وهو مفهوم التكامل الاجتماعي . ويتجلى هذا المفهوم في التزام كل طبقة بالعمل الذي تجيده والذي خلقت لاجله بحيث تكمل أعمال كل طبقة أعمال الطبقة الاخرى ، فيشبع المجتمع احتياجاته المختلفة ويحافظ على استقراره وتوازنه . فطبقة البراهمة تشرف على الامور الدينية وتقوم بأعمال الكهانة ، وفضيلتها الحكمة والتعقل والنظافة وضبط

الحواس ، وتقوم طبقة كشتر بأعمال الحروب والسياسة وفضيلتها الشجاعة والاقدام والكرم والصبر على الشدائد وتقوم طبقة بيش بأعمال الفلاحة والزراعة والتجارة ، وتختص طبقة الشودرا بخدمة كل الطبقات والتقرب اليها . يقول البيروني « يجب أن يكون البرهمن وافر العقل ، ساكن القلب ، صادق اللهجة ، ظاهر الاحتمال ، ضابطا للحواس ، مؤثرا للعدل ،بادي النظافة ، مقبلا على العبادة ،مصروف الهمة الى الديانة، وأن يكون كشتر مهيبا في القلوب ، شجاعا ، متعظما ، زلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ،حريصا على تيسير الخطوب ،وأن يكون بيش مشتغلا بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة ،وشودر مجتهدا في الخدمة والتملق ، متحببا الى كل أحد بها»(٦٥).

ويذكر البيروني أنه لا يجوز لافراد طبقة ما أن يقوموا بأعمال الطبقة الاخرى، نظرا لما ينجم عن ذلك من خلل قد يصيب البناء الطبقي بأكمله فيعطله عن القيام بوظائفه ، وتحقيق أهدافه وغاياته ، فمثلا لا يجوز لكشتر أن يقوم بالوظائف الدينية التي تقوم بها طبقة البراهمة ، ولا يجوز لبيش أن تقوم بالوظائف التي تقوم بها طبقة كشتر .وكل من يخالف هذه التعاليم يرتكب اثما كبيرا . فقد جاء في كتاب البيروني « وكل من هؤلاء (يقصد الطبقات) اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير في ارادته اذا كان غير مقصر في عبادة الله ، غير ناس ذكره في جلّ أعماله ، واذا انتقل عما اليه الى ما الى طبقة أخرى وان شرفت عليه كان اثما بالتعدي في الامر »(٦٦) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « وكل عمل يخص البرهمن من التسابيح وقراءة بيذ وقرابين النار فهو محظور عليه ، حتى انه وبيش (أي شودر وبيش) ان صح عليهما أنهما قرآ بيذ رفعتهما البراهمة الى الوالي فقطع لسانهما ، وأما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه . وكل من تعاطى ما ليس لطبقته أن يتعاطاه كالبرهمن التجارة وشودر الفلاحة ، فهو آثم وان قصر مقدار اثمه عن السرقة »(٦٧).

ولان طبقة البراهمة منصرفة كلية الى خدمة النار والقيام بالواجبات الدينية(٦٨)، فانها تعتمد في معيشتها على ما يقدم لها من الصدقات والهبات من الطبقات الاخرى . وقد جعلت الديانة البرهمية الصدقة على فقراء البرهمة أفضل عمل يقوم به هندوسي، ولذلك فرضت التعاليم الدينية على أهل الميت أن يتصدقوا على البراهمة لمدة عام كامل ، كما فرضت على الطبقات الاخرى أن يقدموا لهم صنوفا من الاطعمة في مناسبات الاعياد والضيافة وفي أيام الصوم ، ونستشهد على ذلك ببعض ما جاء في كتاب البيروني ، عندما يموت الميت « وبعد اليوم الحادي عشر يوجّه كل يوم من الطعام ما يكفي نفسا واحدة ودرهم معه الى بيت برهمن ويداوم ذلك طول أيام السنة ولا يقطع الى آخرها »(٦٩) . كذلك فقد أعفت الديانة البرهمية طبقة البراهمة من الضرائب المستحقة على هذه الصدقات ، ومن الضرائب المستحقة على ممارستهم للاعمال التجارية اذا اقتضت الضرورة أن يمارسوها(٧٠) .

وهكذا نجد أن التكامل الاجتماعي ينبثق من اعتماد كل طبقة على الطبقة الاخرى، والتزام كل طبقة بالوظائف والاعمال التي حددت لها بموجب قوانين مانـو . ويلاحظ أن هذا التكامل الاجتماعي مناظر للتكامل العضوي ومتولـد عنه . فهنالك نـوع من التناظر بين الفضيلة التي تميز طبقة البراهمة والوظائف التـي تقوم بها وبين العضـو البيولوجي الذي تولدت عنه في جسم براهما وفضيلته والوظيفة التي يقوم بها . ففضيلة الحكمة التي تميز طبقة البراهمة تنسجم مع العضو الذي تولدت منه والعمل الـذي يقوم به وهو الرأس مركز التعقل والتفكير ، وكما أن التفكير اهم شيء يميز الانسان عن الحيوان فكذلك تميزت طبقة البراهمة عن باقي الطبقات الاخرى واحتلت منزلة أعلـى منها جميعا . وكذلك الامر بالنسبة لفضيلة الشجاعة التي تميز طبقة « كشتر » حيث تنسجم فضيلتهم مع فضيلة العضوين اللذين تولدت منهما ،وتنسجم الاعمال والوظائف التي يضطلعون بها مع الاعمال والوظائف التي يقوم بهـا هذان العضوان أي المنكبـان واليدان وهما رمزا القوة والبطش . وهكذا بالنسبة لباقي الطبقات الاخرى .

ومع أن فكرة التناظر بين التركيب العضوي والتركيب الاجتماعي التي أصبحت تدعى اليوم بالمماثلة العضوية قد شاعت منذ القديم حيث وردت في كتابـات أرسـطو وأفلاطون في العصور القديمة وفي كتابات ابن خلدون في العصور الوسطى وظهرت حديثا في كتابات سبنسر ودركهايم ومالينوفسكي، فان البيروني قد اشتق هذه الفكرة من واقع اجتماعي قائم بالفعل ، اضافة الى أن فكرته عن التكامل كانت أوسع وأكثر شـمولا ، بحيث تنتظم العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي اضافة الى العالـم العضوي . وبذلك يكون قد سبق سبنسر الى اكتشاف هذه الفكرة والمناداة بها بقرون طويلة . ولكنه ردّ هذه الفكرة الى حكمة الله ليكون بها معاش الناس واستمرار حياتهم « وكما أن تعاون المتمدنين لا يكون الا مع التفاضل ليحتاج أحدهم الى الآخر ، كذلك خلق الله العالـم مختلف الطباع متفاوت البقاع واحدة صرودا ، وأخرى جروما ، وواحدة طيبة التربة والماء والهواء ، وأخـرى سبخية أو عفنة آسـنة الماء وبيّة الهـواء ، وكذلك سـائر الاختلافات في كثرة النعم وقلتها وتواتر الآفات وعدمها مما يدعو المتمدنين الى اختيار الامكنة لبناء المدن من أجلها » . (٧١) ويتضح من هذه العبارات التي أوردها البيروني انه قد سبق دوركهايم في حصر التضامن العضوي بالمجتمع المتقدم في مقابل التضامن الآلي الذي يميز المجتمع البسيط او المتخلف . وقد عبر البيروني عن فكرة التضامن الآلي ومدى انتشارها في الجماعات البسيطة والمتخلفة عندما أشار الى نزعة هذه الجماعات الى عبادة الاصنام والاوثان سواء في الهند أو في غيرها من الشعوب والمجتمعات الاخرى، حيث تمارس هذه الجماعات الشعائر والطقوس الدينية باتجاه الاصنام بصورة تلقائية وبدون تفكير أو تعقل(٧٢) .

علاقة البناء الطبقي بالسنن والمعايير الاجتماعية :

لقد أشار البيروني في مواضع متفرقة من كتابه الى كثير من العادات والسنن والانشطة الاجتماعية التي يمارسها الافراد فيمواقف وأوضاع اجتماعية مختلفة ، وبين أن هذه السنن والعادات ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد أو بالوضع الاجتماعي الذي يحتله في داخل طبقته .

وبما أن القواعد والقوانين التي تحكم تصرفات الفرد في كل طبقة اجتماعية قد أوحى بها الاله براهما عن طريق مانو فعندئذ تصبح تصرفات الفرد وأنشطته الاجتماعية المختلفة محددة من قبل الاله ولا ينبغي تجاوزها أو الخروج عليها . ومن هنا فان أية محاولة لفهم الطبقة والحياة الاجتماعيةفيالهند لا تتم الا بفهم الديانةالهندية وتعاليمها. وسوف نستعرض ثلاثة نظم اجتماعية لها صلة وثيقة بنظام الطبقة الاجتماعية في الهند وبالتشريعات والتعالم الدينية ،وهي نظام المؤاكلة ونظام الزواج والجزاءات الاجتماعية:

ا ـ نظام المؤاكلة :

يفرض نظام المؤاكلة على الفرد في المجتمع الهندي أن لا يشترك في تناول طعام مع شخص آخر ينتمي الى طبقة غير طبقته ، وأن لا يجالسه على المائدة . وقد أوحت طبقة البراهمة أن هذا النظام هو نظام الاهي وصادر عن حكمة ربانية ، ولذلك يجب التقيد بمضمونه وعدم مخالفته والخروج عنه . يقول البيروني « وكل طبقة من الطبقات الاربع فانها تصطف في المؤاكلة على حدة ولا يشتمل صف على نفرين مختلفي الطبقة. فان كان في صف البراهمة مثلا نفران منهم متنافران وتقارب مجلساهما فُرق بين المجلسين بلوح يوضع فيما بينهما ، أو ثوب يمد أو شيء آخر بل ان خط بينهما تمايزا »(٧٣) .

أما الحكمة فيذلك فتتمثل فيأن الشخص اذا اصطف مع آخرين على مائدة وشبع قبلهم فان ما تبقى من الطعام يعتبر فضلة والفضلة من الطعام محرمة ، ولذلك وجب يأكل الشخص منفردا . يقول البيروني « ولان الفضلة من الطعام محرمة فانها توجب الانفراد بالمأكول لانه اذا تناوله أحد المؤاكلين في قصعة واحدة صار ما بقي بتناول الآخر وانقطاع أكل الاول فضلة محرمة »(٧٤) .

وقد أشار لوبون الى ان هذا النظام كان مطبقا الى الوقت الذي زار فيه الهند في مطلع القرن العشرين . يقول « وقد تجدون مئات من براهمة الهند الموظفين في دوائر البريد وفي ادارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكا كل شهر وقد تجدون بين البراهمة من هم من السائلين بيد أن ذلك الموظف أو السائل يفضل الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك »(٧٥) .

ب ـ نظـام الزواج :

ان نظام الهنود في الزواج أن يتزوج الشخص من طبقته أو من طبقة أدنى منهـا ما عدا أن يتزوج من الشودرا ، فلا يتزوج من الشودرا الا شودرا ، ولا يجوز للشخص أن يتزوج من طبقة أعلى من طبقته . يقول البيروني « وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة أدنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوج واحدة من الشودرا يصبح مفضوحا ، مهتوك الستر ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزي في الدنيا والآخـرة ، فلا يتزوج نساء الشودرا الا رجال من الشودرا ، ويجوز لكل واحد من أهـل الطبقات أن يتزوج من طبقته وفيما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته » (٧٦) .

ويطلعنا البيروني على أن نظـام الانتساب الى الام كان هو نظام النسب الشائع في الهند ، حيث ينتسب الولد هناك الى أمه دون أبيـه . ويعلل البيروني ذلك بالمحافظة على نقاء طبقة البراهمة وصفاء عرقها والرغبة في عدم امتزاجها بالسلالات الاخرى لئلا تنحط وتتلاشى . يقول البيروني « يكون الولد منسوبا الى طبقة الام دون الاب ، فان كانت امرأة البرهمن مثلا برهمنا ، كان الولد كذلك وان كانت شودرا ، كان شودرا ، ولكن البراهمة في زماننا وان حل لهم ذلك لا يفعلونه ولا يتجاوزون في التزويج غـير طبقتهـم »(٧٧) .

وقد أكد لوبون أن هذا النظام يهدف الى نقاء العرق وصفاء السلالة . فلربمـا كان في رأي البراهمة أن تزاوج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدي في الغالب الـى أولاد متوسطين خلقا منحطين خلقا . وقد نصت شريعة ما نو بالفعل ما يفيد أن اختلاط السلالات بالتزاوج يؤدي الى فساد العرق النقي وتدهوره . فقد جاء في شريعة مانـو « لم يلبث كل بلد يولد فيه أولاد مـن عرق متوالد مفسد لصفاء الطبقـات أن تقوض دعائمه وينحط سكانه »(٧٨) . وجاء كذلك « وأسـرة الرجل مهما تكن شريفة ممتـازة لا بد لهذا الرجل اذا كان وليد طبقات مختلطة من أن ينتقل اليه بالارث شيء من سجية أبويه وسوء خلقهما »(٧٩) . ونصت قوانين مانو أيضا «وما في الرجل من فقدان المشاعر النبيلة وغلظة الكلام والجلف واهمال الواجبات فموروث عن أم جديرة بالاحتقار »(٨٠).

وقد تكون هاتان السمتان أي نظام المؤاكلة أو المطاعمة ونظام الزواج أهم سمتين تتميز بهما كل واحدة من الطوائف ويختلف بهما افراد كل طائفة عـن أفراد الطوائف الاخرى . وقد أشار البيروني كذلك الى نظام تعدد الزوجـات في المجتمع الهنـدي . وبموجب هذا النظام يجوز للرجل أن يتزوج بأربع ، ولا يجوز له ان يزيد على ذلك . يقول البيروني « وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة الى أربع ، وما فوق الاربع محرم عليه الا أن تموت احدى من تحت يده منهن فيتم العدد بغيرها ولا يتجاوزه »(٨١). غير أن البيروني يستدرك فيشير الى أن بعض الهنود يرى ان عدد النساء يكون بحسـب

الطبقات فيصبح الزواج في هذه الحالة مظهرا من مظاهر التمايز الطبقي . يقول «ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن أربعا ولكشتر ثلاثا ولبيش اثنتين ولشودر واحدة »(٨٢) .

ج ـ الجزاءات الاجتماعية :

يخضع نظام الجزاءات الاجتماعية للنظام الطبقي ويرتبط به ، بمعنى أن الجزاءات تتناسب مع المزايا الطبقية ومع مرتبة الطبقة ومنزلة الفرد فيها . ولذلك فقد جاء نظام الجزاءات مكرسا للنظام الطبقي وداعما له ومبقيا عليه . وقد اخترنا الجزاءات الاجتماعية الخاصة بالقتل لنبين مدى انسجام هذه الجزاءات وتساوقها مع مرتبة الطبقة ومنزلتها ارتفاعا أو هبوطا . فالشخص القاتل لا يتعرض لاية جزاءات سلبية أو عقوبات اذا كان برهمنا وكان المقتول برهمنا أيضا ، حيث يفوض أمر القاتل والمقتول في هذه الحالة الى الله . أما اذا كان القاتل برهمنا وكان المقتول من سائر الطبقات فلا يلزم البرهمن الا كفارة ، وذلك لان الحكام لا يقتصون من برهمن أو كشتر . أما باقي الطبقات فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، وفي نفس الوقت يعاقبون من قبل الحكام للاعتبار . يقول البيروني « فأما أمر القتل فان القاتل اذا كان برهمنا والمقتول من سائر الطبقات لم يلزمه الا كفارة ، وهي تكون بالصوم والصلاة والصدقة ، وان كان المقتول برهمنا أيضا كان أمره الى الاخرة ولم يجزه كفارة ، اذ الكفارة تمحو الذنوب ، وليس شيء يمحو من البرهمن كبائر الآثام ،وعظماها قتل البرهمن ويسمي وزره«برهم هت» ثم قتل البقر ثم شرب الخمر ثم الزنا وخاصة مع من هو لأبيه أو لأستاذه . على أن الولاة لا يقتصون من برهمن أو كشتر ولكنهم يستصفون ماله وينفونه من ممالكهم ، وأما من دون البراهمة وكشتر فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، ولكن الولاة يقيمون فيهم القصاص للاعتبار »(٨٢) .

وفي الحقيقة فهنالك موضوعات اجتماعية وانثروبولوجية عديدة تطرق اليها البيروني على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تصور مختلف جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم ، مثل العادات الاجتماعية الخاصة بحرق جسد الميت وحرق الزوجة المتوفى زوجها والعادات الخاصة بالصوم والحج وعدم أكل لحم البقر وعبادة الاصنام والنكاح ونحوها . وانه لمن الصعب أن يتوفر باحث مفرد على دراسة هذه الانشطة الاجتماعية جميعها ، ونأمل أن يتوفر عليها نفر آخر من الباحثين الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تشكل جهودا علمية متميزة لعالم من مشاهير علماء العرب والمسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي وهو البيروني .

غير أن الباحثين سوف يجدون أن الموضوعات التي أشرنا اليها وغيرها من السنن والانشطة الاجتماعية الاخرى مرتبطة أشد الارتباط بالطبقة الاجتماعية ، فهي محور الحياة الاجتماعية واساس كل نشاط اجتماعي . وقد ادى هذا الوضع الى جمود الوضع الاجتماعي والى انغلاق كل طبقة على نفسها ، وقد مارس الانغلاق الطبقي تأثيرات سلبية في مجمل الحياة الاجتماعية ، فتعددت لغاتهم ودياناتهم وأمزجتهم وعاداتهم الاجتماعية . وهذا أدى بدوره الى تبعثر جهودهم وتفرقها وعدم انصهارهم وتوحدهم في كل موحد ضد الاخطار الخارجية مما جعلهم فريسة سهلة لكل طامع في أرضهم . وقد أدرك الانكليز بالفعل أهمية النظام الطبقي لاستمرار حكمهم وتمكين سيطرتهم على الهند ، فراحوا يغذون الفواصل بين الطبقات ويشجعونها لادامة حكمهم أطول مدة ممكنة من الزمن(٨٤) . وقد تنبه « غاندي » قائد الهند الروحي الى مثالب النظام الطبقي في الهند وما جرّه هذا النظام من كوارث وويلات على الشعوب الهندية فسن القوانين الدستورية والتشريعات التي تجرم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس بسبب الجنس أو الطبقة أو المهنة ، وألغى كذلك الفواصل بين المنبوذين وبقية الطبقات الاخرى(٨٥) . وبهذه الاجراءات الانسانية استطاع غاندي أن يجمع الهنود حوله على اختلاف طوائفهم وأديانهم وأن يحرر بلاده من السيطرة الاجنبية .

الخاتمة :

لقد كانت قضيتنا المحورية في هذه الدراسة هي ابراز اسهامات المفكرين العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة سواء في مجال المنهج أو في مجال الموضوع ، وذلك من خلال تحليل محتويات كتاب المفكر العربي « أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني » (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) الذي ضم بين دفتيه معلومات اثنوغرافية غزيرة عن الحياة الاجتماعية في الهند ونظمها المختلفة في القرون الوسطى .

وقد اتضح أن البيروني قد استخدم في جمع مادته الاثنوغرافية كثيرا من المبادىء والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثروبولوجي المعاصر ، وفي مقدمتها الاعتماد على الدراسة الحقلية الميدانية ، أي اقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة مدة من الوقت تكفي لجمع البيانات والمعلومات من الميدان الاجتماعي عن طريق الملاحظة والمشاهدة الحسية . وقد لاحظنا كيف أن البيروني لفت انظار الدارسين والباحثين الى كثير من القضايا المنهجية في الدراسات الانثروبولوجية ، مثل ضرورة تعلم لغة المجتمع المدروس وعدم الاعتماد على المترجمين ومشاهدة الظاهرة الاجتماعية في وقت وقوعها وزمان حدوثها وتسجيل كل الجزئيات المتعلقة بها وعدم الاعتماد على الاخباريين نظرا لما يسببه

الاخباريون من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكان في كثير من الاحيان يستخدم التحليل والتفسير في دراسة الظواهر الاجتماعية ويقارنها بمثيلاتها في مجتمعات اخرى .

وفي مجال الموضوع ، فقد اشتمل كتاب البيروني الآنف الذكر على كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور الدراسة الانثروبولوجية المعاصرة . وقد اخترنا منها موضوع الطبقة الاجتماعية وبعض السنن الاجتماعية المرتبطة بها . وقد اتضح لنا من خلال الوصف الذي قدمه البيروني عن خصائص الطبقة الاجتماعية ووظائفها وظروف نشأتها انها محور الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم وأنها المحدد الرئيسي لمعظم تصرفات الافراد وأنشطتهم الاجتماعية المختلفة . وقد أوضح البيروني ذلك بالاشارة الى أن نظم الزواج والمؤاكلة والجزاءات وغيرها من النظم الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة وبمرتبة الفرد فيها .

وقد أنهينا هذه الدراسة بالاشارة الى أن النظام الطبقي الذي عانى منه المجتمع الهندي كثيرا قد تغير الى درجة كبيرة بعد أن قام المصلح الاجتماعي والقائد الهندي الروحي غاندي بسن التشريعات والقوانين التي تحرم الفواصل بين الطبقات ، وتجرّم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة أو المهنة . وبذلك بدأت الهند تأخذ دورها في الاسهام في الحضارة العالمية .

الحواشــــي

(١) Regena Darnell ; **Readings in the History of Anthropology,** Harper and Row Publishers, 1974 , p. 67 .

(٢) سامي الكيالي ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٣ ، ص ١٢ .

(٣) اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ، ١٩٦١ ، ص ٢١٩ .

(٤) انظر في هذا الصدد ، غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة عادل زعيتر ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٨ ، ص ٥٤٦ . وانظر كذلك محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية في المشرق ، دار الفكر العربي ١٩٦٥ ، ص١٤٨ .

(٥) Darnell, op. ci t. p. 261 .

(٦) الكيالي ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٧) نذكر من هؤلاء المرحوم د. أحمد الخشاب ، والدكتور عبد الكريم اليافي ، والاستاذ كارلتون كون والاستاذ الكيالي . انظر في هذا الصدد كتاب أحمد الخشاب التفكير الاجتماعي ، دار المعارف

بمصر ١٩٧٠ ، ص ٢١١ ، وما بعدها . وانظر عبد الكريم اليافي ، تمهيد في علم الاجتماع . ص٥٤ وما بعدها . وانظر سامي الكيالي ، المرجــع السابق ص ٢٧ وما بعدها . ولقد وردت دعود كون في كتاب الخشاب في نفس الصفحات المشار اليهــا .

(٨) الكيالي . المرجــع السابق ص ٤٠ .

(٩) الجامعة الاردنية ، عمادة البحث العلمي ، مجلة دراسات ، المجلد ١٠ ، العدد ١/ ، حزيران ، ١٩٨٣ ــ ص‌ص ٢٧ ــ ٥٣ .

(١٠) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٩

(١١) أحمد حسين ، أمة تبعث ، شــركة التوزيع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ١٩ .

(١٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(١٣) بجيانند ، غرة الزيجــات ، اوزيج كرث ، ترجمة البيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعــة السند ، حيدر أباد ، السند ، باكستان ، ١٩٧٣ ، ص (ح) .

(١٤) Bijyanand of Benares . **Ghurrat Al - Zijat,** or Karana , prepared for publication by , N. A. Baloch, Institute of Sindhology. University of Sind, Pakistan, 1973, p. 47 .

(١٥) **Ghurrat Al-zijat.**, p. 68.

(١٦) Ibid. p. 14.

(١٧) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(١٨) حول المنهج الانثروبولوجي كاطار تصوري عــام انظــر :

A. Radcliffe - Brown, Adolf, **Andaman Islanders,** Glercoe, Illinois press, 1948, p. 110.

B. Bronislaw, Malinowski, **A scientific Theory of Culture and other Essaye,** Chapel Hill, The University of North Carolina, 1944, p. 160.

(١٩) شاكر مصطفى سليم ، المدخل الى الانثروبولو جيا ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٧٥ ، ص ١١١ .

(٢٠) Bronislaw, Malinowski, **Argonauts of the western pacific,** London, Thira impr 1950, pp. 6 - 8 .

وهنالك قواعد فرعية لهذه الاسس الثلاث شرحها . شاكر مصطفى سليم . انظر كتابه المشار اليه سابقا . ص‌ص ١٢ ١ـ ١٢٠ .

(٢١) البيروني ، تحقيق ، ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، مرجع سابق ص ١ . وسـوف نشير الى هذا المرجع فيما بعد بصورة مختصرة« تحقيق ما للهند » .

(٢٢) **Ghurrat Al - Zijat** op. ci t. p. 64.

(٢٣) شاكر مصطفى سليم ، المرجع السابق ، ص١١١ .

(٢٤) البيروني ، تحقيق ما للهند . ص ١٥ .

(٢٥) البيروني ، غرة الزيجات ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٢٦) وقد نبه ابن خلدون أيضا الى ضرورة تمحيص الاخبار من الاباطيل والاكاذيب .
انظر مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ ص ٣٢ وما بعدها .
(٢٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١ .
(٢٨) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
(٢٩) البيروني ، تحقيق ماللهند ، ص٢
(٣٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
(٣١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٢ .
(٣٢) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ص١٩٨٣.
(٣٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٢ .
(٣٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ص ٤ .
(٣٥) بجيانند البنارسي ، غرة الزيجات ، ترجمة البيروني ، مرجع سابق ، ص (ح) .
(٣٦) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٥ .
(٣٧) الآثار الباقية ، المرجع السابق ، ص٥ .
(٣٨) البيروني : تحقيق ما للهند ، ص ١٣ .
(٣٩) صفوح الاخرس . الانثروبولوجيا الاجتماعية، دمشق ، جامعة دمشق ، مطبعة أبو بكر الرازي ، ١٩٨٤ ، ص ٣٦ .
(٤٠) E. E. Evans - Pritchard, **Social Anthropology**, Cohen and West L TD. London, 1962, p. 79 .
(٤١) أحمد الخشاب ، دراسات انثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٩ .
(٤٢) Malinowski, **Argonauts**, op, ci t, pp.6-9 Ali Issa, **Social Anthropology in theory and practiec**, Dar Al - Maarif, Cairo, 1946. p. 156 - 166.
(٤٣) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
(٤٤) البيروني، تحقيق ما للهند ، ص ١٩ .
(٤٥) **Ghurrat Al - Zigat**, op. ci t, p. 39.
(٤٦) Ibid. p. 33.
(٤٧) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
(٤٨) البيروني ، الآثار الباقية ، مرجع سابق ، ص٥ . (كتاب لآثار الباقية قدمه البيروني الى ولي النعم شمس المعالي قابوس بن وشمكير (المجلة).
(٤٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٤ .
(٥٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .
(٥١) البيروني ، تحقيق ما للهند، ص ١٨ .
(٥٢) البيروني ، تحقيظ ما للهند ، ص ٧٦ .
(٥٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص٨٣ .
(٥٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٠
(٥٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .
(٥٦) لوبون : المرجع السابق ، ص ٦٥٧ .
(٥٧) البيروني . تحقيق ما للهند . ص ٧٦ – ٧٧ .
(٥٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٠ .

(٥٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٥ – ٧٦ .
(٦٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ .
(٦١) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥١ .
(٦٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٧ .
(٦٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .
(٦٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٧ – ٧٨ .
(٦٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٦٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٦٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٥٧ – ٤٥٨ .
(٦٨) ان القيام بالخدمات الدينية وبخاصة اطعام النار من (دهن وحبوب وحنطة ، وشعير ورز) وقراءة بيذ عند تقديم القرابين للنار هو من عمل طبقةالبراهمة ، أما كشتر فيمكن أن يقرأ بيذ ويتعلمه ولا يعلمه ، ويمكن كذلك أن يقرب للنار وأن يسوس الناس ويقاتل عنهم فهو مخلوق لذلك . البيروني تحقيق ما للهند ، ص ٤٥٧ .
(٦٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٧
(٧٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٦ .
(٧١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٤ .
(٧٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .
(٧٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٧٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
(٧٥) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٤ .
(٧٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
(٧٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ – ٤٧١ .
(٧٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
(٧٩) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
(٨٠) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
(٨١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٩ – ٤٧٠ .
(٨٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
(٨٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ – ٤٧٥ .
(٨٤) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٧ . وانظر كذلك أحمد حسين ، أمة تبعث ، شركة التوزيع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٢ .
(٨٥) أحمد حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٦ – ٤٠ .

أدعياء النبوة في صدر الإسلام
طليحة بن خويلد الأسدي

د. احسان صدقي العمد
جامعة الكويت

تمهيـــد :

يمثل طليحة بن خويلد الأسدي ، واحدا من أدعياء النبوة البارزين الذين ظهروا في صدر الاسلام وهم : مسيلمة الحنفي في اليمامة ، والاسود العنسي في اليمن ، ولقيط بن مالك الازدي في عمان ،وسجاح بنت الحارث التميمية في الجزيرة الفراتية ، وكان ظهور طليحة الاسدي في شمال الجزيرة العربية بين نجد والحجاز .

ويرتبط ظهور هؤلاء الادعياء فيذلك الوقت ،بعدة أسباب وعوامل أهمها العصبية القبلية والاقليمية ، والرغبة في التحلل من النفوذ القرشي ، ومحاولة تقليد النجاح الكبير الذي حققته دعوة الرسول الكريم(١) ، واعتقاد أدعياء النبوة أن نبوة الرسول نوع من الكهانة التي كان معظمهم يمارسها ويحترفها ، والتي شاعت في جزيرة العرب منذ قبل الاسلام . وقد فند القرآن الكريم هذا الادعاء في قوله تعالى : « انه لقول رسول كريم ،وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون. »(٢) كما قال عز وجل : « فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون . »(٣) فضلا عن أن ظهور الاسلام كحركة دينية من شأنه أن يؤدي الى ظهور حركات دينية منافسة له(٤)، وهو ما حدث بالفعل في حركات أدعياء النبوة . كما أن ظهور طليحة وغيره من أدعياء النبوة ، مرتبط بالوضع العام في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول الكريم ، وهو ما قد يحتاج الى بعض التوضيح .

الوضع في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول :

يمكن القول ان ميزان القوى في جزيرة العرب في أواخر حياة الرسول (ص) ، بدأ يميل الى جانب النبي الكريم والمسلمين منذ صلح الحديبية ، الذي أظهر قوة المسلمين، ومكنهم من عقد مزيد من المحالفات والاتفاقات مع كافة القبائل العربية كما هو الحال بالنسبة لقريش ، بعد ان كانت مكة تكاد تستأثر بهذا الامتياز بحكم علاقاتها التقليدية

مع قبائل العرب،وبخاصة تلك النازلة علىطول الطرق التجارية داخلالجزيرة العربية، مما عرف « بالايلاف »(٥) . وعندما فتحت مكة وقبلت ثقيف الدخول في الاسلام ، رجحت كفة ميزان القوى تماما لصالح الرسول الكريم وجماعة المسلمين ، الذين أصبحوا يشكلون بالفعلدولة قوية تملأ معظم الفراغ السياسيفي جزيرة العرب آنذاك. ويلغت قوة هذه الدولة الذروة في عهد الرسول (ص) بعد غزوة تبوك عام ٩ هـ ، وما واكبها من نزول سورة التوبة ، التي تضمنت بيان براءة الذي أعلن في موسم حج ذلك العام ،مؤكدا الغاء الاتفاقات والمعاهدات التيكان الرسول قد عقدها مع مشركي القبائل العربية وبخاصة بعد صلح الحديبية(٦) .

ويعتبر بيان براءة على جانب كبير من الخطورة في تحديد موقف المسلمين من عرب الجزيرة العربية بصفة خاصة ، وغيرهم من الامم والشعوب بصفة عامة ، اذ اشتمل هذا البيان على عدة أمور أهمها :

١ ــ التبرؤ أو الغاء كافة المعاهدات التي عقدها المسلمون مع المشركين من قبائل العرب(٧) .

٢ ــ اعطاء هذه القبائل مهلة مدتها أربعة شهور لمراجعة موقفهمالجديد ،وليس أمامهم بعد ذلك سوى طريقين ، الدخول في الاسلام أو القتل(٨) .

٣ ــ الدخول في الاسلام يعني في الدرجة الاولى اقامة الصلاة وأداء الزكاة ، « فان تابوا وأقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، فخلوا سبيلهم ، ان الله غفور رحيم . »(٩) ويكونون بعد ذلك اخوان المسلمين في الدين .

٤ ــ تحذير المسلمين من مغبة انتقاض المشركين عليهم وابادتهم ، « كيف وان يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاّ ولا ذمة »(١٠)« لا يرقبون في مؤمن إلاّ ولا ذمة . وأولئك هم المعتدون »(١١) .

٥ ــ يجب على المؤمنين أن لا يخشوا بأس مشركي القبائل العربية ، بل يجب عليهم أن يقاتلوهم ، وأكد الله ان المشركين لا يعجزوه . وانه سوف ينصر المؤمنين عليهم . « أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه ان كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ، وينصركم عليهم . »(١٢)

٦ ــ اعتبار رابطة الايمان والاسلام فوق رابطة الدم والقرابة والقبلية ، وهي أيضا فوق المصالح المالية والاقتصادية التي قد تتأثر بالبراءة ، وقطع جميع العلاقات مع المشركين. « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، احب

اليكم من الله ورسوله ، وجهاد في سبيله ، فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين .»(١٣)

٧ – عدم السماح لأي مشرك بالحج بعد العام التاسع للهجرة (١٤).

٨ – التحذير من المنافقين وبعض الاعراب الذين يتربصون الدوائر بالمسلمين(١٥) .

٩ – قتال أهل الكتاب ومن يجاور المسلمين من الكفار حتى يقبلوا الدخول في دين الاسلام الحق ، أو يؤدوا الجزية(١٦) .

١٠ – استمرار واجب الجهاد على المسلمين ، وهو فرض كفاية في حالة الخروج للجهاد في سبيل نشر دعوة الاسلام . « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ، لينذروا قومهم اذ رجعوا اليهم .»(١٧)

ومبادى هذا البيان العنيف نقطة تحول كبرى في تاريخ الدعوة الاسلامية ودولتها في المدينة ، وهو التحول الذي أعاد الرسول الكريم تأكيده في حجة الوداع في العام التالي . ويرى شوفاني ان سورة التوبة ، « تمثل قدرة الرسول على فرض مطالبه على القبائل . . . فأذعنت القبائل الضعيفة ، وقبلت على مضض أداء الزكاة (التي يسميها شوفاني جزية !) أما القبائل قوية البأس ، فقد تحدت الانذار ، وحملت السلاح ، اذ بينما تقاطرت الوفود الى المدينة عام ١٠هـ ، نجد الاسود العنسي في اليمن، وطليحة في بني أسد ، ومسيلمة في اليمامة ، يعلنون العداء لمحمد وحلفائه ودينه في حياته .»(١٨)

وهكذا نجد في بيان براءة تحديد النهج والاسلوب الذي انتهجه الرسول الكريم ، ومن بعده خليفته أبو بكر الصديق ، في مواجهة أدعياء النبوة والمرتدين عن الاسلام ، أو الذين امتنعوا عن أداء الزكاة . وقد لاحظ كثير من الباحثين المحدثين ان أدعياء النبوة كانوا يمثلون حركات قبلية سعت الى الاحتفاظ بسيادتها بعيدا عن تبعيتها للمدينة ، وكانوا يقيمون في مناطق لم تدخل في نطاق نفوذ دولة المدينة في أواخر عهد الرسول الكريم مثل بعض مناطق اليمن وعمان ونجد . كما أن هذا النفوذ لم يكن راسخا في مناطق اخرى مثل مضارب بني أسد وغطفان وطيء(١٩) ، مما جعل هذه المناطق تشكل جيوبا ، استغلها أولئك الادعياء في اعلان نبوءاتهم ذات الاهداف السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وقد استعرض الياس شوفاني في كتابه «الردة وفتح المسلمين للجزيرة العربية» (Al-Riddah and the Muslim conquests of Arabia) وضع جزيرة العرب في

أواخر عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . وذهب الى أن المصادر الاسلامية أشارت الى كثرة وفود القبائل العربية على المدينة في أعقاب فتح مكة معلنة قبولها الاسلام ، لكن هذه المصادر لم توضح التزامات تلك القبائل نحو المدينة باستثناء تحدثها عن اجازات الوفود ، وأضاف ان وجهة نظر اسلامية تقليدية ترتبت على ذلك ، مؤداها أن الرسول الكريم استطاع قبيل وفاته أن يوحد جزيرة العرب في دولة واحدة(٢٠) . ونوه شوفاني الى أن معظم الباحثين الغربيين يعارضون هذه الفكرة ، ومن هؤلاء كارل بيكر Carl Becker الذي أفاد بأن الرسول (ص) لم يوحد من الجزيرة العربية سوى الحجاز ، وقال انه حتى الوحدة الحجازية هذه ، كانت ترتبط بالمصلحة أكثر منها بالاخوة الدينية ، أما قبائل وسط الجزيرة مثل غطفان وباهلة وطيء وأسد وغيرها ، فكان ارتباطها غير قوي مع الرسول ، وانها قد تكون قد قبلت جزئيا الاسلام ، وكذلك الحال بالنسبة لجانب من أهل اليمامة ، في حين لم يكن للقبائل في جنوب وشرق جزيرة العرب أي ارتباط بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولخص شوفاني آراء ليوني كيتاني (Leone Caetani) حول علاقات القبائل العربية مع الرسول الكريم ، والتي أوردها في كتابه دراسة في تاريخ الشرق (Studi di Storia Orientali) وقد قسم كيتاني القبائل العربية في جزيرة العرب الى اربعة أقسام هي :

١ ــ القبائل الضاربة حول المدينة ومكة ، وهذه قبلت بالاسلام وخضعت للنبي (ص).

٢ ــ قبائل خضعت لسياسة الرسول ، وأحرز الاسلام فيها بعض التقدم ، مثل : هوازن ، عامر ، طيء ، سليم ، وربما خثعم .

٣ ــ القبائل المقيمة على تخوم دولة المدينة ، وهذه خضعت للمدينة سياسيا ، وقيل عنها تجوزا انها دخلت في الاسلام .

٤ ــ قبائل ظلت مستقلة عن المدينة ، وكانت بينها أقليات صغيرة تطلعت الى نيل مساعدة الرسول ضد أعدائها ، وهذه القبائل مثل بني حنيفة ، عبد القيس ، أزد عمان ، وحضرموت(٢١) .

وتعتبر آراء عبد العزيز الدوري التي ضمنها كتابه « مقدمة في تاريخ صدر الاسلام » ، قريبة من الآراء السابقة ، فهو يرى عدم دقة الروايات العربية التي تذهب الى أن « الجزيرة كلها أسلمت في حياة الرسول ، وخضعت للمدينة ، ثم ارتدت أو تزعزعت بعد وفاته » ويقول : « ان الردة نشأت عن خوف القبائل الوثنية من توسع سلطان المدينة ، وعن معارضة قبائل مسلمة لفكرة الخضوع للمدينة ، وعن رغبة البعض الآخر في انهاء هيمنة المدينة المتمثلة في معاهدات عقدتها مع الرسول ، وعن العصبية القبلية بصورة عامة ، وعن المحافظة الدينية .... وهناك بعض قبائل لم تخضع

سياسيا ولا دينيا للرسول ، مثل بعض القبائل في اليمامة . . . ، ولا ينبغي أن ننسى أن نجاح الرسول ، والوعي الذي كونته دعوته ، ووجود العصبية مسؤولة كثيرا عن ظهور الانبياء الكذابين . . . وربما كان للناحية القبلية الاثر الاول في ظهورهم . »(٢٢)

كذلك يقترب من هذه الآراء عبد المنعم ماجد في كتابه « التاريخ السياسي للدولة العربية » ، والذي يؤكد فيه « ان الوحدة السياسية لعرب الجزيرة جميعا لم تقم في أي وقت ، وليس لدينا سند تاريخي واحد يشير الى قيامها في زمن النبي . . . وان كان من المحتمل انه عند موت النبي ، وبيعة ابي بكر بالخلافة ، كان قد تكوّن في المنطقة الوسطى من الحجاز حكومة واحدة ، تشتمل على مكة والمدينة وبعض القبائل المجاورة، أما الجزء الاكبر من قبائل الجزيرة فلم يكن خضوعها لنفوذ المدينة الا خضوعا اسميا مظهره ارسال الوفود ، وايتاء الزكاة . »(٢٣)

ويقابل هذه الآراء ما يذهب اليه مؤرخون محدثون تبنوا وجهة النظر الاسلامية التقليدية ، والتي تقول ان الرسول الكريم أنشأ دولة في المدينة بدأت بمنطقة صغيرة ، ثم اتسعت حتى شملت جميع الجزيرة العربية . ومن هؤلاء ، محمد حميد الله في كتابه « نبي الاسلام » (Le Prophete de l'Islam) ومحمد الخضري في كتابه « تاريخ الامم الاسلامية » ، ومحمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » ، وشكري فيصل في كتابه « حركة الفتح الاسلامي »(٢٤) .

أما مونتغومري واط (Montgomery watt) فقد جمع في كتابه « محمد في المدينة » (Muhammad at Medina)، بين آراء من سبق من المستشرقين ، وبين آراء المؤرخين المسلمين التقليديين . وذهب الى أن القبائل التي كانت تقيم بجوار المدينة ومكة ، كانت مرتبطة بمحمد (ص) ارتباطا وثيقا ، وكذلك القبائل المقيمة في وسط الجزيرة وعلى طول الطريق المؤدي الى العراق ، وان لم يخل الامر من الشذوذ ، وكان في اليمن وسائر الجنوب الغربي للجزيرة العربية ، عدد من الجماعات المخالفة ، غير أنها لم تكن تؤلف ربما أكثر من نصف السكان . وكانت النسبة أقل في الجنوب الشرقي ، كما أن المحاولات لفصل القبائل الضاربة على طول الطريق الى بلاد الشام عن الامبراطور البيزنطي لم تلق سوى قليل من النجاح . وهكذا لم ينجح محمد (ص) تماما في توحيد شبه الجزيرة العربية ، غير انه فعل أكثر مما ينسب اليه علماء أوروبا الشكاك . يضاف الى ذلك ان تأثيره الشخصي جعل له من القوة والسلطة أكثر مما تخوله الاتفاقات الشكلية ، وذلك بالنسبة لشؤون القبائل المتحالفة معه على قدم المساواة . وكانت هناك ثغرات ، ولكنها فيما عدا الجنوب الغربي لم تكن خطيرة . فلقد أقيم هيكل بناء الوحدة، وأصبح بامكان القبائل الدخول فيه ، وبالفعل ، فقد دخل فيه الكثير من القبائل ،وكان بامكان غيرها اللحاق بها بسهولة(٢٥) » .

وقد يسمح البحث هنا باضافة وجهة نظر أخرى ، وهي أن مسألة مدى سيادة الرسول الكريم على الجزيرة العربية قبيل وفاته ، يمكن أن تتضح بعد الاشارة الى مفهومين :

الاول : مفهوم السيادة عند الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهو مرتبط بسيادة الشرع أكثر من ارتباطه بشخص الحاكم . فالذي يهم الرسول الكريم من الناس هو اعلان اسلامهم ، والقيام بأركان الاسلام وأهمها ، بعد الايمان بالله وبرسوله ، الصلاة والزكاة ، بالاضافة الى الصوم والحج للقادرين عليهما جهدا ومالا ، ولا يهمه بعد ذلك السيطرة أو الهيمنة السياسية بمفهومها الغربي أو الشرقي . فهو مثلا كان يقر كل حاكم أو ملك على حكمه وملكه اذا أعلن قبوله الدخول في الاسلام ، ولم يتدخل قط في تغيير رأس النظام السياسي اذا قبل الاسلام(٢٦) . وكان يشترط كما أسلفنا أن تؤخذ الزكاة من أغنياء كل قبيلة أو قوم وتنفق على فقرائهم . فالسيادة هنا أشبه ما تكون اسمية ، ما دام الاسلام نافذا . ونرى شيئا قريبا من مفهوم السيادة هذا في «الصحيفة» أو دستور المدينة الذي نظم من خلاله الرسول الكريم العلاقة بين المسلمين وسكان المدينة بعد الهجرة . فقد أبقى على استقلال كل عشيرة أو قبيلة ، وكان الرسول نفسه لا يتدخل الا في الامور التي تهدد وحدة الجماعة ، وأمن المدينة الذي اعتبر الدفاع عنه مسؤولية جماعية حتى من قبل غير المسلمين ، ما داموا يعيشون معهم في كيان واحد . مما جعل الدكتور حسين مؤنس يطلق على هذا التدبير المحمدي وصف النظام الاتحادي أو الكونفدرالي(٢٧) .

ومن هنا فقد قبل الرسول الكريم اسلام العديد من وفود القبائل العربية ، التي استمرت تفد الى المدينة منذ صلح الحديبية ، وحتى قبيل وفاة الرسول عام ١١ هـ/ ٦٣٢ م . واعتبر ذلك سيادة للاسلام دون أي اعتبار آخر .

اما المفهوم الثاني : فهو ان الرسول الكريم عقد بالفعل قبل نزول سورة التوبة ، اتفاقيات ومعادات مع قبائل ظلت على وثنيتها أو اشراكها ، وذلك لاعتبارات أملتها ظروف الصراع وطبيعته مع قريش ، كما تبين ذلك بوضوح في صلح الحديبية الذي سمح لقريش والمدينة بحرية تكوين الاحلاف وعقد المعاهدات ، مما يفهم منه أن سيادة الاسلام لم تكن تشمل جميع أجزاء الجزيرة العربية حتى ذلك الوقت ، وان بعض القبائل العربية كان يربطها بحكومة المدينة نوع من التحالف المصلحي لا الديني .

لكن الوضع تغير أو انقلب تماما بعد غزوة تبوك ، حيث نزلت في اثنائها سورة التوبة التي تضمنت براءة الرسول والمسلمين من المشركين ، وضرورة اعتناق جميع

القبائل العربية الاسلام والالتزام بتكاليفه من صلاة وزكاة ،والا واجهت القتل والابادة. وهو ما أعلن في موسمي الحج عامي ٩ هـ ، ١٠ هـ على التوالي .

وهنا ادركت كثير من القبائل العربية خطورة الموقف ، وجدية الانذار الاسلامي ، فأقبلت على المدينة تعلن استسلامها واسلامها ، في حين قبلت بعض القبائل الاخرى التحدي ، وظنت في نفسها القوة والمقدرة على مواجهة المسلمين ، والاحتفاظ بسيادتها المطلقة ، وعصبيتها القبلية المتميزة ، وشجعها على ذلك ما حققه الرسول الكريم من نجاح في رسالته ودعوته .وهو ما حدا بزعماء بعضها الى‌ادعاء النبوة(٢٨)، علهم يدركون أو يحققون نجاحا مماثلا ، لكنهم فشلوا في تحقيق هذا الهدف .

غير ان الموقف في جزيرة العرب عاد الى التأرجح بعد عودة الرسول الكريم الى المدينة من حجة الوداع أواخر عام ١٠ هـ / أوائل ٦٣٢م ، عندما بدت على النبي صلى الله عليه وسلم اعراض المرض ، ثم عوفي لفترة قصيرة . ويروى عن ابي مويهبة قوله : انه « لما رجع رسول الله عليه السلام (من الحج) طارت الاخبار بأنه قد اشتكى ، فوثب الاسود باليمن ومسيلمة باليمامة »(٢٩) ولحق بهما طليحة الاسدي فكان « آخر من ارتد وادعى النبوة في حياة الرسول »(٣٠) . وهذا يعني أن بعض القوى في الجزيرة العربية كانت ترقب باهتمام متزايد اخبار الرسول الكريم ، وكل ما يستجد من أحداث في دولته (٣١)، كما يدل على ذلك ظاهرة تربص هذه القوى بما فيها الكثير من القبائل العربية ، ومحاولة استغلال أي أحداث سلبية في المدينة لصالحها . ومن هذه الاحداث بدء شكوى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم مرضه الذي توفي على اثره في شهر ربيع الاول عام ١١هـ/٦٣٢م ، واختلاف المسلمين في المدينة حول اختيار خليفة له ، وهو ما تمثل في سقيفة بني ساعدة .

وقد شجعت هذه الاحداث على ظهور المتنبئين والمرتدين ، وتربص المنافقين واليهود والنصارى داخل الجزيرة ، اضافة الى بعض القبائل التي تصفها المصادر تقدم رجلا وتؤخر اخرى(٣٢) ، حتى ان بعض تلك القبائل كان كما وصفه أبو بكر الصديق « لا عليك ولا لك ،متربص دائرة السوء ، ينظر لمن تكون الدبرة ،فيميل مع من تكون له الغلبة »(٣٣) ، فأصبح المسلمون والحالة هذه يواجهون موقفا حرجا وصعبا اذ « ارتدت العرب ، إما عامة وإما خاصة في كل قبيلة ، ونجم النفاق واشرأبت اليهود والنصارى ، والمسلمون كالغنم في الليلة المطيرة الشاتية ، لفقد نبيهم صلى الله عليه وسلم ، وقلتهم ، وكثرة عدوهم »(٣٤) . وقد صور أبو الهيثم بن النبهان الانصاري هذا الوضع بعد وفاة الرسول الكريم في أبيات معبرة قال فيها (٣٥):

تكلم أهل الشرك من بعد غلظة لغيبة هاد كان فينا ومهتدي
فان يك هذا اليوم منهم شماتة فلا يأمنوا ما يحدث الله في غد

وقد أشار القرآن الكريم الى هذا الوضع ، وحذر في أكثر من آية من ظهور أدعياء النبوة والمرتدين. قال تعالى: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ،أو قال أوحي اليّ، ولم يوح اليه شيء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله »(٣٦) وقال « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفئن مات أو قتل ، انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزي الله الشاكرين »(٣٧).

ولعل نذر هذا الوضع في جزيرة العرب قبيل وفاة الرسول الكريم هي التي جعلت النبي صلى الله عليه وسلم يحذر المسلمين قبيل وفاته من الفتن القادمة(٣٨) ، ومن أدعياء النبوة الكذابين(٣٩) ، وضرورة الاستعداد لمواجهة هذه الفتن والحركات . وكان في مقدمة تلك الفتن ظهر عدد من أدعياء النبوة ، وارتداد بعض القبائل العربية عن الاسلام ، وامتناع البعض الآخر عن أداء الزكاة . وقد بدأت مواجهة المسلمين لهذه الفتن في الايام الاخيرة من حياة الرسول الكريم ابان مرضه ، « فلم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والذّب عن دينه»(٤٠) . ثم أكمل أبو بكر الصديق المواجهة وحقق النصر للاسلام والمسلمين على ما هو معروف ومشهور ، وكان طليحة الاسدي أول من قوتل من أدعياء النبوة .

طليحة بن خويلد الاسدي

ينتسب طليحة بن خويلد الى بني أسد ، احدى قبائل مضر . وهي قبيلة ذات بطون كثيرة منها بنو فقعس الذين ينحدر طليحة منهم ، فهو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة بن الاشتر بن جحوان بن فقعس بن طريف بن عمرو بن قعين بن الحارث ابن دودان بن أسد بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان(٤١). واسمه الاصلي طلحة ولكنه صغر الى طليحة من قبل المسلمين ، وذلك من باب الازدراء وتقليل الشأن ، بعد ارتداده وادعائه النبوة .ويروي الكلاعي صاحب الاكتفاء ان «خالد ابن الوليد وقف من عسكر طليحة غير بعيد ، ثم قال : ليخرج اليّ طليحة ، فقال أصحابه : لا تصغر اسم نبينا وهو طلحة »(٤٢) . ويكنى طليحة بأبي حبال، وكان خطيبا وشاعرا وسجاعا كاهنا ناسبا ، على حد وصف الجاحظ له . وقد اعتبر من أشجع العرب ، حتى قيل انه كان يعدل الف فارس(٤٣) . وقد عرف عنه اعتزازه بعروبته ، وتعصبه لقبيلته الذي ربما كان اهم عامل في ادعائه النبوة ،لاحراز نجاح مماثل لما احرزه النبي القرشي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم (٤٤).

بنو أسد وعلاقتهم بالمدينة :

ولعل من المفيد أن نكوّن فكرة عن موضع قبيلة أسد ومكانتها وعلاقتها بالرسول الكريم ودولته في المدينة ، باعتبار ذلك مدخلا يساعد على الوقوف على أسباب ارتداد طليحة وتنبئه . فقد كانت قبيلة أسد تنتشر في منطقة واسعة من أرض نجد تبدأ من جبال شمر ، وتمتد الى ما ورائها باتجاه الفرات ، أي انها كانت تقيم في منطقة تقع شمال شرق المدينة(٤٥) . وكانت قبائل أخرى تعيش في هذه المنطقة أيضا ، مثل غطفان المضرية ، وطيء اليمنية . وقد غلب التحالف أو العداء على العلاقات بين هذه القبائل، فحين حالفت أسد غطفان ، نجد أن هذا التحالف كان ينافس طيئا ويعاديها ، وقد حكم ذلك الوضع علاقاتها مع بعضها البعض من ناحية ، وعلاقاتها مع الكيانات المجاورة لها مثل دولة المسلمين في المدينة ، من ناحية أخرى . وقد تميزت هذه العلاقات بالتوتر مع الجانبين ، اذ نجد بني أسد تطمع في الاغارة على المدينة بعد هزيمة المسلمين في غزوة أحد ، فوجه اليهم الرسول الكريم سرية بقيادة أبي سلمة عبد الله بن عبد الاسد المخزومي . ونجحت في احباط هذا الهجوم(٤٦) . كما شاركت قبيلتا أسد وفزارة في غزوة الخندق ضد المسلمين ، فقاد طليحة بن خويلد قوات بني أسد ، في حين تزعم عيينة بن حصن قوات فزارة(٤٧). وقد بدأ عدد من قبيلة طيء المعادية لبني أسد يدخلون في الاسلام لقربهم النسبي من المدينة ،مما زاد في طمع بني أسد وعدائها لطيء ، فكتب الرسول الكريم كتابا الى بني أسد يحذرهم فيه من الاعتداء على طيء والاقتراب من مياههم وأرضهم ، وخاطب بني أسد قائلا : « أما بعد ، فلا تقربنّ من مياه طيء وأرضهم ، فانه لا تحل لكم مياههم ، ولا يلجنّ أرضهم الا من أولجوا ، وذمة محمد بريئة ممن عصاه »(٤٨).

استمر التوتر قائما بين بني أسد والمسلمين حتى أعلنت أسد اسلامها في عام الوفود ، في السنة التاسعة من الهجرة ، عندما قدم المدينة وفد من بني أسد ضم عشرة أشخاص ، فيهم طليحة بن خويلد ، وضرار بن الازور ، وحضرمي بن عامر ، « فقال متكلم : يا رسول الله ، انا شهدنا أن الله وحده ، لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله ، وجئناك يا رسول الله ولم تبعث الينا بعثا ، ونحن لمن وراءنا (٤٩)». فأنزل الله على رسوله : « يمنون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا عليّ اسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للايمان ، ان كنتم صادقين »(٥٠).

وكان اسلام بني أسد في تلك الفترة نتيجة طبيعية ، بعد فتح مكة، واسلام ثقيف، وتزايد قوة الدولة الاسلامية بعد غزوة تبوك . فأدركت أسد وكثير غيرها من قبائل العرب ، أن مصلحتها تقضي باسلامها واستسلامها للقوة الاسلامية المتنامية في الحجاز، والتي أصبحت تشكل أكبر قوة عسكرية ضاربة في الجزيرة العربية .

عوامل تنبؤ طليحة :

لكن اسلام بني أسد لم يستمر طويلا ، اذ ما لبث طليحة بن خويلد زعيم بني أسد أن ارتد وادعى النبوة ، فكان « آخر من ارتد ، وادعى النبوة في حياة الرسول ، وأول من قوتل بعد وفاته »(٥١) . وقد تضافرت جملة أسباب شجعت طليحة على اتخاذ هذا الموقف الجديد أهمها :

١ ـ بدء مرض الرسول الكريم الذي انتهى بوفاته ، اذ ظن طليحة أن دعوة الاسلام سوف تنتهي بوفاته ، وان فراغا سياسيا سوف ينشأ بعده ، فأسرع الى اعلان نبوته عله يحرز نجاحا مماثلا للنجاح الذي حققه النبي صلى الله عليه وسلم من خلال دعوته .

٢ ـ قيام الاسود العنسي ومسيلمة الكذاب الحنفي ، بادعاء النبوة في قومهما في اليمن واليمامة ، مما شجعه على أن يحذو حذوهما ، متخذا التنبؤ وسيلة لجمع الاتباع والانصار ، وزيادة القوة والهيبة والعصبية .

٣ ـ اشتغال طليحة الاسدي بالكهانة والسجع قبل الاسلام ، وما عرف عنه وعن قومه من اشتهارهم بالعيافة،وهي زجر الطير والاعتبار بأسمائها ومساقطها وأصواتها، للتخرص على الغيب(٥٢) ، والقيافة ، وهي قيافة الاثر والاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين الى المشاركة والاتحاد في النسب والولادة وسائر أحوالهما(٥٣)، والكهانة ، وهي الاخبار عن الكائنات في المستقبل ، وضرب الحصباء ، والخط في الرمل ومعرفة ما يدل عليه(٥٤) . فضلا عن شيوع الفصاحة فيهم ، حتى قيل عن بني أسد « عافة قافة فصحاء كافة »(٥٥).

وتحدثنا المصادر أن وفد بني أسد الى النبي صلى الله عليه وسلم ، قد سأله عن هذه الامور التي كانوا يمارسونها قبل الاسلام ، وان الرسول الكريم قد نهاهم عن ممارستها(٥٦) . ويبدو أن بعضهم قد تأصلت فيه هذه الممارسة بحكم العادة، وظل يمارسها حتى بعد القضاء على ردة بني أسد وعودتها الى الاسلام ، كما فعل طليحة بن خويلد الاسدي نفسه ، في أثناء تجمع العرب المسلمين في نهاوند(٥٧).

٤ ـ رغبة بني أسد وحلفائها في الاحتفاظ باستقلالهم وأموالهم ،ورفض تبعيتها لدولة المسلمين في المدينة . وقد تمثلت هذه الرغبة حين عرض طليحة على الرسول الكريم الموادعة ، اي عقد اتفاقية سلام بينهما ، الامر الذي رفضه النبي صلى الله عليه وسلم(٥٨) . وحين رفض بنو أسد وغطفان بمن فيهم فزارة ، الاعتراف

فيما بعد بخلافة أبي بكر الصديق ، اذ قالوا : «لا نبايع أبا الفصيل أبدا» تصغيرا لشأن الصديق (٥٩) . اضافة الى حث طليحة الاسدي اتباعه على قتال قوات المسلمين ، حتى يمنعوا القوم أموالهم كما كانوا يمنعونها قبل الاسلام(٦٠) .

حيله وغواياته ، إسجاعه ودعوته :

وهكذا حملت هذه العوامل أو بعضها طليحة بن خويلد الاسدي على التنبؤ والارتداد ، فادعى أنه رسول مبعوث من قبل الله ، وان ملكا يأتيه يسمى « ذا النون »، وقيل جبرائيل أو جبريل ، واخذ يسجع للناس ،ويتكهن لهم ، «فتبعه كثير من العرب عصبية ، فلهذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء »(٦١) . في حين أعجب بعضهم بسجعه وكهانته وظنوا ذلك من دلائل النبوة . ويذكر الديار بكري ان « أول ما صدر عنه ، وكان سببا لضلال الناس ، انه كان مع قومه في سفر ، فأعوزهم الماء ، وغلب العطش على الناس . فقال : اركبوا أعلالا ، واضربوا أميالا ، تجدوا بلالا ، ـ واعلال اسم فرس له ـ . فعلوا فوجدوا الماء ، فكان ذلك وقوع الاعراب في الفتنة »(٦٢) . وأورد ابن أعثم الكوفي هذا الخبر مع بعض الاختلاف في السجع ، اذ أجاب طليحة أصحابه بعد أن سألوه عن حيلة للعثور على الماء ، فقال : « نعم اركبوا علالا ، واضربوا أميالا ، وجاوزوا الرمالا ، وشارفوا الجبالا ، ويمموا التلالا ، تجدوا هناك قلالا »(٦٣). فذهب أحد بني أسد الى هذا المكان فعثر على الماء ، ورجع الى قومه فأخبرهم ، « فمضوا الىذلك الموضع ،فأسقوا ،وازدادوا فتنة الى فتنتهم بطليحة بن خويلد»(٦٤).

واذا كان مثل هذا الخبر يدخل في باب الكهانة ، فانه غير بعيد على طليحة أن يكون عارفا لذلك الموضع ووفرة الماء فيه .

ومما استغوى به طليحة أتباعه أيضا ، انه « بعث عيونا له حيث سار خالد بن الوليد من المدينة مقبلا اليهم ، قبل أن يسمع بذكر خالد ، وقال لاصحابه :

« ان بعثتم فارسين على فرسين أغرين محجلين ، من بني نصر ابن قعين ، أتوكم من القوم بعين». فأرسل بنو أسد فارسين فلقيا عينا لخالد بن الوليد فأخبرهما بقدوم المسلمين الى قومهما ، فأحضرا ذلك العين الى طليحة فزادهم ذلك فتنة به ، كما زادت ثقة طليحة بنفسه فقال لهم : « الم أقل لكم ! »(٦٥) . وقد أعجب أصحابه به وبكلامه المسجوع حتى قال له أحدهم : « أشهد انك نبي حقا ، فليس هذا الا من كلام الانبياء ! »(٦٦) . وربما كان فحوى هذا الخبر يدل على فراسة طليحة وتوقعه هجوما من المسلمين ، يسبقه كالعادة عيون وطلائع .

وقيل أيضا ان ضرار بن الازور مبعوث الرسول الكريم الى عماله على بني أسد، ضرب طليحة ضربة قوية بسيفه القاطع فلم تؤثر فيه ، فأشيع بين الناس أن السلاح لا يعمل فيه ، فزادت فتنتهم فيه وكثر جمعه (٦٧). ولا تعدو مثل هذه الخارقة كما يقول شوقي أبو خليل أن يكون طليحة متدرعا بدرع يحميه ، ولكنه كان يخفيه تحت ثيابه (٦٨). ولا بد ان يكون الجاحظ قد كشف أمر هذه الحيل والغوايات في كتابه المفقود « الفرق بين النبي والمتنبي » ، والذي « ذكر فيه جميع المتنبئين ، وشأن كل واحد منهم على حدته ، وبأي ضرب كان يحتال »(٦٩) .

ومهما يكن من أمر هذه الحيل والغوايات ، فقد استطاع طليحة بها ان يستقطب عوام بني أسد وغطفان وفزارة وطيء وهوازن ، الا ما كان من خواص الاقوام في بعض هذه القبائل(٧٠) الذين ثبتوا على اسلامهم ، فقتل بعضهم وعاد البعض الآخر الى المدينة، فأخبروا أبابكر بانتشار أمر طليحة الاسدي وتفاقم خطره .

وقبل أن نتطرق الى موقف المسلمين من حركة طليحة ، نحاول النظر في دعواه لمعرفة شيء عن مبادئه أو ادعاءاته ، كما نستقيها مما نسب اليه من أقوال وأسجاع وما روي عنه من أخبار . فقد شهد طليحة نفسه لخالد بن الوليد لما دعاه الى الايمان بالله وحده ، وبمحمد رسوله ، والعود الى الاسلام ، شهد أن لا اله الا الله ، ولكنه أقر أيضا بأنه هو نفسه أي طليحة رسول الله « وانه مرسل يأتيه ذو النون ، كما كان جبريل يأتي محمدا». أي ان طليحة اعتبر نفسه رسولا مثل الرسول الكريم محمد بن عبد الله، دون أن ينفي نبوة محمد صلى الله عليه وسلم »(٧١) . وقد يكون اعترافه بنبوة محمد، جاء متأثرا بموقف مسيلمة الحنفي المماثل ، حتى يتجنب الاثنان عداوة المسلمين .

ولعل الشيء الجديد الملفت للنظر هو الغاء طليحة الركوع والسجود في الصلاة ، والاكتفاء بذكر الله قياما وقعودا . ويتضح ذلك من قوله لاصحابه عندما أقبل المسلمون في قوات خالد بن الوليد ، يلهجون بالصلاة والدعاء قبيل ملاقاتهم جموع طليحة في بزاخة : « لا يهولنكم من انضم الى خالد بن الوليد من هذا الجيش ، فانهم على باطل وغرور ، واخرى ، فانهم قد لهجوا بهذه الصلاة ، فهم يظنون انهم محسنون ، ولقد أتاني جبريل يخبرني عن ربي ، انه ليس يحتاج الى تعفير وجوهكم ، وقبح أدباركم ، ولا يريد منكم ركوعا ولا سجودا . وانما يريد منكم أن تذكروه قياما وقعودا»(٧٢). وقد يكون طليحة قد تأثر في هذه الدعوة ، باشارة مماثلة وردت في القرآن الكريم حيث يقول تعالى « إن في خلق السماوات والارض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والارض، ربنا ، ما خلقت هذا باطلا ، سبحانك، فقنا عذاب النار»(٧٣). وربما كادت دعوة طليحة

لتخفيف مراسم أداء الصلاة ، مستمدة من صلوات أهل الكتاب التي تخلو طقوسها العادية من الركوع والسجود . اذ عرفت الجزيرة العربية النصرانية واليهودية والمجوسية وبخاصة في الاجزاء الشمالية والشمالية الشرقية من بلاد العرب بالاضافة الى اليمن(٧٤). وقد يكون طليحة قد تأثر بمسيلمة الحنفي ، وسجاح التميمية ، اللذين سبقاه في ادخال تعديلات على مراسم أداء الصلاة وعددها ، اذ خفضاها من خمس صلوات في اليوم الى ثلاث ، وهو أمر كان شائعا وممارسا لدى المجوس واليهود(٧٥) .

كذلك فان الاخبار التي تتعلق بالمفاوضات التي جرت بين وفود من قبائل العرب، بما فيها بنو أسد وغطفان وهوازن وطيء ، وبين أبي بكر الصديق ، تشير الى مراجعة هذه القبائل موقفها من دولة المسلمين في المدينة وسعيها الى التوصل الى اتفاق جديد معها تقر فيه بالصلاة ، مع اعفائها من الزكاة ، الا أن أبا بكر رفض هذه المساومة واعتبرها انتقاضا لعرى الدين على ما أسلفنا . ومن هنا كانت حركة طليحة تدعو الى اسقاط الزكاة(٧٦) ، بالاضافة الى التخفيف من مراسم أداء الصلاة وعددها(٧٧) .

وتضمنت ادعاءات طليحة الاسدي أيضا نبوءات تؤكد لاتباعه والمؤمنين به، ازدياد قوتهم . واتساع ملكهم حتى يبلغ العراق والشام . فكان يقسم لاصحابه قائلا : « والحمام واليمام ، والصرد الصوام ، قد صمن قبلكم بأعوام ، ليبلغن ملكنا العراق والشام »(٧٨). وفي ذلك تقليد واضح لما كان يبلغه من وعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بأن الله سيفتح عليهم هذين القطرين وينزع عنهما ملك فارس والروم(٧٩) .

أما بقية أقوال طليحة ، فلا تمدنا بأي اشارات أخرى عن مبادىء دعوته سوى عبارة غامضة نسبت اليه ، يقول فيها : « الملك الجبار نصفه ثلج ونصفه نار » (٨٠). وربما يتعلق هذا القول بتصوره للخالق جل وعلا . أما أقواله الاخرى فانها تتعلق باستعداده الحربي لمواجهة المسلمين كما يتضح فيما بعد .

استعداد المسلمين لمواجهة حركته :

أما كيف واجه المسلمون حركة طليحة الاسدي وادعاءه النبوة ، فقد رفض الرسول الكريم دعوته الكاذبة ، عندما أرسل طليحة أخاه وقيل ابن أخيه حبال ، الى الرسول يدعوه الى الموادعة ويخبره خبره ، وبأنه صار نبيا مثله . ويبدو أن مبعوث طليحة حاول التوصل الى نوع من المسالمة والاتفاق مع النبي صلى الله عليه وسلم ، الا أن شيئا من ذلك لم يتم ، وفشلت مهمة حبال في تحقيق هذا الهدف(٨١) .

وبرغم ما كان يعاني منه الرسول الكريم من آلام المرض ، الا أن ذلك لم يشغله عن أمر الله والذبّ عن دينه ، « ولظّ طليحة ومسيلمة بالرسل . . . ، ووجه ضرار بن الازور الى عماله على بني أسد في ذلك ، وأمرهم بالقيام على كل من ارتد»(٨٢) ، لكن ضرار وعمال الرسول على بني أسد ، لم يستطيعوا تنفيذ هذه المهمة ، بسبب افتتان عامة بني أسد بطليحة خاصة بعدما أشيع أن السيف لا يؤثر فيه ، وبعد أن عرضت عليه القبائل المجاورة مثل طيء وغطفان وفزارة النصرة والتأييد ، لما كان بينهم قبل الاسلام من حلف ، حتى قال عيينة بن حصن زعيم بني فزارة : « والله لأن نتبع نبيا من الحليفين ــ أي من أسد وغطفان ــ أحب الينا من أن نتبع نبيا من قريش ، وقد مات محمد ، وبقي طلحة ، فطابقوه على رأيه . . . ، فلما اجتمعت غطفان على المطابقة لطليحة هرب ضرار وقضاعي وسنان ، ومن كان قام بشيء من أمر النبي صلى الله عليه وسلم في بني أسد الى أبي بكر ، وارفضّ من كان معهم ، فأخبروا أبا بكر الخبر وأمروه بالحذر »(٨٣) ولا شك أن وفاة الرسول الكريم في هذا الوقت بالذات قد أضعفت موقف المسلمين في بني أسد ، واضطرتهم الى الانسحاب من مرابع تلك القبيلة والعودة الى المدينة .

موقف أبي بكر :

وكانت أولى المهام الصعبة التي واجهها أبو بكر الصديق خليفة الرسول (ص) : هو العمل بسرعة وشدة وحزم للقضاء على حركة طليحة الاسدي ، واستعادة هيبة المسلمين ودولتهم في مناطق الردة والنبوءات الكاذبة ، وهو ما تم بالفعل من خلال قوة ايمان أبي بكر وعزيمته وكفاءته وبعد نظره .

وقد لخص الكلاعي في كتابه الاكتفاء ، معظم ما أشارت اليه المصادر الاخرى عن صعوبة الموقف الذي واجهه ابو بكر الصديق بعد وفاة الرسول الكريم ، حيث ارتد جانب من العرب عن الاسلام ، وتمرد معظمهم على سيادة المدينة ،ورفض البعض الآخر القبول بخلافة أبي بكر ، وامتنعت غالبيتهم عن اداء الزكاة .وفي ذلك يقول :« ان العرب افترقت ، فقالت فرقة (عن الرسول الكريم) : لو كان نبياً ما مات ، وقال بعضهم : انقضت النبوة بموته ، فلا نطيع أحدا بعده ، وفي ذلك يقول قائلهم :(٨٤)

اطعنا رسول الله ما كان بيننا	فيالعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً اذا مات بعده	فتلك وبيت الله قاصمة الظهر

وقال بعضهم : نؤمن بالله . وقال بعضهم : نؤمن بالله ونشهد ان محمدا رسول الله ونصلي ، ولكن لا نعطيكم اموالنا »(٨٥). واضاف الغساني صاحب كتاب الخذلان

الى ذلك ، أن « بعض العرب ارتد خشية أن يصبح تابعا من أتباع المدينة ، وبعض ارتد عن الاسلام ، وما يأمر به من صلاة وزكاة وصيام ووضوء ، وعاد يعكف على الاوثان ، وبعض ادعى النبوة حقدا على قريش ، وحسدا أن يظهر فيها نبي »(٨٦). وقد أشرنا كيف أن باقي القبائل العربية وقفت تتربص ، تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، وتراقب الوضع وتنتظر ، ريثما ينجلي الموقف فتميل مع الكفة الراجحة (٨٧)، وهو أمر ينسحب على كثير من مواقف القبائل البدوية ، ابان المعارك الحاسمة التي وقعت على مقربة منهم .

وكانت بعض القبائل ومنها بنو أسد ، قد أرسلت وفودا الى المدينة ، لتنظيم علاقاتهم الجديدة مع أبي بكر ، والاتفاق معه على أعفائهم من فريضة الزكاة . « فلم يقبل ذلك منهم وردهم »(٨٨) . وكان بين هؤلاء الاقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن زعيم فزارة وغطفان ، وقد عرضا على أبي بكر أن يعطيهما مالا مقابل اقناع القبائل التي يمثلانها بالتخلي عن ارتدادها ومنعها الزكاة ، والعودة الى الاسلام ، وهو أمر رفضه أبو بكر أيضا ، رغم أن عددا كبيرا من كبار الصحابة كان يرى ضرورة مهادنة مانعي الزكاة ، واعفائهم منها لمدة سنة حتى يقوى أمر المسلمين ويتمكنوا من قتال القبائل العربية المتمردة أو الممتنعة عن أداء الزكاة . واستطاع أبو بكر بقوة ايمانه وحجته أن يقنع معارضيه بوجهة نظره وقال لهم : « انكم قد علمتم انه كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم اليكم المشورة ، في ما لم يمض فيه أمر من نبيكم ، ولا نزل به الكتاب عليكم ، وان الله لن يجمعكم على ضلالة ، واني سأشير عليكم ، فانما انا رجل منكم ، تنظرون فيما أشير به عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجتمعون على أرشد ذلك ، فان الله يوفقكم . وأما انا ، فأرى أن ننبذ الى عدونا ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وأن لا نرشوا على الاسلام احدا ، وان نتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنجاهد عدوه كما جاهدهم ، والله لو منعوني عقالا لأسلبن أجلهم عليه حتى آخذه . فائتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيي . وأما قدوم عيينة وأصحابه اليكم فهذا أمر لم يغب عنه عيينة ، هو منه ثم جاء له . ولو رأوا ذباب السيف لعادوا الى ما خرجوا منه ، أو أفناهم السيف فالى النار ، قتلناهم على حق منعوه وكفر ، فبان للناس وجه أمرهم . قالوا لابي بكر لما سمعوا رايه : انت أفضلنا رأياً ، ورأينا لرأيك تبع ، فأمر أبو بكر الناس بالتجهز ، وأجمع على المسير بنفسه لقتال أهل الردة »(٨٩).

وهذا الوصف الشامل الذي أورده الكلاعي والغساني ، يرينا وجهة نظر أبي بكر وبعد تفكيره ، حيث كان « يرى في منع الزكاة نقضا للدين كله فلم يهادن في الصغير من الامر ، لانه باب الكبير منه »(٩٠) . على حد وصف مسيلمة الحنفي له . ومن هنا كان اصراره على التمسك بالاسلام كاملا ، عقيدة وشريعة ، وضرورة مجاهدة أعدائه ،

وايمانه بسياسة القوة التي تعيد المتنبئين والمرتدين الى الاسلام . كما يوضح عدم استئثاره برأيه ومشورته المسلمين ، السعي الى التوصل الى رأي موحد في مواجهة الخطر الجديد . وقد ادرك كبار الصحابة فيما بعد صحة رأي أبي بكر وأثنوا على موقفه ، فقال عمر بن الخطاب : « والله لرجح ايمان أبي بكر بايمان هذه الامة جميعا، في قتال أهل الردة»(٩١) . وقال عبد الله بن مسعود : « لقد قمنا بعد الرسول صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا أن نهلك فيه ، اجتمع رأينا جميعا على أن لا نقاتل على بنت مخاض وابن لبون ، وأن نأكل قرى عربية ، ونعبد الله حتى يأتينا اليقين ، وعزم الله لابي بكر على قتالهم ، فوالله ما رضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية ، فأما الخطة المخزية فأن يقروا بأن من قتل منهم في النار ، ومن قتل منا في الجنة ، وأن يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم ، وأن ما أخذوا منا مردود علينا ، وأما الحرب المجلية فأن يخرجوا من ديارهم »(٩٢). وقالت عائشة : « توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل بأبي ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها ، إشرأب النفاق بالمدينة ، وارتدت العرب ، فوالله ما اختلفوا في واحدة الا طار بحظها وغنائها عن الاسلام»(٩٣) . ونسب الى أبي هريرة قوله في ذلك : « لولا أبو بكر ، لهلكت أمة محمد عليه السلام بعد نبيها »(٩٤) .

وهكذا اجتمعت كلمة المسلمين على قتال المتنبئين وأهل الردة . وأمر أبو بكر المسلمين بالتجهز للقتال ، وأعاد ترتيب قواته من جديد بعد عودة جيش أسامة بن زيد من تخوم بلاد الشام . ووجه خالد بن الوليد على رأس جيش معظمه من المهاجرين والانصار مع قوات اسلامية أخرى من طيء وبجيلة ، وزوده بتعليمات وأوامر واضحة ذكرت في كثير من المصادر (٩٥) وتتضمن ما يلي :

١ ــ الجد في قتال المرتدين .

٢ ــ أن لا يقاتل قوما حتى يعذر اليهم ويدعوهم الى الاسلام ، ويبين لهم الذي لهم في الاسلام ، والذي عليهم « وليعذر الى من دعا بالمعروف وبالسيف » .

٣ ــ أن لا يقبل من أحد شيئا الا الاسلام .

٤ ــ القضاء على من ينتصر عليه من المرتدين بأن « يقتلهم بالسلاح . ويحرقهم بالنار، ولا يستبق منهم احدا ، قدر على أن يستبقيه . ويقسم اموالهم وما أفاء الله عليه وعلى المسلمين الا خمسه » .

٥ ــ أن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وأن لا يضم الى قواته الا من يثق به ويعرفه، حتى لا يكونوا عيونا على المسلمين ولا يؤتى المسلمون من قبلهم .

ولم يكتف أبو بكر بذلك بل ارسل كتابا عاما موحدا لا يخرج محتواه عن هذه التعليمات الى جميع المرتدين بمن فيهم طليحة الاسدي وقومه(٩٦) .

وأهم ما يلاحظ في هذه التعليمات ، هو الشدة المتناهية التي امر بها أبو بكر خالدا في معاملة أهل الردة ، بما في ذلك القتل والاحراق بالنار ، وهي شدة اتبعها أبو بكر نفسه مع الفجاءة ، بجير بن اياس بن عبد الله السلمي ، بعد أن زوده أبو بكر بسلاح وفرس، فخرج يعترض الناس ويقتل المسلمين والمرتدين دون تفريق بينهم(٩٧). كما أمر ابو بكر بقطع ايدي وأرجل نسوة بالنجير وهو حصن في حضرموت، شمتن بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم(٩٨) . وتتمشى هذه السياسة مع ايمان أبي بكر بضرورة استخدام القوة والعنف مع أعداء المسلمين من الاعراب ، لانهم « لو رأوا ذباب السيف لعادوا الى ما خرجوا منه » على حد قوله . وربما لجأ الى مثل هذه السياسة لارهاب المرتدين الاخرين وحملهم على الاستسلام السريع ، فضلا عما في ذلك من تأكيد لهيبة الاسلام ودولته وخليفته ،الذي ظنوا فيه التخاذل والضعف حتى أسموه «أبا الفصيل» . واذا كانت بعض المصادر مثل فتوح البلدان للبلاذري ، لم تذكر وصية أبي بكر لخالد ابن الوليد التي تضمنت احراق المرتدين بالنار ، وأشارت بعض روايات البلاذري الى انتقاد خالد على انتهاج هذه السياسة ، مما يوحي بانه المسؤول عنها ، فان ذلك ربما قيل لاسراف خالد بن الوليد في تنفيذ سياسة أبي بكر الصديق ، كما حدث مع بني يربوع وبني حنظلة ، وبني سليم ، وربما كان ذلك أيضا من باب الشفقة التي يثيرها عادة العنف والشدة ، على من تنفذ ضدهم ، ومع ذلك فقد أقر أبو بكر الصديق هذه السياسة ،ورفض رأي منتقدي خالد قائلا : «لا أشيم سيفا سله الله على الكفار »(٩٩). مهما يكن من أمر فقد كان لهذه السياسة أثر كبير في القضاء على حركات المتنبئين والمرتدين .

موقعة بزاخة :

وهكذا حارب ابو بكر المرتدين والمتنبئين بالرسل ، أي بتوجيه رسائل الانذار والتأليب كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالاضافة الى تجهيز القوات العسكرية للقضاء على تلك الحركات وأصحابها(١٠٠) . وكان من رأي أبي بكر أن يبدأ المسلمون بقتال طليحة الاسدي(١٠١) . ويبدو أن ذلك راجع الى قرب منازله وحلفائه من طيء وفزارة وغطفان من المدينة المنورة وتهديدهم لها .تقدمت قوات خالد بن الوليد التي يقدرها أحمد عادل كمال بأربعة آلاف ،في حين يقدرها شوقي أبو خليل بستة آلاف مقاتل ، تقدمت لمواجهة قوات طليحة التي قدرت أيضا بخمسة آلاف مقاتل ، بينهم

سبعمائة من فزارة بقيادة عيينة بن حصن الفزاري (١٠٢) ، فيما لاحت في الافق بوادر تحول في الموقف لصالح المسلمين . وتمثل ذلك في تمكن أبي بكر والمسلمين في المدينة من هزيمة تجمع قبلي من عبس وذبيان شمال المدينة مما اضطر فلولهم الى الانضمام الى قوات طليحة ، في حين أوقع المسلمون هزيمة مماثلة بجموع أخرى من بني فزارة وغطفان على مقربة من ذي القصة قرب المدينة ، مما أشاع الذعر في نفوسهم ، حتى قال خارجة بن حصن الفزاري : « ويل للعرب من ابن أبي قحافة »(١٠٣) . ويبدو أن هذه البوادر كانت وراء نجاح عدي بن حاتم الطائي في اقناع قومه الانسحاب من تحالفهم مع طليحة والانضمام الى قوات المسلمين(١٠٤) . وقد حدث في أثناء تقدم قوات خالد بن الوليد لمصادمة طليحة ، أن قتل الاخير طليعة استكشافية للمسلمين ضمت عكاشة بن محصن وثابت بن أقرم ، مما ذاد من نقمة المسلمين وتحفزهم لقتال طليحة وحلفائه .

أما طليحة فقد جمع قواته في بزاخة وهي موضع ماء لبني أسد في نجد ، واتخذ بيت شعر مقرا لقيادته ، حيث تلفف في كساء له بفناء البيت ، وقيل ضربت له قبة من أدم وأصحابه حوله معسكرون ، وجعل يتنبأ لهم ، ويشجع أنصاره من بني أسد وفزارة وغطفان على مواجهة المسلمين ويقول لهم : «أمرت أن تصنعوا رحى ذات عرى ، يرمي بها من رمى ، يهوي بها من هوى »(١٠٥) . وقال « والقرد والنيرب ، ليقتلن النيدب ، اذا صر اخوكم المندب ، والله لا انسحب ، ولا نزال نضرب حتى ينتج أهل يثرب » (١٠٦) . كما نسب اليه قوله : « والسائرات خببا ، والراكبين عصبا ، على قلائص صهب وحمر ، لأجمعن شملا ، ولأبددن شملا»(١٠٧) . وقال لانصاره عندما أقبل خالد بن الوليد في قواته على بني أسد : « لا يهولنكم من انضم الى خالد بن الوليد من هذا الجيش ، فانهم على باطل وغرور . . . . فانظروا أن تمنعوا القوم أموالكم ، كما منعتموها في جاهليتكم »(١٠٨) .

ويحدثنا الكلاعي أن خالدا طلب من طليحة أن يخرج اليه قبل القتال ، فلما خرج قال خالد : « ان عهد خليفتنا الينا ان ندعوك الى الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن تعود الى ما خرجت منه ، فنقبل منك ونغمد سيوفنا عنك . فقال طليحة : يا خالد ، أنا أشهد أن لا اله الا الله ، وأني رسول الله ، واني مرسل يأتيني ذو النون كما كان جبريل يأتي محمدا »(١٠٩) .

المواجهة الحاسمة :

وهنا أصبح القتال بين الجانبين امرا لا مفر منه ، فطلب عدي بن حاتم الطائي من خالد بن الوليد « أن يجعل قومه مقدمة أصحابه ، فقال (خالد) : يا ابا طريف ان الامر

قد اقترب ، وانا اخاف ان اقدّم قومك ، فاذا لحمهم القتال انكشفوا ، فانكشف من معنا ، ولكن دعني أقدم قوما لهم سوابق ونيات وهم من قومك . قال عدي : الرأي ما رأيت ، فقدم المهاجرين والانصار »(١١٠) . ثم عقد الوية لمجموعات المقاتلين المسلمين، فسلم اللواء الاعظم الى زيد بن الخطاب ، ولواء الانصار الى ثابت بن قيس بن شماس، ولواء طيء الى عدي بن حاتم الطائي »(١١١) . ويحدثنا صاحب الاكتفاء أن خالدا اخذ يسوي صفوف أصحابه راجلا ، فيما أخذ طليحة يسوي صفوف أصحابه على راحلته، ثم بادر خالد بقواته الى الزحف على قوات طليحة ، فلما دنا المسلمون منهم ، خرج طليحة بأربعين فارسا من خيرة جنده ، فأغاروا على ميمنة القوات الاسلامية ، ثم عطفوا على الميسرة ، فتضعضع المسلمون وانهزموا ، فدعا احد الطائيين خالدا الى الانسحاب والالتجاء الى جبلي سلمى وأجا القريبين من طيء للاحتماء بهما ، فرفض خالد الانسحاب وأصر على القتال والنصر قائلا : «بل الى الله الملجأ» . واقتحم بفرسه يقاتل جموع طليحة ويحث المسلمين على الثبات والصبر في مجاهدة عدوهم ، معرضا نفسه للخطر ، حتى وجه اصحابه اللوم اليه باعتباره قائد المسلمين ، حتى لا يتفرقوا بعده ، واستمر في المصاولة والقتال حتى لم يبق من أولئل الاربعين أحد ، « وقاتل خالد يومئذ بسيفين حتى قطعهما » . فتراد الناس بعد الهزيمة واشتد القتال ، وأخذ المسلمون يضغطون على قوات طليحة وينزلون فيها خسائر فادحة . فلما رأى عيينة بن حصن تغير الموقف لصالح المسلمين ، « أتى طليحة وهو ملتم في كسائه ، فقال : لا أبا لك ! هل اتاك جبريل بعد ؟ فقال طليحة وهو تحت الكساء : لا والله ما جاء بعد ، فقال عيينة : « تبا لك سائر اليوم . ثم رجع عيينة فقاتل ، وجعل يحض أصحابه وقد ضجوا من وقع السيوف ، فلما طال ذلك على عيينة ، جاء طليحة وهو مستلق متشح بكسائه فجبذه جبذة جلس منها ، وقال له : قبح الله هذه من نبوءة ، ما قيل لك بعد شيء ؟! فقال طليحة : قد قيل لي : ان لك رحى كرحاه ، وأمرا لا تنساه ، فقال عيينة: اظن قد علم الله أنه سيكون لك أمرا لن تنساه ، يا بني فزارة ، هكذا ، وأشار لها تحت الشمس ، هذا والله كذاب ، ما بورك له ولا لنا في ما يطالب ، فانصرف وانصرفت فزارة »(١١٢) ، حيث وقع عيينة في أسر المسلمين وأرسلوه الى أبي بكر فاستتابه واسلم وعفا عنه .

هزيمة بني اسد :

وقد حاول طليحة الاسدي أن يتلافى أثر انسحاب عيينة مع بني فزارة من المعركة فقال لاصحابه : « أما عيينة بن حصن ، فقد خبرني عنه جبريل ، انه خاف من حرب القوم ، وايم الله ، لو كانت له نية صادقة لما خاف من احد أبدا اذا كان على هذا الدين »(١١٣) . لكن هذا التبرير لم يفد كثيرا في تغيير مصير المعركة التي رجحت فيها

كفة المسلمين ، وخاصة بعد أن تمكن خالد بن الوليد من قتل صاحب راية طليحة الحمراء ، فانهزم أصحابه عنه وتفرقوا عنه ، فقال لهم : « ويلكم ما يهزمكم ؟! فقال رجل منهم : أنا أخبرك ، انه ليس منا رجل الا وهو يحب أن صاحبه يموت قبله ، وانا نلقى قوما كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه »(١١٤).

ويحدثنا ابن أعثم الكوفي انه « لما انهزم أصحاب طليحة ، قالت نوار زوجته لهم: أما انه لو كانت لكم نية صادقة لما انهزمتم عن نبيكم ، فقال لها رجل منهم : يا نوار ، لو كان زوجك هذا نبيا حقا لما خذله ربه . فلما سمع طليحة ذلك صاح بامرأته : ويلك يا نوار اقتربي مني ، فقد اتضح الحق وزهق الباطل ، ثم استوى طليحة على فرسه وأردف امرأته من ورائه ، وفر منهزما مع من انهزم »(١١٥)، وقال لمن بقي من أصحابه: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل ، ثم ولى هاربا حتى لحق بالشام ، وأرفض جمعه »(١١٦) .

وقد وقع عدد من أتباع طليحة في الاسر ، فحفر لهم خالد بن الوليد اخدودا واضرم فيه النار،ثم القاهم فيها،وكان ممن ألقي فيالنار حامية بن سبيع بن الخشخاش الاسدي ، وهو الذي ارتد بعد أن عينه الرسول الكريم على صدقات قومه ،كما أحرقت أيضا امرأة واحدة من بني أسد هي أم طليحة ، عرض عليها الاسلام فأبت. الا أن خالدا لم يحرق أحدا من بني فزارة ، فلما سئل عن تحريق الاسرى قال : « هذا عهد الصديق أبي بكر الى قواده في كل مجمع » . ويبدو أن هذا الاجراء قد احدث فزعا شديدا فيبقية بني أسد وغطفان من الرجال والنساء ، فهموا للهرب على وجوههم ، الا ان خالد بن الوليد طمأن من عاد الى الاسلام منهم ، وأمنهم على حياتهم وأموالهم ، بعد أن تعهدوا له باقامة الصلاة وايتاء الزكاة .ولم يأخذ منهم سبي « ونادى خالد : من أقام فهو آمن، فأقام الناس كلهم ، وأمن من أقام »(١١٧) .

ولم يشمل هذا الامان بطبيعة الحال المرتدين الذين غدروا بالمسلمين الذين كانوا بين اظهرهم وقتلوهم ، واشترط على بني أسد وغطفان وطيء أن يأتوه بهم ، حتى يبايعهم على العودة الى الاسلام والوفاء بالتزاماته ، فأتوه بهم ، « فمنهم من حرقه بالنار ، ومنهم من رضه بالحجارة ، ومنهم من رمى به من شواهق الجبال ، كل هذا ليعتبر بهم من يسمع بخبرهم من مرتدة العرب »(١١٨) . وامتدت اقامة خالد في بزاخة شهرا في طلب هؤلاء ، والاخذ بثأر من قتلوا من المسلمين ، وفقا لما وصاه به أبو بكر الصديق (١١٩) .

وقد بث خالد بن الوليد بعد انتصاره في بزاخة السرايا لتتبع المرتدين من أسد وغطفان ، ففرت جماعات منهم ، وأتت خالد مقرة بالاسلام ، في حين خشي فريق منهم

القدوم على خالد حتى لا ينكل بهم ، وتوجهوا الى أبي بكر في المدينة ، يعرضون عليه الاستسلام والصلح ، فقال لهم أبو بكر : « اختاروا بن خصلتين ، حرب مجلية ، أو سلم مخزية ، فقال خارجة بن حصن : هذه الحرب المجلية قد عرفتها ، فما السلم المخزية ، قال : أن تقروا أن قتلانا في الجنة ، وأن قتلاكم في النار ، وأن تردوا علينا ما أخذتم منا ،ولانردعليكم ما أخذنا منكم شيئا ، وأن تدوا قتلانا كل قتيل مائة بعير ، منها أربعون في بطونها أولاد ، ولا ندي قتلاكم ، ونأخذ منكم الحلقة والكراع ، وتلحقون بأذناب الابل حتى يري الله خليفة نبيه والمؤمنين ما شاء فيكم ، أو يرى منكم اقبالا الى ما خرجتم منه » (١٢٠) . وقد وافق هذا الفريق على ذلك ، الا أن أبا بكر أعفاهم بناء على اقتراح عمر بن الخطاب من ديات قتلى المسلمين لانهم شهداء وأجرهم على الله ، وأخذ أبو بكر عليهم العهد والميثاق بالتزام بالاسلام وفرائضه وقراءة القرآن وتعليمه أولادهم ونساءهم .وقد تم تجريدهم فعلا من أسلحتهم التي ردها اليهم عمر بن الخطاب بعد رسوخ الاسلام في مناطق المرتدين .

وكان لموقعة بزاخة نتائج بعيدة المدى بالنسبة لمستقبل دولة المسلمين في المدينة ومصير حركات الردة والتنبؤ الكاذب في جزيرة العرب . ولعل أول نتائج هذه الموقعة بالنسبة للمسلمين انها قوت هيبة دولتهم في المدينة ومكانتها في بلاد العرب ، وعززت ثقة المسلمين بأنفسهم ، وباحراز مزيد من الانتصارات على أعدائهم . اضافة الى تعزيز ثقتهم بخليفتهم والتفافهم حوله . خاصة وهو صاحب الرأي الاول في قتال المرتدين والمتنبئين . أما بالنسبة لمصير باقي المرتدين والمتنبئين ، فقد تحدد بشكل قاطع بعد هذه الموقعة ، فكان عليهم اما أن يسارعوا الى العودة الى حظيرة الاسلام ، ويجنبوا أنفسهم القتل والتنكيل والتحريق بالنار ،واما أن يستعدوا لمواجهة غير عادية ،ويثبتوا على موقفهم حتى الموت . وقد اختارت معظم قبائل العرب باستثناء بني حنيفة الخيار الاول ، اذ « جعلت العرب تسير الى خالد راغبة في الاسلام ، وخائفة من السيف ،... فأتته عامر وغطفان يدخلون في الاسلام ويسألونه الامان على مياههم وأموالهم ، وأظهروا له التوبة ، وأقاموا الصلاة وأقروا الزكاة ، فأمنهم خالد وأخذ عليهم العهود والمواثيق ليبايعن على ذلك أبناءهم ونساءهم »(١٢١). ويروي الطبري ان القبائل من سليم وهوازن وبني عامر « لما أوقع الله بطليحة وفزارة ما أوقع ، أقبل أولئك يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ، ونؤمن بالله ورسوله ، ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا »(١٢٢) . وخلص شوفاني الى القول « بأن موقعة بزاخة أدت الى خضوع جميع وسط نجد للمدينة لأول مرة »(١٢٣) . فكانت بذلك الخطوة الحاسمة الاولى نحو توحيد الجزيرة العربية وربطها فكرا وادارة ومصيرا بدولة المسلمين في المدينة المنورة .

عودة طليحة الى الاسلام :

وتفيد رواية أوردها الطبري أن طليحة عندما انهزم في بزاخة ، ولى هاربا حتى التجأ الى قبيلة كلب في شمال غرب الجزيرة العربية،وانه خلال اقامته هناك بلغه اسلام بني أسد وغطفان وعامر ، فأسلم ، « ثم خرج نحو مكة معتمرا في امارة أبي بكر ، ومر بجنبات المدينة ، فقيل لأبي بكر : هذا طليحة ، فقال : ما أصنع به ، خلوا عنه ، فقد هداه الله للاسلام ، فمضى طليحة نحو مكة فقضى عمرته »(١٢٤).

ويقول ابنأعثم الكوفي ان طليحة الاسدي لما علم بأن أبا بكر عفا عن عيينة بن حصن الفزاري ، وقرة بن هبيرة العامري ، « ندم على ما كان منه أشد الندامة ، ثم انه وجه الى أبي بكر رضي الله عنه من الشام كتابا مع بعض النوادر ، فلما انتهى الى أبي بكر كتابه وقرىء عليه ، رق له أبو بكر رقة شديدة ، وعلم انه قد ندم على ما كان منه ، وجعل طليحة بن خويلد يتقدم في الرجوع الى دار الاسلام ويتأخر الى أن توفي أبو بكر »(١٢٥) . ويورد اليعقوبي رواية قريبة من فحوى خبر ابن أعثم ، مؤداها أن طليحة الاسدي « لحق بعد هزيمته بالشام وجاور بني جفنة ، وبعث بشعر الى أبي بكر يعتذر اليه ، ويراجع الاسلام يقول فيه :

فهل يقبل الصديق أني مراجع ... ومعط بما أحدثت من حدث يدي
وأني من بعد الضلالة شاهد ... شهادة حق لست فيها بملحد

فرق له أبو بكر ، وبعث اليه فرجع » . ويقول اليعقوبي ان عودة طليحة كانت يوم وفاة أبي بكر ، اي انه لم يدرك أبا بكر الصديق(١٢٥) . أما البلاذري ، فيروي أن « المسلمين لما قدموا الشام وجهوا به الى أبي بكر وهو مسلم »(١٢٦) .

ويستفاد من هذه الروايات أن طليحة أسلم ، وانه قدم الى المدينة في أواخر عهد أبي بكر وأوائل عهد عمر بن الخطاب ، ويروى ان عمر قال لطليحة : « انت الكاذب على اللهحين زعمت انه انزل عليك ان اللهلا يصنع بتعفير وجوهكم وقبح أدباركم شيئا، فاذكروا الله أعفة قياما ، فان الرغوة فوق الصريح؟!»(١٢٧) وقال له عمر : «ويحك قتلت الرجلين الصالحين عكاشة بن محصن وابن اقرم . فقال : ذانك رجلان سعدا بي ، ولم أشق على أيديهما ،وقد رزق الله الاسلام ،وكنت يومئذ فتى ضلال ، وانا اليوم شيخ اسلام، فقال له عمر فعلت وفعلت وفعلت ، وقلت وقلت ، ، فقال : ان ذلك من فتن الكفر الذي هدمه الاسلام كله ، فلا تعنيف علي ببعضه ، فأسكت عمر رضي الله عنه »(١٢٨). وقيل أن عمر اعجب بمقالة طليحة فقربه وادناه (١٢٩).

ومشاركة طليحة في الفتوح :

وقد رأى عمر بن الخطاب أن يوجه طليحة بن خويلد الاسدي، مع غيره ممن حسن اسلامه بعد الردة الى جبهة العراق ، حيث كان العرب المسلمون يخوضون معارك حاسمة ضد جموع الفرس . فبعث طليحة مع سعد بن أبي وقاص الى العراق ، وأمره أن لا يستعمله(١٣٠) ، وانما يستفيد من خبرته وشجاعته المعروفة في القتال . وقد أبلى في ذلك بلاء حسنا تحدثت عنه الرواة ، وبخاصة في معركتي القادسية ونهاوند . فقد ذكر الدينوري أن سعد بن أبي وقاص ، بعث طليحة الاسدي قبيل بدء معركة القادسية في جمع ليأتيه بخبر القوم أي الفرس ، « فلما عاينوا سوادهم ، ورأوا كثرتهم ، قالوا لطليحة : انصرف بنا . فقال : لا ، ولكني ماض حتى أدخل عسكرهم وأعلم علمهم ، فاتهموه وقالوا : ما نحسبك تريد الا اللحاق بهم . وما كان الله ليهديك بعد قتلك عكاشة ابن محصن ، وثابت بن اقرم ، فقال لهم طليحة : ملأ الرعب قلوبكم . وأقبل طليحة حتى دخل عسكر الفرس ليلا ، فلم يزل يجوسه ليلته كلها ، حتى اذا كان وجه السحر ، مر بفارس يعد بألف فارس ، وهو نائم وفرسه مقيد ، فنزل ففك قيده ، ثم شد مقوده بثفر فرسه ، وخرج من المعسكر . واستيقظ صاحب الفرس ، فنادى في أصحابه وركب في أثره ، فلحقوه وقد اضاء الصبح ، فبدر صاحب الفرس اليه .. فقتله طليحة ، ولحقه فارس آخر فقتله طليحة ، ولحقه ثالث فأسره طليحة ، وحمله على دابته ، وأقبل به نحو عسكر المسلمين ، فكبر الناس ، ودخل على سعد . وأخبره الخبر »(١٣١).

وتمثل هذه الرواية صورة فذة من جراة طليحة وشجاعته ، التي تجلت أيضا في اثناء القتال في القادسية ، حيث ضرب الجالينوس أحد كبار قادة الفرس ضربة قدت مغفره ، ولم تعمل في رأسه ، كما أسهم مع عمرو بن معدي كرب الزبيدي ، وقرط بن جماح العبدي ، في قتل رستم القائد الاعلى لقوات الفرس في المعركة (١٣٢) . ولم ينفرد طليحة بمثل هذه الجراة والشجاعة ، وانما شاركه فيها مقاتلو بني أسد وغيرهم من قبائل العرب المسلمين ، اذ تصدت بنو أسد لدرء خطر أفيال الفرس في اليوم الاول من المعركة ، وسقط منهم خمسمائة شهيد من الالاف الثلاثة التي شاركت بنو أسد فيها في القادسية(١٣٣) . ويروي الطبري ان سعد بن ابي وقاص قائد المسلمين في تلك المعركة استنفر بني أسد لاغاثة مقاتلي بني بجيلة من خطر الفيلة التي كاد أن يقضي عليهم . فقام طليحة في قومه حين استصرخهم سعد فقال : « يا عشيرتاه ، ان المنوه باسمه الموثوق به ، وان هذا – اي سعد – لو علم أن أحدا أحق باغاثة هؤلاء منكم استغاثهم ، ابتدؤهم بالشدة واقدموا عليهم اقدام الليوث الحربة ، فانما سميتم أسدا لتفعلوا فعله ، شدوا ولا تصدوا ، وكروا ولا تفروا ، لله در ربيعة ! أي فرى يفرون ! وأي قرن يغنون ، هل يوصل الى مواقفهم ، فاغنوا عن مواقفكم أعانكم الله ، شدوا عليهم باسم الله ... ،

فخرج طليحة بن خويلد ، وجمال بن مالك ، وغالب بن عبد الله ، والربيل بن عمرو في كتائبهم ، فباشروا الفيلة ، حتى عدلها ركبانها ، وان على كل فيل عشرين رجلا ، ... فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتى حبست الفيلة عنهم ، فأخرت ، وخرج الى طليحة عظيم منهم فبارزه ، فما لبثه طليحة أن قتله » . وقد أشاد الاشعث بن قيس الكندي ببطولة بني أسد ، وحث قومه على التأسي بهم(١٣٤).

وربما كان في مقدمة العوامل التي دفعت طليحة وبني أسد الى القيام بهذا الدور المشرف في الفتوح ، هو حرصها على ازالة وصمة الردة عن قبيلتهم ،والعمل على احراز مكانة مرموقة لها في المجتمع الاسلامي الجديد ، عن طريق الاستبسال في مواطن الجهاد وذلك « ليبلوا في الدين وليدركوا حظا » على حد قول سيف بن عمر التميمي(١٣٥). وهو أمر ينطبق على الروادف وباقي المرتدين الذين عادوا الى الاسلام مثل قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وقبائلهم . وجاء في رواية للبلاذري أن طليحة الاسدي كان على رأس الرجال ، أي المشاة في موقعة جلولاء ، حيث أبلى ومن شاركه من بني أسد بلاء حسنا في هذه الموقعة(١٣٦) .

ويحدثنا ابن أعثم الكوفي أن «النعمان بن مقرن ــ قاد المسلمين في موقعة نهاوند ــ أرسل بكير بن شداخ الليثي ، وطليحة بن خويلد الاسدي نحو أرض نهاوند ، وأمرهما أن يتجسسا الاخبار عن الفرس ، فمضيا جميعا ، فأما بكير بن شداخ ، فانه رجع الى المسلمين ، وأما طليحة بن خويلد ، فانه مضى وحده حتى تقارب من أرض نهاوند ، وتعرف أخبار الفرس ثم رجع . فلما دخل العسكر كبر المسلمون من كل ناحية ، فقال طليحة : ما هذا التكبير ! فقالوا : انك قد ابطأت علينا ، فظننا والله انك رغبت عن دين الاسلام ، وصرت الى دين هؤلاء الاعاجم ، فغضب طليحة بن خويلد من ذلك ، ثم قال : سبحان الله العظيم ، أويحسن هذا بمثلي ؟! والله لو لم يكن لي دين أعتمد عليه، الا أني عربي فقط ، ما كنت بالذي اختار هؤلاء الاعاجم على العرب ، فكيف وقد هداني الله عز وجل الى دين الاسلام ، وعرفني فضله»(١٢٧).

وكان عمر بن الخطاب قد كتب الى النعمان بن مقرن ، بأن يستشير طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي في شؤون الحرب ، لخبرتهما في القتال ، « فان كل صانع هو أعلم بصناعته »(١٣٨) . ويقول ابن أعثم ان النعمان « دعا بطليحة بن خويلد الاسدي ، فعقد له عقدا ، وضم اليه أربعة آلاف فارس من اهل البصرة والكوفة ، وجعله مقدمه . فسار طليحة بن خويلد على مقدمة النعمان بن مقرن ، وجعل يذكر ما كان منه بالقادسية ، وغيرها من الحروب المتقدمة ، ... وكان النعمان كلما رحل من موضع رحل طليحة على مقدمته »(١٣٩). وقد ساهم طليحة مع غيره من رجال الحرب

العرب المسلمين ، في وضع خطط معركة نهاوند مع قائدها الاول النعمان بن مقرن ،مما ساعد على انتصار المسلمين في هذه الموقعة الفاصلة ، التي عرفت بفتح الفتوح عام ٢١ هـ / ٦٤٢ م . وافاد البلاذري ان طليحة « كفى ناحية وكل بها »(١٤٠) . مما يدل على مساهمته الفعلية في هذه الموقعة .

وفاة طليحة :

وتفيد بعض المصادر أن طليحة الاسدي استشهد في موقعة نهاوند عام ٢١هـ(١٤١)، وأفاد ابن قتيبة انه دفن في موضع يقال له الاسفيذبان (من قرى أصفهان) ، وان قبره مع قبور عدد من شهداء نهاوند بينهم النعمان بن مقرن ، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي(١٤٢) . الا أن البلاذري يورد رواية تفيد أن طليحة امتد عمره بعد نهاوند حيث أرسله البراء بن عازب عامل قزوين من قبل والي الكوفة المغيرة بن شعبة ،مع خمسمائة رجل من المسلمين الى بلاد الديلم بعد اسلامهم ، وانه « أقطعهم أرضين لا حق فيها لأحد » . لكنه يذكر في رواية أخرى أن طليحة « شخص الى أذربيجان فمات هناك ، ويقال بل قدم فمات في قومه (بني أسد) والله أعلم »(١٤٣).

وبالرغم من أن جميع المصادر تذكر حسن اسلام طليحة الاسدي وجهاده وقومه مع المسلمين ، الا أننا نجد اشارات بعد اسلام طليحة تشير الى أنه لم يتخل تماما عن التكهن ومحاولات التخرص على الغيب ، وهي أمور اشتهر بها بنو أسد منذ ما قبل الاسلام . ويروي الطبري ، ان عمر بن الخطاب سأل طليحة الاسدي لما قدم المدينة مسلما ليبايعه بالخلافة : يا خدع ، ما بقي من كهانتك ؟ فقال له طليحة مازحا فيما يبدو : « نفخة أو نفختان بالكير »(١٤٤) . ويذكر في موضع آخر رواية أخرى عن محمد ابن قيس الاسدي : « أن رجلا يقال له جعفر بن راشد ، قال لطليحة وهم مقيمون على نهاوند ، لقد اخذتنا خلة ، فهل بقي من أعاجيبك شيء تنفعنا به ؟ فقال : كما أنتم حتى انظر ! فأخذ كساء فتقنع به غير كثير ، ثم قال : البيان البيان ، غنم الدهقان ، في بستان ، مكان أرونان . فدخلوا البستان فوجدوا الغنم مسمنة (١٤٥) . ويبدو أن عادة التكهن كانت قد استأصلت في الرجل وأصبحت لديه طبعا ثابتا ، مما يدخل في عادات العرافين ومحاولاتهم المألوفة في مثل هذه الحالات ؛ اذ تدل السيرة الاخيرة من حياته على حسن اسلامه وبلائه في ميادين الفتح والجهاد .

وربما كانت سيرة طليحة الاخيرة تكمل سيرته الاولى من حيث أن ادعاءه النبوة ؛ كان هدفا أراد به تحقيق مجد وحظوة وكيان شبيه بالمكانة والسلطان الذي حققه الرسول الكريم ، وسعى اليه المتنبئون الآخرون في جزيرة العرب ، فلما لم يكتب له النجاح في ذلك، بادر وقومه الى الدخول في الاسلام ، وجهد وجهدوا ليبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين الجديد وينالوا فيه حظا ومكانة . وقد تم ذلك لهم ، ولكثير غيرهم من المرتدين والروادف الذين دخلوا الاسلام في مرحلة متأخرة .

الحواشي :

(١) عبد العزيز الدوري : مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢) سورة الحاقة ، الآيات ، ٤٠ ـ ٤٢ .

(٣) سورة الطورة ، آيـة ٢٩ .

(٤) Eikelman, dale, F. , « Musaylima » JESOO , v. X, 1967, Leiden, P. 50 .
watt, Montgomery, w, Mohammad at Medina, Oxford 1956, J. 184 .

(٥) ابن حبيب ، المنمق في أخبار قريش ، حيدر اباد ـ الدكن ١٩٦٤ ، ص ٣١ ـ ٣٦ .

(٦) ابن هشام ، السيرة النبوية ، القاهرة ١٩٣٦ ، جـ ٤ / ص ١٨٨ ـ ١٩١ .

نبيه عاقل ، تاريخ العرب القديم وعصر الرسول ، ط ٣ ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٧ .

(٧) انظر سورة التوبة ، آية ١ ، ٢ .

(٨) سورة التوبة ، آية ٥ .

(٩) سورة التوبة ، آية ٥ .

(١٠) سورة التوبة ، آية ٨ .

(١١) سورة التوبة ، آية ١٠ .

(١٢) سورة التوبة ، آية ١٣ ، ١٤ .

(١٣) سورة التوبة ، آية ٢٤ .

(١٤) سورة التوبة ، آية ٢٨ .

(١٥) سورة التوبة ، الآيات : ٥٢ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ١٠١ .

(١٦) سورة التوبة ، آية ٢٩، ١٢٣ .

(١٧) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

(١٨) Soufany, Elias, Al-Riddah and MuslimConquest of Arabia, Beirut 1972, 45 - 46 .

(١٩) Ibid, pp. 77, 96 - 97.

Donner, Fred, Mc Graw, The Eary Islamic Conquests, Princeton University Press, New Jersy, pp. 85 - 86.

الدوري ، مقدمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ١٤٥ ـ ١٤٧ .

(٢٠) Shoufany, OP. eié p. 12 .

(٢١) Shoufany, OP. eié p. 12 .

(٢٢) الدوري ، مقدمة ، ص ٤٢ ـ ٤٣ .

(٢٣) ماجد ، التاريخ السياسي ، ص ١٤٥ .

(٢٤) Shoufany, OP. eié p. 12 .

وانظر أيضا : تاريخ الامم الاسلامية أ، ص ١٤٣ ، محمد حسين هيكل ، حياة محمد ، القاهـرة ١٩٦٣ ، ص ٤٨٠ ، شكري فيصل ، حركة الفتح الاسلامي في القرن الاول ، بيروت ، ص ١٢ .

(٢٥) Watt, OP. eit p. 149 .

وانظر : الترجمة العربية لكتـاب واط « محمـد في المدينة » ، (ترجمة شعبان بركات) ، صيدا ـ بيروت ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .

(٢٦) محمد حميد الله : مجموعـة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة (بيروت ١٩٧٥) الوثائق : ٣٧ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٧٦ . ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، صـادر (بيروت ١٩٦٥) ، ٢١٤/٢ (٢) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، صادر بيروت ١٩٥٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ج١ (ت المنجـد) القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٨٤ ـ ٨٧ .

(٢٧) حسين مؤنس ، عالم الاسلام ، دار المعارف (مصـر ١٩٧٢) ، ص ١٦٠ .

(٢٨) الدوري ، مقدمة ، ص ٤٣ .

(٢٩) الديار بكري : تاريـخ الخميس في أحـوال انفس نفيس (القاهرة ١٢٨٣ هـ) ، جـ٢/١٥٥ .

(٣٠) المصدر نفسه ، ص ١٦٠ .

(٣١) Donner, The early Islamic Conquests p. 82 .

(٣٢) تاريخ الطبري ، دار المعارف بمصر ١٩٦٠ ، جـ٣ / ٣٠٥ ، ابن أعثم الكوفي ، الفتوح (حيدر أبـاد ـ الدكن ١٩٦٨) ، جـ١ / ٥٥ . ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، خياط (بيروت ١٩٦٥) ص٢٧٥ سليمان بن موسى البلنسي الكلاعي ، الاكتفاء من مغازي رسول الله (ص) والثلاثة الخلفاء (مصور) جامعة الكويت ج١ رقم ٢٥٥ ، ج٢ رقم ٢٥٦ج٢ ، ١ب ، ٤ ، ٥ ب .

(٣٣) الاكتفاء ، ج٢ / ٢ أ .

(٣٤) تاريخ الطبري ، ج٣/٢٢٥ .

(٣٥) الاكتفاء : ج١/١٩١ ب .

(٣٦) سورة الانعام ، آية ٩٣ .

(٣٧) سورة آل عمران ، آية ١٤٤ .

(٣٨) تاريخ الطبري ، ج٣ / ١٨٦ ، ١٩٨ .

(٣٩) الحافظ المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي، مختصر صحيح مسلم ، الكويت ،ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ٢٩٥ ، حديث رقم ٢٠٢٤ . وانظر ، أحمد الغامدي : عقيدة ختم النبوة (الرياض١٩٨٥)ص٤٠.

(٤٠) تاريخ الطبري ، جـ٣ / ١٨٧ .

(٤١) البلاذري : انساب الإشراف (مصـدر دار الكتب المصرية) ، جـ ١٠ / ٧٣٠ ، ابـن حجـر العسقلاني ، الاصابة في تمييز الصحابـة ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ج٢/٢٤ ، ترجمة ٤٢٩٠ .

(٤٢) الكلاعي : الاكتفاء ، جـ٢ / ٤ أ ، ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، جـ٣/٢٤١ عمر بن شبـه : تاريخ المدينة المنورة (ت شلتوت) جدة ١٩٧٣ ، جـ ٢/ ٥٧٧ .
Blichfeldt, Jan-Olaf, Eary Mahdism , Leiden, E. J. Brill, 1985 p. 16.

(٤٣) الجاحظ ، البيان والتبيين (ت هارون) القاهرة ٣ ، ١٩٦٨ ، ج ٣٥٩/١ ، أنساب الاشراف ج ٧٣٠/١٠ ، تاريخ الخميس ، ج ١٦٠/٢ .

(٤٤) ابن أعثم : الفتوح ، ج ٤٤/٢ ، الدوري ، مقدمة في تاريخ صدر الاسلام ، ص ٤٣ .

(٤٥) أحمد عادل كمال: طليحة بن خويلد الاسدي، جدة ١٩٨١ ، ص ٤ .

(٤٦) المصدر نفسه ، ص ١٠-١١ ، المقريزي: امتاع الاسماع دار الانصار ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ١٧٠ .

(٤٧) أحمد كمال : طليحة بن خويلد ، ص ١٢ .

(٤٨) ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج١/٢٦٩ - ٢٧٠ .

Shoufany, OP. eit p. 33.
Watt, OP. eit p. 88.

(٤٩) تاريخ الطبري ، ج ٩٦/٣ ، الاكتفاء ، ج ١٦٦/١ ب ، الحلبي : انسان العيون في سيرة الامين المأمون ، القاهرة ١٩٦٤ ج٢٧١/٣ .

(٥٠) سورة الحجرات ، آية ١٧ .

(٥١) تاريخ الخميس ، ج٢ / ١٦٠ .

(٥٢) لسان العرب ، مادة عيف ، انسان العيون، ج٢٧٢/٣ ، العقد الفريد ، ج ٣٣٠/٣ .

(٥٣) حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، استانبول ١٩٤٠ ، ج٢ /١٣٦٦ ، والعقد الفريد ، ج٣٣٠/٣ .

(٥٤) انسان العيون ، ج ٢٧٢/٣ .

(٥٥) العقد الفريد ، ج٣٣٠/٣ .

(٥٦) الاكتفاء ، ج ١٦٦/١ ب ، انسان العيون ، ج٢٧٢/٣ .

(٥٧) تاريخ الطبري ، ج٤ / ١٢٥ .

(٥٨) تاريخ الطبري ، ج ١٨٧/٣ ، ابن الجوزي: الوفا باحوال المصطفى (ت عبد الواحد) القاهرة ١٩٦٦ ، ج ٧٦٤/٢ .

(٥٩) ابن أعثم : الفتوح ، ج١ / ١٤ ، ابن كثير، البداية والنهاية ، بيروت - الرياض ١٩٦٦ ج٢١٧/٦ والفصيل ولد الناقة اذ فصل عن أمه ، والبكر هو الفتي من الابل ، انظر : لسان العرب ، مادتي فصل ، بكر .

(٦٠) ابن أعثم : الفتوح ، ج١/١٢ - ١٣ .

(٦١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٣٤٤/٢ ، الاكتفاء ، ج٤/٢ أ ، ٤ ب، ابن خلدون : العبر، ج ٨٦٩/٢ ، ابن أعثم : الفتوح ، ج١/ ١٢ - ١٣ .

(٦٢) تاريخ الخميس ، ج ١٦٠/٢ .

(٦٣) ابن أعثم : الفتوح ، ج ١٣/١ .

(٦٤) المصدر نفسه والصفحة .

(٦٥) الاكتفاء ، ج ٤/٢ ب .

(٦٦) ابن أعثم : الفتوح ، ج ١٢/١ .

(٦٧) تاريخ الطبري ، ج٢٥٧/٣ ، الكامل في التاريخ ، ج٢ / ٣٤٤ .

(٦٨) شوقي أبو خليل ، حروب الردة ، دمشق ١٩٨٤ ، ص ٤٨ .

(٦٩) الجاحظ : كتاب الحيوان ، (ت هارون) ط٢ ، القاهرة ١٩٦٥ ، ج٤/٣٧٨ .

(٧٠) تاريخ الطبري ، ج٣/١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٥٧ ، ابن أعثم : الفتوح ، ج١/١٤ .

(٧١) الاكتفاء ، ج٢/٤ أ .

(٧٢) ابن أعثم : الفتـوح ، ج ١/١٢ ـ ١٣ ، أنساب الاشراف ، ج ١٠/٧٣٠ ، تاريخ الخميس ، ١٦٠/٢ .

(٧٣) سورة آل عمران ، آية ١٩٠ ـ ١٩١ .

(٧٤) جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ، بيروت ـ بغداد ١٩٧٩ ، ج ٦/٥١١ ، ٥٨٩ ، ٥٩١ ، ٦٩٤ ، محمد حسين هيكل ، الصديق أبو بكـر ، ط٦ ، دار المعارف بمصـر ، ١٩٧١ ص ١١٤ .

(٧٥) المطهر المقدسي : البدء والتاريخ (ت جوار) ، دار المثنى ، بغداد ، ج٤ / ٢٧ ، ٣٧ .

(٧٦) تاريخ الطبري ، ج ٣ /٢٤٥ ، ٢٥٨ ، الفتوح ، ج١ / ١٢ ، ١٣ ، الاكتفاء ، ج٢/١٤ .

(٧٧) محمد حسين هيكل : الصديق أبو بكر ، ص١٢٠ .

(٧٨) تاريخ الطبري ، ج٣/٢٦٠ ، النويري ، نهاية الارب ، القاهرة ١٩٧٥ ، ج١٩/٧٠ .

(٧٩) الواقدي : المغازي (ت جونس) لندن ١٩٦٦ ، ج٣ /١٠١١ ، تاريخ الطبري ، ج٢/٥٦٩ ، ابن أعثم : الفتوح ، ج١/١٩٩ ، ابن حجر : فتح الباري ، دار المعرفـة ، بيروت ١٣٩٧ هـ ، ج ٦/٦١٤ ، الاكتفاء ، ج ١/١٦٧ أ ، ١٦٩ ب ، ١٨٠ أ ، المنـذري : مختصر صـحيح مسـلم ، الحديثان ، ١٩٩٨ ، ٢٠٠٠ .

(٨٠) البلاذري : أنساب الاشراف ، ج ١٠/٧٣٠ .

(٨١) تاريخ الطبري ، ج٣/١٨٦ ، ٢٤٤ .

(٨٢) المصدر نفسه ، ج٣ / ١٨٧ ، ٢٥٦ .

(٨٣) تاريخ الطبري ، ج ٣/٢٥٧ ـ ٢٥٨ .

(٨٤) نسب البغدادي صاحب خزانة الادب ، القاهرة ١٣٤٧ هـ ، هذين البيتين الى الحطيئة ، مع تغيير طفيف في البيت الاول حيث ورد :

أطعنا رسـول اللـه اذا كـان حاضـرا   فيالهفتـي ! ما بـال ديـن أبـي بكـر

انظر : البغدادي : خزانـة الادب ، ج٢/٢٥٧ .

(٨٥) الاكتفاء ، ج٢/١ ب ، ابن أعثم : الفتوح ، ج١ / ٥٥ ـ ٥٨ ، البلاذري : فتـوح البلـدان ، ج١ / ١١٣ .

(٨٦) الغساني : كتاب الخذلان (ت شاكر مصطفى) ، جريدة القبس الكويتيـة ، العـدد ٥٢٩٤ ، ١٩٨٧/٢/٦ .

(٨٧) الاكتفاء ، ج٢/١ ب ، ٤ أ ، ٥ب ، تاريخ الطبري ، ج٣/٢٤٢ ، ٢٥٨ ، ٢٠٥ .

(٨٨) تاريخ الطبري ، ج ٣/٢٤١ .

(٨٩) الاكتفاء ، ج /١ ب ، كتاب الخـذلان ، الموضوع نفسه .

(٩٠) الغساني : كتاب الخذلان ، صحيفة القبس الكويتية ، عدد ٥٢٩٤ بتاريخ ١٩٨٧/٢/٦ وانظـر أيضـا : أنساب الاشراف ، للبلاذري ، ج ٩/٤٧٩ .

(٩١) الاكتفاء : ج٢/١ ب .

(٩٢) الكامل في التاريخ ، جـ٢/١٣٠ ، فتوح البلدان ، جـ ١/١١٣ .
(٩٣) فتوح البلدان ، جـ ١/١١٤ .
(٩٤) السهيلي : الروض الانف (ت طه سعد) ، القاهرة ١٩٧١ ، جـ ٣/٢٧٤ .
(٩٥) تاريخ الطبري ، جـ ٣/٢٥١ ـ ٢٥٢ ، الاكتفاء ، جـ ٢/٣ أ ، ٣ ب ، البداية والنهاية ، جـ ٦/٣١٦ ، نهاية الارب ، جـ١٩/٦٥ ـ ٦٩ .
(٩٦) تاريخ الطبري ، جـ ٣/٢٥٠ ـ ٢٥١ .
(٩٧) فتوح البلدان ، جـ ١/١١٧ .
(٩٨) المصدر نفسه ، جـ١ / ١٢٢ .
(٩٩) المصدر نفسه ، جـ ١ / ١١٦ ـ ١١٧ .
(١٠٠) الكامل في التاريخ ، جـ٢/٣٤٣ .
(١٠١) الاكتفاء ، جـ ٢/١٣ .
(١٠٢) أحمد عادل كمال : الطريق الى المدائن ، بيروت ١٩٧٢ ، ص ١٦٥ ، وطليحة بن خويلد الاسدي ، جدة ١٩٨١ ، ص ٢٩ ، ٣٧ ، شوقي أبو خليل : حروب الردة ، ص ٥ .
(١٠٣) فتوح البلدان ، جـ ١/ ١١٤ .
(١٠٤) تاريخ الطبري ، جـ ٣/٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(١٠٥) المصدر نفسه ، جـ ٣/٢٥٦ ، ٢٦٠ ، الاكتفاء ، جـ ٢/٤ أ ، وانظر أيضا : الحميري ، الروض المعطار ، (ت عباس) بيروت ١٩٥٨ ، ص ٩٢ مادة بزاخة .
(١٠٦) ابن بدران: تهذيب تاريخ ابن عساكر ، دمشق ١٣٧٩ هـ ، جـ ٧/٩٩ .
(١٠٧) أنساب الاشراف ، جـ ١٠/٧٣٠ .
(١٠٨) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ١/١٢ ـ ١٣ .
(١٠٩) الاكتفاء ، جـ ٢/٤ أ .
(١١٠) الاكتفاء ، جـ٢/٤ أ .
(١١١) المصدر نفسه ، جـ٢ /٤ب .
(١١٢) الاكتفاء ، جـ٢/٤ب ، وانظر أيضا : انساب الاشراف ، جـ١٠/٧٣٠ ، تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٥٦ ، الكامل في التاريخ ، جـ٢/٣٤٧ ـ ٣٤٨ .
(١١٣) ابن أعثم : الفتوح ، جـ ١/١٣ .
(١١٤) الاكتفاء ، جـ٢/٥ أ ، تاريخ الخميس ، جـ٢/٢٠٧ .
(١١٥) ابن أعثم ، الفتوح ، جـ ١/١٥ .
(١١٦) تاريخ الطبري ، جـ ٣/٢٥٦ ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ / ٣٤٨ .
(١١٧) الاكتفاء ، جـ ٢/٥ أ .
(١١٨) تاريخ الطبري ، جـ ٣/٢٦٢ ، البداية والنهاية ، جـ ٦/٣١٩ .
(١١٩) البداية والنهاية ، جـ ٦/ ٣١٨ ـ ٣١٩ ، وانظر ايضا ، باشميل: حروب الردة ، دار الفكر ، دمشق ١٩٧٩ ، ص ١٠٦ .
(١٢٠) الاكتفاء ، جـ٢/٥ب ، ١٦ ، البداية والنهاية ، جـ ٦/٣١٩ ، فتوح البلدان ، جـ ١/١١٣ ـ ١١٤ .
(١٢١) الاكتفاء ، جـ ٢/٥ أ ، ٥ب ، تاريخ الخميس جـ٢/ نهاية الارب ، جـ ١٩/٧٣ .

(١٢٢) تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٥٦ .

(١٢٣) Shoufany, p. 120.

(١٢٤) تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٦١ ، وانظر أيضا : أنساب الاشراف ، جـ ١٠/٧٣٠ ، ياقوت ، معجم البلدان صادر ، بيروت ١٩٥٥ ، جـ١/٤٠٨ مادة بزاخة .

(١٢٥) ابن أعثم ، الفتوح جـ ١/١٩ . تاريخ اليعقوبي ، بيروت ١٩٦٠ جـ ٢/١٣٠ .

(١٢٦) أنساب الاشراف ، جـ ١٠/٧٣٠ .

(١٢٧) فتوح البلدان ، جـ١/١١٥ .

(١٢٨) أنساب الاشراف ، جـ١٠/٧٣٠ .

(١٢٩) ابن أعثم : الفتوح ، جـ١ /١٩ .

(١٣٠) تاريخ اليعقوبي ، جـ٢/١٣٠ ، الصحاري ، الانساب ، سلطنة عمان ، ص ٣٠٤ ، أحمد كمال ، طليحة بن خويلد ، ص ٨٣ .

(١٣١) الدينوري ، الاخبار الطوال (ت عامر) القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٩ ا– ١٢٠ .

(١٣٢) فتوح البلدان ، ص ٣١٧ .

(١٣٣) تاريخ الطبري ، جـ٣/٥٤٠ ، أحمد عادل كمال : طليحة ، ص ٥٨ – ٦٣ .

(١٣٤) تاريخ الطبري ، جـ٣/٥٣٨ – ٥٣٩ .

(١٣٥) تاريخ الطبري ، جـ٤ /١٢٧ ، ١٣٧ ، جـ٣/٥٢٨ – ٥٢٩ .

(١٣٦) فتوح البلدان ، ص ٣٢٤ .

(١٣٧) ابن أعثم : الفتوح ، جـ٢/٤٤ .

(١٣٨) ابن عبد البر : الاستيعاب في معرفة الاصحاب (ت البجاوي) القاهرة ، جـ٢/ ٧٧٢ ترجمة ١٢٩١ ، جـ ٣/١٢٠٥ ترجمة ١٩٥٨ .

(١٣٩) الفتوح ، جـ٢/٤٢ .

(١٤٠) أنساب الاشراف ، جـ ١٠/ ٧٣٠ .

(١٤١) ابن بدران : تهذيب تاريخ ابن عساكر ، جـ٧/١٠٢ ، ابن حجر : الاصابة في تمييز الصحابة ، ترجمة رقم ٤٢٩٠ ، الزركلي : الاعلام ، بيروت ١٩٦٩ ، ط٣ ، جـ٣/٣٣٣ ، ابن الجوزي : الوفا بأحوال المصطفى ، جـ٢/٧٦٤ .

(١٤٢) ابن قتيبة : المعارف (ت عكاشة) القاهرة ط٢ ، ١٩٦٩ ، ص ٢٩٩ ، معجم البلدان ، جـ١/١٨٠ مادة اسفيذبان .

(١٤٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٣٩٤ – ٣٩٥ ، أنساب الاشراف ، جـ ١٠/٧٣٠ – ٧٣١ .

(١٤٤) تاريخ الطبري ، جـ٣/٢٦١ .

(١٤٥) المصدر نفسه ، جـ ٤/١٣٥ .

خبرو (خا - بيـ - رو = Ha-b/pi-ru)
مُشكِلة حقيقيَّة أم مُفتعلة

الدكتور فيصل عبد الله
جامعة دمشق

أصبح معروفا لدى الاوساط العلمية المهتمة بالدراسات المسمارية ، محاولة تحريف اسم ملك إبلا (تل مرديخ ، سورية) المسمى « ابريوم E/ib-ri-um »(١) الذي أراد له « علماء » صهاينة أن يكون له علاقة لغوية باسم « عابر » التوراتي(٢). وبالرغم من أن اللجنة الدولية لعلماء المسماريات قد أبعدت كل احتمال لقلب المقطع الصوتي (ا ب) الى (عب) ، وامتناع المتخصصين في أوروبة وأميركة عن الدخول في مناقشة علمية للموضوع لان المقارنة لا تستند الى نص(٣) أو شاهد ، بالرغم من هذا لا تزال الاوساط الصهيونية تشيع - على الاقل على مستوى الراي العام غير المتخصص - ان ابريوم ليس الا عابر التوراتي ، وبالتالي فان أحد أجداد العبريين قد حكم إبلا في نهاية الالف الثالث ق.م . . ! . ونعلم أن ذكر عابر يرد بمفرده كأحد أبناء سام،وليس بالضرورة أن يكون جداً لقوم دون آخرين ممن (يفترض) أنهم عاشوا في تلك الحقب . ! ولن نقول هنا أكثر من أن التوراة هي بذاتها تراث آرامي - عربي وان أفراد المجموعتين قد حملوا منذ أقدم العصور حتى الآن أسماء توراتية . وليس هناك ما يضيرنا ، كعرب ، اذا وجدت يوما علاقة ما بين روايات التوراة وبين الواقع ، لان الحصيلة تقع في دائرة التراث الحضاري لكل من عاش على أرض الوطن العربي مهما كانت ديانته ، ولن يستطيع المستوطنون الاوربيون من معتنقي اليهودية الذين احتلوا فلسطين عنوة ان يجدوا اي ارتباط بين عقليتهم وثقافتهم ونمط تفكيرهم ، وبين تراث المنطقة القديم الذي ما يزال يعيش ، فقط ، في عقول وأذهان من لم ينقطعوا عن العيش فيها ابدا منذ آلاف السنين .

لم تكن المشكلة المفتعلة السابقة حول اسم ابريوم الاولى من نوعها ، ولكنها الاولى التي وصلت الى الرأي العام العربي بسبب بدء اهتمامنا - وبصورة محدودة - بالتراث المسماري الذي ظهر في إبلا منذ وقت قريب . واذا تصفحنا الدراسات التي نشرت منذ اكتشاف اول نص مسماري في منتصف القرن الماضي حتى اليوم (بلغ عدد الرقم نحو نصف مليون قطعة) فسنجد الكثير الكثير من امثال تلك المشكلة المفتعلة (٤) .

تتناول هذه الدراسة احدى المشكلات المتعلقة بالاسم خبرو (أو خابيرو أو خبيرو)، وجذورها تعود الى بدايات هذا القرن عقب نشر دراسات لمحفوظات تل العمارنة في مصر ثم ماري وأوجاريت . . . الخ هذه المحفوظات التي ربما تزيد في أهميتها على محفوظات إبلا ، لان مجال التفسير والمقارنة بينهـا وبين معطيات سفر التكوين واسـع ، بسبب تقاربها مع الزمن المقدر لاحـداث وروايات التوراة . وقـد وجد دعاة الصهيونية مـن المؤرخين منابعلا تنضب للمقانة والتفسير لخدمة الهدف الاستيطاني في المنطقة العربية.

فما مشكلة خبرو وخبيرو ... ؟

١ ـ **خبيرو** : ha-bi-ru (٥) اسم لمجموعة من الناس ظهر لاول مرة نحـو عام ١٨٩٠ عند محاولة فك رموز محفوظات تل العمارنة في وسط وادي النيل ، ومنذ ذلك التاريخ تتابعت الدراسـات وعالجت « المشـكلة » تحت اسـمها الاكادي (habiru) خبيرو وتحت اسمها السومري (Lu-SA. GAZ لو. سا. غز) وبين عامي ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ كانت جميع نتائج الدراسات قد جمعت في مؤلفين شاملين : الاول بالفرنسـية لمؤلفه جان بوتـيرو(٦) ويحمل عنـوان **مشكلة خبيرو** ، والثاني بالانكليزيـة لمؤلفه م.غرينبرغ(٧) ويحمل العنوان نفسـه . ونجد في طبعة هـذا الاخـيرة (١٩٦١) ثبتا بالدراسات في الموضوع (ص٩٧) .

ومن عام ١٩٦١ وحتى وقتنا الحاضر ظهرت عشرات الدراسـات(٨)، ولكنها لـم تحمل جديدا من حيث النتائج ، وهي التـي سنتعرض لها في هذه الدراسة . أهمهـا كتاب اوزفالد لوريتس(٩) (بالالمانية) بعنوان **خبيرو** أيضا ، الذي ظهر عام ١٩٨٤وتضـمن عرضا اجتماعيا تاريخيا وثبتا بجميع الدراسات السابقة . يضاف الـى ما تقدم كتب وملخصات عن المشكلة في معاجم الاعلام واللغة الاكادية(١٠) .

٢ ـ **الوثائق : خابيرو/سا.غز** . من المتعذر علينا ايراد الاسم حيثمـا ورد في الوثائق المسمارية التي تبلغ المئات ونكتفي بذكر مثال من كل مجموعة مماثلة(١١) .

ـ أواخر الالف الثالث ق.م (سلالة اور ٣) .
LU - Sa. gaz = awil ha - bi - ru
ـ اوائل الالف الثاني (القرن ١٩) اشوري قديم .
assumi a - wi - bi ha - bi (4) - ri
ـ أوائل الالف الثاني (القرن ١٨) ماري ـ بابلي قديم .
(qadum ...) sa - bi - im ha - bi - ri
ـ القرن ١٨ ـ ١٧ محفوظات سوزا ـ بابلي قديم .
LU. MES ..... ha - bi - ru

– الالاخ – بابلي قديم .
– نوزي ١٥ – ١٤ بابلي متوسط

– بوغازكوي ،
– أوجاريت ١٤ – ١٣
– تل العمارنة ١٣ – ١٢ ،
جبيل والساحل السوري اللبناني – الفلسطيني
– نيبور ،
– بابل ،

وردت في جميع هذه المحفوظات بالقطعية الاكادية المدونة اعلاه .

– وردت في النصوص المصرية في طيبة Thébes وغيرها هكذا C P R بدءا من القرن الخامس عشر وحتى القرن الثاني عشر ق.م .

٣ – الاسم : يكتب الاسم بالمقطعية المسمارية(١٢) ويبدأ دائما بالمقطع (خا/) ويمكن لهذا المقطع ان يقرأ (عا) في اللهجات الاكادية الغربية ، ولكن هذا لا ينطبق على جميع الكلمات اي ان تقلب الـ (خ) الى (ع) بصورة تلقائية ، ولذا فان امكانية قلبه هنا ليست اكيدة ولا شاهد على كيفيةنطقها من قبل الناطقين بلهجات اكادية غربية ، اذ من السهولة ان نقول ان استبدال (خ) بـ (ع) وارد في كثير من الكلمات والعكس صحيح.

(بي) هو المقطع الثاني للكلمة ويمكن ان ينقلب الى باء مشددة بالمصرية القديمة (پي) . ونلاحظ غياب قيمة المقطع (پي) في ماري والالاخ وأوجاريت ونوزي .

(رو) هو المقطع الثالث للكلمة ، ولا توجد مشكلة بالنسبة لكتابته او نطقه حيثما ورد في النصوص .

٤ – المعنى : لدى مراجعة الاسم « **خبيرو** » في المعاجم الرئيسة فاننا لن نحصل على معنى محدد يتفق عليه الجميع . والسبب هو غياب الشواهد التي تؤيد كل ترجمة مقترحة . واهم الترجمات بنظرنا هي التي اقترحها بوتيرو فقد وجدت في النصوص الاكادية صيغة ibbi'ar إبيأر ، وتعني الهارب أو الذي هرب ، وهي تقابل المعنى السومري SA. GAZ اي بالاكادية habru= خبرو وتعني بالفرنسية Pillards اي غزاة ، رجال الغزو . ونعلم أن التعبير (سا . غز) يستعمل للدلالة على رجال من هذا النوع ويقابله بالاكادية habbatu اي القتلة . ولكن هذا المعنى اكثر شدة لتوصيف تلك الجماعة ، فيبقى المعنى خبرو = بدو ، غزاة ، نهابون ، أكثر انسجاما مع النصوص التي وردت فيها الكلمة(١٣) . بقي ان نعلم ان هذا الاسم قد اطلقه على تلك الجماعة الآخرون ، سواء أكانوا خصوما أم حلفاء ولذا فانه لا يخلو من غرض سلبي(١٤) . ان المقصود بالتعبير هو دائما اشخاص او مجموعة من الناس أو عصبة .

وعند ذكر الهتهم في نصوص بوغازكوي الحثية « آلهة الخبيرو » يكون المقصــود الآلهة التي يعبدها جماعة خبيرو ، وليست ذات جنسية منسوبة لهم . فآلهتهــم هي ذات الآلهة التي عبدها البدو ، والحضر المعاصرون(١٥) . ولم ترد في النصوص التي ظهرت حتى الان اسماء فردية تحمل نسبتهم ، باستثناء وحيد في محفوظات نوزي .

ان النصوص لا تحدد وطنا أو أرضا او بلادا باسم بلاد الخبيرو . ولذا فان تلك المجموعة لم تشكل وحدة سياسية . ان ظهورهم كجماعات بدوية متنقلة هامشية ، وعدم وجود دليل على ادعاء مذهبي او عرقي من خلال النصوص ، يجعــل انتماءهم البشري للمجتمع الرافدي الاموري(١٦) . ونستنتج من النصوص أن الخبيرو لا يظهرون الا بحركة دائمة ، يشاركون في أعمال واستطلاعات عسكرية لدى الملــوك او لحسابهم الخاص ، وأمثلة ذلك كثيرة في وثائق تل العمارنة . وبقيت صورتهم ، على ممرالعصور، كجماعات متجولة ومتطوعة في معظم مناطق الشرق القديم ، لم يستقررا في عصر مــن العصور وظلت الوثائق السومرية بشكل خاص تحتفظ لهم باسم ساغز = العصابة، وهو المعنى الذي يتفق عليه جميع المتخصصين وجميع المعاجم ، والمقصــود به **نمط حياة لا نسبا عرقيا أو قبليا أو اعتبارا سياسيا ، انه حالة اجتماعية .**

ولم تذكر النصوص اية اشارة بجانب اسمهم يمكن ان تدل على ميزة ثقافية او اجتماعية ، بل ذكرتهم الى جانب جماعات اخرى تحمل اسماء امورية مثل ســوتو Sutu الذين ورد ذكرهم في نصوص ماري، وكانوا يشاركونهم في نمط حياتهم . ولــم يكن لاي من هؤلاء شيخ قبيلة أو سلطة أو دلالة عرقية . وهنالك من عناصر الخبيرو من عاشوا في مناطق نفوذ ماري بين خانا (منطقة قريبة مــن ماري) والفرات الاعلى وحلب / يمحاض(١٧) .

٥ ـ مناقشة واستنتاجات : حاول بعض المتخصصين بالدراسات الآشورية من اليهود (وبعضهم يدرس في جامعات اسرائيل) ان يربط كلمة خبيرو بالجذر أو المصدر المشترك لجميع لغات الوطن العربي القديــم (الساميات) عبر ، اي مــر ، وعبر أو عبَّر . وجميع هذه المحاولات سقطت منذ الخمسينــات ولا نجد اشــارة من هــذا القبيل في المعاجم الاكادية الحديثة . ويتفق كبار علماء الاكاديات ، مثل ب. لاندسبرغر وغيره ، ان المطابقة بين خبيرو والعبريين ليست الا شبحا جناسيا ، كما هي الحــال في محاولتهــم تعريف ابريــوم بعابر التوراتي(١٨) . ولا توجــد اية معطيات واقعيــة وموضوعية ، ومن الافضل رفض ذلك التعريف وقبول الكلمة السومرية المعاصرة لتلك الجماعة وهي **ساغز** ، ومقابلهــا الاكادي **خبرو** ، اي عصابــة ، نهاب ، كما يستنتج بوتيرو وغيره .

ان الهدف من ربط خبيرو بالجذر « عبر » واضح لكل ذي عين ، الا وهو تقديم شاهد رافدي ومصري على وجود العبريين الذي لا نعرف عنه الا معلومات التوراة التي تحتاج هي نفسها الى شواهد اخرى . فالمحاولة تهدف الى ابراز دور ما للعبريين وتجذيره في تاريخ الرافدين ومصر القديم ، ومن حسن الحظ ان المحاولة لم تجد أمامها قبولا في الاوساط العلمية الاوربية والامريكية ، الا ان البعض منا تبناها مع الاسف .

٦ ـ عرض تاريخي سياسي(١٩) :

آ ـ **البدو** : يامينا والخبيرو وغيرهم في سورية وشمال الرافدين

تشغل البادية ، وليس الصحراء ، قسما كبيرا من المنطقة المذكورة ، ويشكل وادي الفرات الاخضر الشريط الفاصل بين البادية في الجنوب وبلاد الرافدين العليا. ويعيش البدو في الشرائط الخضراء المحيطة بالمناطق الزراعية المحددة بخط مطري سنوي لا يقل عن ١٠٠ مم سنويا . وتعتبر مدينة تدمر (Tadmir بالاكادية) المثال الاقدم لمواطن توضع البدو . وبصورة عامة ، تعتبر الجماعات البشرية التي كانت وما زالت تعيش في تلك المناطق من انصاف البدو . اما الحياة البدوية الكاملة فمرتبطة باستعمال واسطة النقل التقليدية وهي الجمل ، ولما كان هذا الحيوان غير معروف قبل القرن الثاني عشر ق.م فان حركة البدو قبل هذا التاريخ كانت محدودة ، لانهم كانوا مرغمين على البقاء في مناطق لا تبعد كثيرا عن مناطق الاستقرار الزراعي ، ويعودون من أجل شراء المواد الغذائية أو مبادلتها ، أو العمل في ازمنة القحط . ان واقع هؤلاء ، يفترض احتكاكا دائما بالمستقرين في مدن سورية والرافدين ، ولهذا كان قسم كبير يميل نهائيا الى الاستقرار في تلك المناطق .

لقد دونت لنا نصوص سورية والرافدين المسمارية أسماء معظم القبائل والعشائر البدوية المعنية ، فمنهم المجموعات البدوية الاصل الذين لقبوا بالاموريين Ammuru في النصوص المسمارية ، اي القادمين من جهة الغرب أي من البادية السورية حاليا . وبعد سقوط سلالة اور الثالثة في نهاية الالف الثالثة ق.م ترك هؤلاء اثارهم المادية في وادي الفرات واعالي الجزيرة . وعندما تغيب النصوص ـ لتظهر من جديد في بداية الالف الثانية ـ نرى هؤلاء الاموريين يؤسسون سلالات حاكمة في مدن الرافدين، ونجد وثائق اقدمها في ماري . ولكن بقي الكثيرون منهم يعيشون حياة البداوة . وعندما اصطدم هؤلاء مع المستقرين من بدو الامس الاموريين ، ظهورا تحت اسماء اخرى معظمها القاب أو تسميات جغرافية واقدم مثل عليهم هم مارو يامين أو يامينا

Maru-yamina أو ابناء الجنوب (جنوب الفرات ، ضفته اليمنى) وقد سكن هؤلاء في تلك المناطق نظرا لقربها من البادية وسهولة الاتصال بمدن الجزيرة والفرات ، ولكن هذا لم يمنعهم أيضا من الانتشار في حران ومناطق حلب وقطنة (حمص) ، وعرفت بعض المناطق المحيطة بالمدن الاخيرة ببلاد الاموريين .

وشكل اليامينيون (بنو يامين كما تلفظ بالاكادية) ، رابطة قوية لعدد من القبائل أعطت أربع منها أسماء لمواقع مدن مثل سيبار ، أمنانو ، سيبار ـ يخرورو ، ونجد أن مؤسس سلالة في اوروك يدعي سين ـ كاشيد ينحدر من قبيلة امنانو . وكان يرأس يامينا شيخ ونادرا ما صار ملكا ، ولهم منصب قائد جيش زمن الحرب . ولم تكن جل علاقاتهم عدوانية مع الحضر ، وخاصة في زمن زمري ليم ملك ماري حيث عرفت تلك العلاقة هدوءا نسبيا ، ولكنها كانت متوترة أحيانا اخرى ويروي زمري ليم أنه أوقع الهزيمة بهم سبع مرات في وادي الخابور .

السوتيون (السوتو) ، وظهروا الى جانب يامينا وكانوا يسيطرون على البادية ولهم صلات ورحلات الى بابل بالذات . ووفق مصادر ماري كانوا بدوا أشداء قساة سيطروا على جميع البوادي حتى بابل ولم يكونوا يتوانون ، كغيرهم ، عن مداهمة الحضر وقت الشدائد . ويعتقد أنهم كانوا يتخذون من موقع متوسط بين دمشق وتدمر مقرا رئيسيا لمهاجمة القبائل . وقد ذكر لنا يسمخ/ع ـ أدد أن الفين من السوتو قد هاجموا قطنة ، ونادرا ما عكست النصوص علاقة سليمة معهم .

هناك قبائل أخرى مثل **رابـو** ويعتقد أنهم من فصائل يامينا ، عاشت في مناطق حلب / يمحاض ووصفت بأنها اخوة يامينا . وهناك **سيمال**=الشمال (شمالي الفرات) وهي مجموعة تقابل يامينا (أبناء الجنوب) ، ولا نعلم شيئا عن اسماء قبائل أخرى مثل **نومخا بل / بعل** ، الذين قطنوا المناطق العليا ، في حين أن لدينا الكثير من المعلومات عن **الخانيين** ـ من خلال نصوص ماري ـ الذين أقاموا قرب ترقا (الرقة) وأعالي الخابور، وكانوا أنصاف بدو وجنودا محاربين محترفين خدموا في جيش ملك ماري يخدون ليم في نهاية القرن التاسع عشر ق.م .

الخبيرو : وهم المجموعة الاخيرة من هؤلاء البدو ، وكانوا جماعات تؤجر خدمتها للملوك ، بخاصة في أعالي الفرات وغربه وعلى حوض الخابور ، ونسجل ظهورهم في مناطق حلب للمرة الاولى في عهد الملك الحلبي اركابتوم . وبالرغم من عدم وضوح معنى الكلمة كما بيّنا فقد أظهرتهم نصوص ماري كجماعات بين البدو الغربيين الاموريين . وقد اعتبر بعض السوتو وبعض عشائر ياموت بل / بعل yamutbal من الخبيرو .

ويبدو في النتيجة انه لا يجوز اعتبارهم كوحدة قبلية كبيرة مثل يامينا مثلا ، ان اهم رواية عن الخبيرو في نصوص اكادية هي رواية ادريمي في كتابات هامة وجدت في الالاخ (تل عطشانة) يروي فيها كيف صعد الى العرش . اذ يبدو أن اباه كان ملك حلب واسمه إليم اليما ilim-ilimma ومن المعتقد أن ثورة قامت ضده فأجبرت ادريمي الابن وأخاه على الهرب واللجوء الى ايمار Emar (مسكنة اليوم) حيث تعيش عشيرة أمه ، وتوغل في البادية انطلاقا من ايمار حيث التقى ببدو السوتو ، ويصل حسب قوله الى كنعان على الشاطىء ، ويقول انه عاش سبع سنين في المنفى مع الخبيرو ومن ثم عاد واسترجع عرش الالاخ . . . الخ .

ب ـ الاموريون (الكنعانيون) في فلسطين والرحلة الابراهيمية :

سميت القرون الاولى من الالف الثانية ق.م بالعصر البابلي القديم . وتميل اكثرية المتخصصين اليوم الى تسميتها بعصر السلالات الامورية لانها هي التي حكمت في كل من سورية والعراق . الا أن السلالة البابلية هي أول من عرفنا من النصوص المسمارية ، ومعظم معارفنا جاءت من الاكتشافات الاخيرة منذ منتصف هذا القرن حتى اليوم ، مثل سلالة ماري وحلب وقطنة والالاخ وأوجاريت .. الخ . وعرفنا الاموريين بأسماء العواصم التي أسسوا فيها سلالاتهم ، فهم بابليون في بابل وماريون في ماري وحلبيون في حلب وآشوريون في آشور . . . الخ .

أما في فلسطين التي يرد ذكر مدينة هامة فيها في نصوص ماري منذ القرن ١٨ وهي حاصور Hasur التي قصدها التجار من ماري مرورا بايمار وحلب ، فقد عرفت هي الاخرى حضارة مزدهرة منذ ذلك الوقت المبكر . ولئن كانت النصوص المكتوبة (المسمارية) لم تظهر فيها بعد (أي النصوص التي قد تغطي تلك الفترة) الا أنها بحكم ارتباطها تاريخيا وجغرافيا بسورية عرفت علاقات وطيدة معها ، كما عرفت علاقات خارجية وثيقة مع مصر منذ ذلك الوقت المبكر ، يدل على ذلك الهدايا والتقدمات المرسلة من أمراء وملوك فلسطين الى فراعنة مصر .

ويشهد الفخار المزين (في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ ـ ١٦٠٠ ق.م) الذي وجد على نطاق واسع ، والاسلحة البرونزية والجواهر التي وجدت في حاصور ومجدو وجريشو وتل الدوير وغيرها . . . على فترة الازدهار والاستقرار التي نوهنا عنها ، والتي عمت سورية والعراق في عصر السلالات الامورية . ويعتقد ـ وليس من دليل سوى رواية التوراة المتأخرة المكتوبة في غضون القرن السابع أو السادس ق.م ـ أن ابراهيم وعائلته قد قاموا خلال فترة الازدهار تلك برحلة وصلوا فيها الى فلسطين

قادمين من حران في شمال سورية، ذلك الترحال الذي يمكن أن يحدث في اطار ما سبق وتحدثنا عنه فيما يتعلق بوسائط النقل . . ولكن الترحال الابراهيمي المذكور في التوراة لم يحدث أية ضجة ولم يترك أثرا في الكتابات المسمارية ، ولم تدل عليه اللقى الاثرية التي اكتشفت حتى الآن ، كما لم يتمتع ابراهيم وعائلته بأي سلطان أو نفوذ سياسي . وعلى الرغم من كل هذا يمكن قبول فرضية حدوث تلك الرحلة في اطار تحركات البدو الدائمة ، ولربما كانت نهاية المطاف والاستقرار بالنسبة لهذه المجموعة في فلسطين التي كانت تشهد فترة انتعاش على يد الكنعانيين .

لقد خيل لبعض علماء الاكاديات ـ من المذهب اليهودي بخاصة ـ انهم وجدوا الدليل الكتابي غير التوراتي على تلك الرحلة في نصوص تل العمارنة ، ومن ثم ماري وأوجاريت والالاخ وبوغاز كوي ونوزي ، أو انهم وجدوا على الاقل ذكرا للعبريين وانهم ليسوا الا جماعة خبيرو أو عبيرو بالمصرية . ان هذا الادعاء لم يجد له سندا علميا كما بيّنا ، بالرغم من وجود مجانسة لغوية ظاهرة ، يمكن أن نجد مثلها في كثير من اللغات حتى غير السامية أو العربية ، ونجد أيضا أن خبيرو تدل على مجموعة أو عصابات معروفة ، تلقى بعض الاهتمام من السلطات المستقرة في المدن . في حين ان جماعة ابراهيم ـ ان كانت على صلة بالعبريين التوراتيين ـ كانت جماعة صغيرة اقتصرت على ابراهيم وعائلته ولهذا فانها لم تترك أثرا رغم أن التوراة تعتبره جد العبريين ، كما نفهم من اشارة القرآن الكريم انه جد العرب أيضا .

ج ـ فلسطين ومصر وتسرب الاموريين :

اهتمت الادارة المصرية في ذلك الزمن بسكان فلسطين الكنعانيين (الاموريين) والآراميين لانهم كانوا يشكلون خطرا وقوة اقتصادية فعالة ، فاذا عرفنا العدد الكبير للمدن الفلسطينية المذكورة في نصوص تل العمارنة ، وعرفنا أن محتوى هذه النصوص ليس الا رسائل سياسية ودبلوماسية من أمراء فلسطين الى فراعنة مصر ، تارة للاستجداء وأخرى لطلب النجدة ، أو بمناسبة زواج أو تبادل موفدين نستطيع بعدها أن نفهم أن خبيرو لم يكن الا اسما من مئات الاسماء والالقاب المتداولة ويمكن لنا أيضا أن نفهم أهمية التنافس بين مصر وقوى الرافدين لاستمالة أو تحييد أمراء فلسطين . ونعلم من خلال «نصوص اللعن*» للاسرة الثانية عشرة المصرية ، كم كان الفرعون يتوق الى الخلاص من تبعيته الاقتصادية « للوادي الاخضر الغني » وكان يقصد بهذا الوادي

* نصوص ملكية على أوان فخارية ، تتضمن أدعية ولعنات ضد الخصوم ، تحطم في حفل ديني التماسا للغلبة عليهم .

الدلتا ، وسكانه ليسوا الا مهاجرين تسربوا من فلسطين الى وادي النيل الاعلى واقاموا ملكا لهم اعتبارا من عام ١٧٢٠ ، وبعد بضع سنين يتسرب عدد آخر الى الدلتا الشرقية، وينجح في النهاية باحتلال وادي النيل برمته . هذا العصر يسمى عصر الهكسوس ، وهو الصيغة الاغريقية للتعبير المصري خيكو ـ كهوسويت Hikau-Khoswet أو زعماء البلاد الاجنبية ، الذي دام نحو مئة وثمانين سنة وانتهى بطردهم من مصر نحو ١٥٥٠ ق.م .

ان التقاليد المحلية الشفوية المصرية نقلت الينا بواسطة الكاتب مانيتون (عاش في القرن الثالث ق.م) صورة مبالغ فيها عن تلك العصور . حيث كانت مصر مسرحا لعبث « البرابرة » كما يقول . ولكن هذا الغزو الاموري (أو آمو Amu في النصوص المصرية) قد أخرج مصر من عزلتها ودفعها الى شن حملات عسكرية على فلسطين،وهذا ما أدى الى صدامات مع الحوريين والحثيين .. الخ .

نخلص مما تقدم الى أن المصادر الرافدية والمصرية لم تمدنا حتى الآن بأية اشارة تتطابق مع رواية التوراة عن رحلة ابراهيم ، أو عن وجود العبريين ككيان هام ، واذا ما اكتشفت يوما ما مثل تلك الاشارة ، فلن تكون بمستوى الاهمية التي عليها سكان فلسطين الكنعانيون ـ الاموريون ، لان هؤلاء هم الذين يمثلون حضارة فلسطين في العصور القديمة او خلال ثلاثة آلاف من السنين التي سبقت الميلاد ، وهم لم ينقطعوا عنها أو عن اغنائها حتى يومنا هذا ، على الرغم من الاستيطان الاوروبي اليهودي .

ويبقى ابراهيم وانساله ،سواء التوراتي أو القرآني ، احدى الشخصيات الدينية الورعة التي تشكل تراثا أدبيا لا يجب اقحامه في قضايا تاريخية علمية ، ان قصص التوراة ليست الا جزءا من تراث من عاشوا ويعيشون في سورية وفلسطين منذ ذلك الزمن ، والعرب سكان المنطقة هم وحدهم ورثة وأحفاد الامس .

الحواشـــــــي

(١) اذا علمنا ان عدد المختصين بالدراسات المسمارية الاكادية في العالم قد يصل الى حدود المائتين ، وأن نسبة الصهاينة بينهم لا تقل عن ٢٠٪ ، يعمل أكثر من نصفهم في جامعات اسرائيل .

واذا علمنا أن عدد المختصين العرب في هذا الميدان لا يتجـاوز أصابع اليديـن ، وان مشاركتهـم في المؤتمرات الدولية وحلقات البحث تكاد تكون معدومة(شارك في مؤتمر الاشوريات الدولي الذي عقـد في باريس في تموز ١٩٨٦ ومحوره « تاريخ المرأة في الشرق القديم » أحد عشر متخصصا يعملون في الجامعـات الاسرائيلية ، في حـين غاب العرب عـن هذا المؤتمـروغيره) ، فقد يساعدنا ذلك على فهم الضجيج واللغو الذي يثـار عقب كل كشف أثـري أو كتابي قديم .فاللعب على الكلمات وتزويرها ، وطمس الحقائق أو تحريفها لاغراض عدوانيـة استيطانية أمر منتظـر فيواقع صراعنا مع اسرائيل . وما دام العرب بعيدين عن المشاركة في الابحاث الدولية ، فالميدان مفتوح لدعاةالصهيونية ومؤيديهم لتفسير التاريخ حسب أهوائهم واطماعهم ، واصطناع التفسيرات اللغويـة وتزويـرالاخبار وتاليف الروايات وقلبها الى حقائق مزعومـة غايتها تثبيت أقدام الصهيونية في فلسطين واعطائهـابعدا تاريخيا مع كل كشف أثري جديد .

ويحز في النفس أن بعضهذه النظريات والتفسيرات المغرضة تلقى قبولا من بعضنا فيتبناها غير مدرك خطورتها في حربنا الثقافية مع الصهيونية ، والسببفي ذلك واضح ... وهو عجزهم عن كشـف الزيف ، بحكم عدم تخصصهم ، وعـــدم قدرتهم علـى قراءةالنصوص الاصلية ...

ونشير في هذا الصدد لمؤلفات ودراسات ابراهاممالامات الاستاذ في الجامعة العبرية ، وفيها مقارنات لا حصر لها بين معطيات محفوظات ماري والالاخ . وهويصف محفوظات ماريبانها «أساس الابحاث التوراتية، وخاصة أصل العبريين ومراحل تكون التاريخ الاسـرائيلي » . انظر

Mari and Bible, **Ensyclopaedia Judica,**1961, p. 1 .

وأستاذ آخر اسمه نداف نعمان يهتم بمقارناتخاصة بين أدد ، اله حلب ، ويهوه . هذا اضافة الى ما صدر في النصف الاخير من هذا القرن وبخاصـةفي أمريكا ، منروايات خيالية تناولت أهم الاكتشافات الاثرية فيالوطن العربي وقدمتها للقارىء العادي بقالبروائي ، وغايتها تسريب الافكار الصهيونية بأن التراث المسماري القديم جزء من التراث اليهودي ، منهـارواية الاكتشاف للاميركي ستيف شاغان .

Steve Shagan, **The Discovery,** New York, 1984 .

وتحكي عن اكتشاف مدينة ابلا في سورية وأنها« ... مملكة عبرية ، وما على السوريين الا أن يقبلوا بأن يكونوا احفاد العبريين أو ... » ولا ينسى المؤلفالصهيوني أن يبث سمومه عند وصفه سورية وشعبها بأنه « يستعد لتدمير حضارة اسرائيل » . انظر :

(٢) انظـر :

Geovanni Pettinato, **Ebla nouvi orizzonti della storia,** Milano 1986, pp. 122 - 128 s.

الذي يقرأ الاسم ابريوم (Ibrium) وهي القراءة التي اعتمدتها اللجنة الدولية لقراءة نصوص ابلا ، في حين كان يقرؤه ابروم (Ebrum) ، قبل هذا التاريخ وخاصة في مقالـه

RIA. V=Reallexikon der Assyriologie V , p. 12 .

حيث يقول « إن نفوذ إبلا تحت حكم (أبروم)شمل سورية وفلسطين ... وان هناك نص يدفعـه للاعتقاد بأن آكاد وابروم من القبيلة نفسها »ونلاحظ أن قراءة الاسم (ابروم) محاولة غير مباشرة لتقريبه من عبر وعابر . انظر سفر التكوين(١٠ ، ٢٠) حيث يكتب اسـم عابر بالمـد سـواء بالعبريـة أو العربيـة .

(٣) انظـر :

Oswald Loretz, **Habiru - Hebraer,** Berlin - New York 1984, p. 239.

يقول : « لا يمكن المقارنة بين الاسـم الملكـي ابريوم والاسم التوراتي عابر ، ولا بين كلمتي عبري، وعبر » ، وانظر مقاله المترجم : هل للعبرانيين وجود في ابلا ، تعريب قاسـم طوير ، مجلـة دراسات تاريخية ، ٢٧/٢٧ ، ١٩٨٧ ص ١٢٣وما بعد .

(٤) لقد كتب الكثير حول مسألة النبوءة في ماري وحلب وأوجاريت ، وحاولت معظـم الدراســات الصهيونية ابراز العلاقة بين التوراة والادب المسماري الاكادي أو السومري بهدف الادعاء بأن بلادنا ليست الا مسرحا « لحضارة العبريين » وتوراتهم . انظر مالامات في الموسوعة اليهودية .

(٥) من أجل موجز لغوي وتاريخي عن المشكلة ،انظر : ج بوتيرو ، وانظر كلمة خابيرو Habiru في:

R L A. IV , Berlin - New York 1972 - 1975 , p. 14 .
C A D , The Assyrian Dictionary, H. v. 6, p. 84 .
J. Bottéro, « Le Probléme des Habiru à la IVme » **RAI,** Paris 1954. (٦)
H. Greenberg, « The Hab/Piru » **AOS**39 , New Haven 1955 .

(٨) من أهمها :

a - Borger, R. , « Das Problem der ' apiru » (« Habiru ») in : **Z. D. P. V.** 74, 1958, 121 - 32 .

b - W. F. Albright, « Abram the Hebrew » **(BASOR)** , p. 163 , 1961, 36 S

ولا يخفى أن اولبرايت يمثـل وجهة النظـرالصهيونية .

c - M. Astour , « Les Etrangers à Ugarit et le statut Juridique des Habiru », **RA** 53 , 1959 . 70 ss .

d - J- R. Kupper, « Sutéens et Habiru»(**RA** 55 , 1961) , 197 ss.
e - M. B. Rowton, « The Topological factor in the Hapiru problem » (**AS** 16 , 1965) 375 ss.

f - R. de Vaux .« Le Problème des Hapiru aprés quinze années » (**JENES** 27 , 1968 , 221 s.

ومن أجل رموز الدوريات الواردة أعلاه وفي كل مكان من هذه الدراسة ، انظر :

CAH II 1 = The Cambridge Ancient History II / 1 , p. 716 .

(٩) انظر رقم ٣

(١٠) يضاف الى **RLA , CAD** ، قاموس فونزودن الاكادي .

W. Von Soden, Akkadisches Handwor terbuch = **AHW** .

(١١) انظر : بوتيرو RLA المصدر (٦) ، حيث يورد جميع أرقام النصوص المسمارية .

(١٢) انظر المصدر السابق . انظر ، AHW , CAD ، ويمكن ايجاز ما ورد فيهما ، حول الاسم خبيرو كما يلي (habiru) hapiru = (فئة اجتماعية) من العصر الاشوري والبابلي القديمين ، ربما كانت الكلمة مستمدة من لهجة سامية غربية . ذكرت habiri في النصوص الحثية ، جمعها habiratu خبيراتو . ودنت في نوزي بالقطعية المسمارية الاكادية السابقة وكذلك بالرمزية المسمارية السومرية (Lú) SA. GAZ مع صيغ أخرى . انظر حولها كلمة hapiraya خبيريا .

١ ـ تكتب LU. SA. GAZ بالرمزية السومرية في النصوص البابلية القديمة والمتوسطة (آلالاخ ، وبوغازكوي ، وأوجاريت ، رأس شمرا وتل العمارنة)وفي نصوص رأس شمرا وأوجاريت وردت :
URU Hal - bi LU. SA. GA :

وتترجم : رجال الغزو ـ العصابات (!) في مدينة(ريف) حلب .

ERIN. GAZ صيغة أخرى في نصوص تل العمارنة ، وتعني الجنود الاشداء .

٢ ـ تكتب بالاشارات الرمزية السومرية كما يلي :

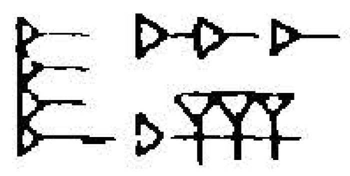 = LU (بالسومرية)= amilu/awilu انسان امرؤ ، رجل (بالاكادية

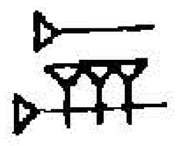 = SA = ser ' anu , gidu (عضل) , riksu طرف العضلة

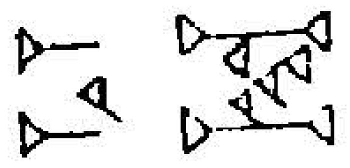 = GAZ = daku دك (ذات الفعل بالعربية) ، masdu سحق

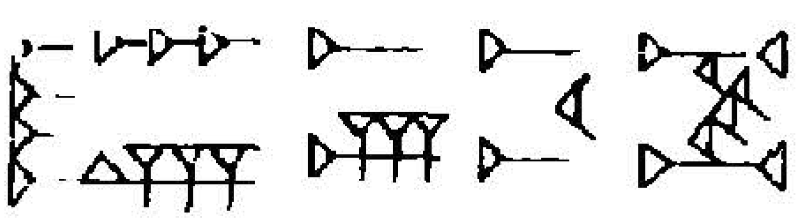 = (lu) SA. GAZ = habbatu تقابل الفعل العربي خبط

خبط ، ضربه بشدة . واذا اردنا اشتقاق الاسم المقابل للاسم الاكادي فهو خباط اي الخباطون habbatu والمعنى المرادف بالاكادية هو hapirû وهو الذي استخدم في معظم النصوص وترجم بمعنى الغزاة أو النهابين . ولكن نجد في قاموس ، لابات :

R. Labat, **Manuel d' épigraphie akkadienne,** Paris 1976, No 104
lu sa - GAZ = habbatu = pillard = غـزاة ; hapiru = nomades = بدو

ونلاحظ أن لابات قد اختار المعنى الاول وهـوالاقرب habbatu الخباطون ، الغـزاة . والمرادف الثاني hapiru قد ترجمه الى بدو . وبذلك ينفيأي احتمال للمطابقة بين hapiruوعبرو .. الخ .

٣ ـ تكتب بالقطعية الاكادية بالاشورية القديمة: **a - wi - li ha - bi (4) - ri so ekallin**

والكلمة الاخيرة تعني قصر بصورة عامة،ولكن قد تعنيمكان = KUR وفي ماري : جنود (البدو ، الخبيرو
وكذلك**sa - bi - im ha - bi - ri** : Jamut t balaja ha - bi - ri
خبيرو (قبيلة) يموت بل / بعل .

وكذلك في بوغازكوي ، ورأس شمرا ـ أوجاريتوتل العمارنة ، ونوزي . وقد وردت في نوزي :
ha - bi - ru sa mat Assur

أي ((خبيرو بلاد اشـور)) .

(١٣) انظر السـند (١٢) رقم ٢ .

(١٤) بوتيرو المصدر السـابق .

(١٥) انظر :

R. Labat , A. Caquot, M. Sznycer, M. Vieyra, **Les Réligions du Proche - Orient asiatique,** Paris 1970 , pp. 505 - 506 .

حيث تذكر الالواح الحثية عشرات الالهـــةالرافدية والحلبيـة خاصـة كشـهود على احـدى المعاهدات وتذكر من بينها آلهة habiri دونذكر أسمائها . انظر حول المعاهدة :

G. Roux,**La Mésopotamie, Essai d' histoire politique, économique et culturelle,** Paris 1984, pp. 209 - 232 .

(١٦) انظـر :

P. Garelli, **Le Proche -Orient asiatiquedes origines aux invasion des peuples de la mer** , Paris 1969, p. 148 . 170 .

انظر أيضا : المصدر السـابق ص٢١٤و ٢٣٢ .

(١٧) انظر : CAHI/I حيث يقول : لقد قيلالكثير حول معنى الكلمة وجهد الكثيرون الى تصنيفه عرقيا ولغويا دون نتيجة واضحة .

(١٨) او . لورتيس المصدر السابق ص١٩١ .حيثينقل عن لاندسبرغر قوله ((ان تعريف ابريوم ملكابلا يعابر النوراتي ليس الا شبحا جناسيا)).

(١٩) من أجلعرض تاريخي شامل،يمكن العودة الى G. Rouxيضاف الى ذلك كل من ، P. Garelli G. Roux.(انظراعلاه) ، ومن أجلتفاصيلأدق ، حول البدول وتحركاتهم في سورية والعـراق والنصوص الاكادية المتعلقة بالموضوع فلا بدمن الرجوع الى المصادر التالية :

— J. R. Kupper, **Les Nomades en Mésopotamie au temps des rois de mari,** Paris 1957 .
— J. T. Luke, **pastoralism and politicsin the Mari period** , Mechigan 1965.
— Horst, Klengel, **Zwischen Zelt und Palast,** Leipzig - Wien 1972 .

— « Mésopotamian und seine nachbarn, Poblische und Kulturelle Wechs-elbeziehungen im Alten vorderasien von, bis 1. Jahrtausend v. chr. xxv (RAI) , Berlin 1978 .

وهو المؤتمر الدولي الخامس والعشرون للاشورريات ، وهو مجموعة أبحاث ودراسات حول التبـادل في العلاقات السياسية والثقافية بين بلاد الرافدين البلدان المجاورة منذ الالف الرابعة حتى الالف الاولى ق.م .

* * *

مع الكتب

دمشق القديمة

د . عيد مرعي
جامعة دمشق

من الدراسات الكثيرة التي تتناول تاريخ مدينة دمشق من جوانب متعددة ، صدر في العام ١٩٨٧ للمؤرخ وين بيتارد Wayne T. Pitard ، كتاب بعنوان : دمشق القديمة دراسة تاريخية عن دولة المدينة في سورية منذ أقدم العصور حتى سقوطها على يد الاشوريين عام ٧٣٢ ق.م .

Anciaent Damascus. A Historical Study of the Syrian City - State from Earliest Time until its fall to the Assyrians in 732 B.C.E., Eisenbrauns, Winona Lake, Indiana, 1987.

وهو كتاب هام ، واول بحث مفصل وشامل عن دمشق القديمة ، رجع فيه الباحث الى المصادر المكتوبة الاساسية التي تتحدث عن دمشق القديمة ، البابلية والاشورية والمصرية والحثية والارامية والتوراتية . مع نقدها نقدا علميا . كما أن الباحث لم يهمل الدراسات السابقة عن دمشق ، فعرض لكل ما كتب في هذا الميدان وطرح آراء وأفكار من سبقه معتمدا في ذلك على النقد والتحليل العلمي . فجاءت دراسته متكاملة . وفيما يلي عرض مختصر لأهم ما جاء في هذا الكتاب .

يتألف الكتاب من مقدمة وستة فصول وخاتمة اضافة الى قائمة بأسماء المصادر والمراجع المستخدمة ، وفهرس بأسماء الاماكن وآخر بالاعلام .

يتناول الفصل الاول موقع مدينة دمشق وبيئتها ، والدراسات السابقة حول دمشق القديمة . ويشير الى أهم البحوث في هذا الموضوع ويبين أن أول ذكر لاسم المدينة يظهر في قائمة البلدان التي احتلها الفرعون المصري تحوتمس الثالث (القرن ١٥ ق.م) ، والتي كتبت على جدران معبد الكرنك في الاقصر « ت ـ س ـ قو ta - ms - qu » ، وتظهر التهجئة نفسها في قائمة أمنحوتب الثالث من القرن الرابع عشر ، وفي نصوص تل العمارنة يظهر الاسم ثلاث مرات مكتوبا على النحو التالي :
(U R U) di-ma-as qi, (U R U) du-ma-as-qa و (U R U) di-mas-qa

وكذلك يظهر في رسالة مكتشفة في كامد اللوز في البقاع ، تعود الى القرن الرابع عشر ق.م . ويذكر اسم دمشق أيضا في التوراة عدة مرات ، وفي نصوص آشورية حديثة ، وفي نص آخر آرامي قديم .

بعد هذا ينتقل المؤلف للحديث عن اسم دمشق والمملكة التي كانت تحكمها ، فيعرض للنظريات والاراء السابقة فيمحاولات تفسير اسم المدينة ، والتي ترى أن الاسم سامي ، الا أنه يرى أن كل محاولات التفسير غير مقنعة ويعتقد بأن الاسم غير سامي.

أما منطقة دمشق فكانت تدعى أبوم Apum (أو أوبي) خلال الالف الثاني قبل الميلاد ، وآرام في الالف الاول .

البراهين الاثرية منذ أقدم الازمنة :

ان أقدم الاشارات الى استيطان بشري في منطقة دمشق تعود الى العصر الاشولي المتوسط ــ المتأخر من العصر الحجري القديم الادنى ، الذي عرف استيطانا كثيفا في هذه الفترة وخاصة في التلال حول حوض دمشق . ومعظم المستوطنات كانت بالقرب من بردى والاعوج . ومن عصر الباليوليت المتوسط عثر على بعض الشواهد القليلة في مواقع بالقرب من المزة والهامة .

ومن المواقع التي تعود الى العصر الحجري الحديث تل الرماد وتل أسود وتل غريفة ، حيث تمت حفريات أثرية هناك في الستينات والسبعينات من هذا القرن من قبل كل من H. de Contenson, W. j. Van Liere. وأقدم هذه التلال تل أسود وهو تل صغير يقع شرق دمشق ، شرق قرية جديدة الخاص بين بحيرة الهيجانة وبحيرة العتيبة . في حين يقع تل غريفة على بعد نحو ٣٠ كم شرق دمشق و ١٥ كم شمال تل أسود . أما تل الرماد فيقع جنوب غرب دمشق على بعض نحو ١٥ كم .

ولا توجد دراسات عن دمشق خلال العصر الحجري ــ النحاسي والبرونزي المبكر (الالفين الرابع والثالث قبل الميلاد) والحفريات الوحيدة التي تمت في مواقع تعود الى هذه الفترة هي حفريات تل خزامي من قبل كونتنسن عام ١٩٦٧ . وكان موقع هذا التل حيث يقوم الآن مطار دمشق الدولي .

ولا تظهر دمشق في نصوص ابلا المكتشفة في تل مرديخ جنوب حلب . ويبدو أنها بقيت مسكونة خلال هذه الفترة ولكنها ذات اتساع محدود . ويعتقد (فان ليير) بوجود عدد قليل من السكان في منطقة دمشق خلال العصر البرونزي المبكر .

٢ ـ بلاد أبوم في العصر البرونزي المتوسط :

خلال العصر البرونزي المتوسط وجدت اتصالات تجارية وعسكرية هامة بين مصر وفلسطين وجنوب سورية . وتشير نصوص اللعن بشكل واضح الى أن جنوب سورية كان مقسما الى العديد من الوحدات السياسية الصغيرة ،ونجد وصف الاوضاع في العصر البرونزي المتوسط الاول في قصة سنوحي المصرية الموضوعة في عهد سيزوستريس الاول (نحو ١٩٧١ ـ ١٩٢٨) .

ويظهر من خلال المكتشفات الاثرية في سورية ، والعائدة الى العصر البرونزي المتوسط الثاني تشابه في التحصينات وانواع الفخار وبناء المعابد والبيوت . وهذا يبين بأنه كانت هناك روابط ثقافية قوية تربط معظم مناطق الشرق القديم .

توجد أيضا مجموعة كبيرة من الوثائق المكتوبة من هذه الفترة . ويبدو لنا من خلال ذلك أن دول المدن في فلسطين بقيت صغيرة ، في حين وجدت في شمال سورية دول معروفة لنا من خلال وثائق ماري مثل يمحاض وكركميش وقطنة . ولكن محفوظات ماري نادرا ما تذكر ممالك كانت تقع الى الجنوب من قطنة . ويبدو أن منطقة جنوب قطنة كانت تدعى أمورو ،وتقوم فيها عدة ممالك صغيرة . يظهر من احدى رسائل ماري أن بلاد أمورو كانت تشمل المنطقة الممتدة من جنوب قطنة وحتى شمال فلسطين ، وتتألف على الاقل من أربع ممالك صغيرة ، وربما ضمت منطقة دمشق ، التي كانت تدعى آبوم في ذلك الوقت .

تشير نصوص اللعن المصرية الى بلاد آبوم ، وتذكر « أمير أبوم الجنوبية » و « أمير أبوم الشمالية أخ ـ كبكابو » واسم هذا الامير أموري . ويدل ذكر آبوم في نصوص اللعن أن مصر كانت لها مصالح اقتصادية مهمة ، وربما سياسية تمتد الى الشمال .

باستثناء نصوص اللعن لا توجد أية اشارات كتابية أخرى الى منطقة دمشق . كما أن الآثار المكتشفة والعائدة الى هذه الفترة قليلة أيضا. وهذا بالاضافة الى أن غياب اسم دمشق من مصادر العصر البرونزي الوسيط لا يسمح بالقول فيما اذا كانت المدينة مركزا تجاريا مهما في هذه الفترة ، أو أنها قد وجدت بعد كمدينة محصنة .

وهناك بعض المعلومات عن موقع على بعد ١٥ كم شرق دمشق على الضفة الشمالية لنهر بردى ، كان مسكونا خلال العصر البرونزي الوسيط ، هو تل الصالحية (يدعى أيضا تل فرزت) وقد كشفت الحفريات التي جرت هناك عام ١٩٥٢ـ١٩٥٣ عن طبقات

من العصر المذكور وبينت أن الموقع كان مشغولا بمستوطنة غير محصنة في بداية هذه الفترة .

كانت التجارة بالتأكيد جانبا هاما من جوانب حياة منطقة دمشق الاقتصادية ، خلال العصر البرونزي الوسيط والطرق التجارية المعروفة من العصور اللاحقة كانت أيضا موجودة خلال هذا العصر ، وكانت واحة دمشق محطة حيوية على هذه الطرق . والدليل على أهمية دمشق التجارية ختم اسطواني بابلي قديم عثر عليه في دير خبية ، الواقعة على الضفة الشمالية من نهر الاعوج ، على بعد نحو ٢٠ كم جنوب غرب دمشق أثناء عمليات شق طريق عام ١٩٤٨ . ويظهر على الختم إله وإلهة يقفان معا ، ونقش بالكتابة التالية «نينجير سو ـ ابنيشو بن إلشو ـ إبّي خادم (الاله) إنكي» وهو الختم الاسطواني البابلي القديم الوحيد المكتشف في منطقة دمشق . وهو دليل على التجارة ما بين بلاد الرافدين وجنوب سورية الذي يعتبر مفاجئا ، فنصوص ماري تظهر وجود علاقات تجارية هامة مع ممالك بعيدة باتجاه الجنوب مثل حاصور ولائيش في شمال فلسطين .

ولا توجد في نصوص ماري أية اشارات الى منطقة دمشق .

٣ ـ بلاد أوبي upi في العصر البرونزي المتأخر :

بقيت منطقة دمشق معروفة خلال العصر البرونزي المتأخر بالاسم الذي عرفت به في العصر البرونزي المتوسط ، ولكن بشكل معدل (آبوم = أوبي) وذلك حسب التهجئة السمارية للاسم . والمعروف عن تاريخ أوبي خلال العصر البرونزي المتأخر قليل جدا مع أن دورها في السياسة العالمية أصبح أكبر مما كان في العصر السابق ، لان معظم الاشارات الى أوبي في نصوص العصر البرونزي المتأخر تأتي من مصادر مصرية وحثية، وكانت الدولتان الكبيرتان تطمحان الى السيطرة على سورية لذلك تذكران ما يحدث في أوبي .

كان يحكم دمشق في هذه الفترة ، مثلها مثل المدن الاخرى ، « ملك » ، ولكن ملكين فقط من ملوكها خلال الفترة كلها معروفان بالاسم . ومعظم ما يمكن أن يقال عن بلاد أوبي ومدينة دمشق خلال العصر البرونزي المتأخر مرتبط بالتطورات التاريخية للقوى السياسية الكبرى في هذه الفترة وخاصة مصر وميتاني وحاتي .

اشتبكت ميتاني ومصر في صراع من أجل السيطرة على سورية ، وكانت بلاد أوبي تقع على التخوم الشمالية لمنطقة النفوذ المصرية في سورية ، وجنوب منطقة النفوذ الميتانية ، وفيما بعد الحثية . لذلك تعرضت لضغط كلا الجانبين .

ويذكر تحوتموس الثالث في قائمة أسماء ١١٩ مدينة تحالفت ضده وانتصر عليها في معركة مجدّو ، ومن بينها دمشق التي يرد ذكرها لاول مرة هنا . ولكن يبدو انها لم تكن أهم مدن منطقة أوبي ، او مدينة ذات أهمية سياسية كبرى .

أخضع تحوتموس الثالث سورية للحكم المصري ووصل حتى الفرات بعد انتصاره على القوات الميتانية بالقرب من حلب . ولكن هذا لم يدم طويلا ، وأخذ النفوذ المصري يتراجع تدريجيا بعد وفاته .

عصر العمارنة :

سمي بهذا الاسم نسبة الى تل العمارنة الذي اكتشفت فيه نصوص أكادية تعود الى السنوات الاخيرة من حكم امنحوتب الثالث والى عهد أمنحوتب الرابع ـ أخناتون، وتضم رسائل من ملوك دول العصر الكبرى مثل ميتاني وحاتي وبابل . ولكن معظم الرسائل كانت من الحكام التابعين لمصر في سورية .

يبدو أن منطقة النفوذ المصري في سورية في هذا العصر كانت مقسمة الى ثلاث مقاطعات احداها مقاطعة أوبي وعاصمتها الادارية كوميدي **Kumidi** (حاليا كامد اللوز في البقاع) ،وكل مقاطعة كان يديرها حاكم يدعى فيرسائل العمارنة رابيصو **rabisu** = وكيل ـ حاكم . ولا تعرف مدى امتداد النفوذ المصري باتجاه الشمال خلال عصر العمارنة ، ولكن من الواضح أن منطقة أوبي كانت جزءا من منطقة النفوذ هذه حتى حرب شوبيلو ليوما السورية الاولى ، كما ظلت أوجاريت تابعة لمصر حتى عهد نيقمادو الثاني .

وعندما مات أمنحوتب الثالث (نحو ١٣٧٩) كانت الدول الكبرى في الشرق القديم مصر وميتاني . ولكن الوضع تغير بشكل دراماتيكي في السنوات القليلة التالية، بظهور الامبراطورية الحثية تحت حكم شوبيلو ليوما الذي قضى على كل نفوذ ميتاني وادخل شمال سورية تحت سيطرته ، ومد السيطرة الحثية في أواخر عهده الى أوجاريت وأمورو وقادش ، وربما الى أوبي أيضا . ومعظم اشارات مراسلات العمارنة الى دمشق ومنطقة أوبي وجدت في رسائل من الفترة الاخيرة من عهد أخناتون وتتحدث عن التحدي الحثي لهذه المنطقة، فقد شجع الحثيون قيام حلف معادي للمصريين بقيادة تابعهم حاكم قادش ايتوجاما **Aitugama** الذي اتبع سياسة توسعية .

كشفت الحفريات التي تمت عام ١٩٦٩ في سويات العصر البرونزي المتأخر في كامد اللوز في البقاع الجنوبي عددا قليلا من الالواح المسمارية منها واحد فقط كامل ،

وهو رسالة من فرعون مصر الى ملك دمشق زالايا ، وتعود كرسائل العمارنة ، الى القرن الرابع عشر ، وتتضمن أمرا للملك دمشق كي يرسل مجموعة من الخابيرو الى مصر ، حيث سيتم نقلهم الى قرى في كاشا Kasha (النوبة) لتوطينهم هناك، عوضا عن السكان اللذين تمردوا ضد الفرعون وتم تهجيرهم وتحويلهم الى أرقاء .

وتدل هذه الرسالة على أن دمشق كانت في هذه الفترة تحت السيطرة المصرية وبعد موت شوبيلوليوما عاد النفوذ المصري ليقوى في سورية وخاصة في عهد حَرِمْحَب Haremhab ورعمسيس الاول وسيتي الاول الذي أدخل قادش وأمورو من جديد ضمن منطقة النفوذ المصري . وبلغ الصراع مابين مصر وحاتي قمته في معركة قادش (١٢٩٦ ق.م) التي أعقبها صلح بين الطرفين رسم مناطق نفوذهما فيسورية، فخضعت امورو للسيطرة الحثية ، ولكن أوبي بقيت جزءا من الامبراطورية المصرية .

والخلاصة أن ما نعرفه عن منطقة أوبي خلال العصر البرونزي المتأخر قليل جدا، نستمده من وثائق الامبراطوريات التي كانت لها مصالح سياسية واقتصادية في سورية وهي مصر وميتاني وحاتي .ولكن مصادر تاريخ هذه الامبراطورياتلا تذكر أوبي الا عند حدوث أمور فيها . فلا نعرف شيئا عن حكام دمشق أو عن التطورات السياسية الداخلية في منطقة أوبي التي تظهر على مسرح السياسة الدولية غالبا كمنطقة تابعة لمصر ، ودائما على حدودها الشمالية .

٤ ـ دمشق والآراميون :

ظهر الآراميون على مسرح الاحداث في بلاد الرافدين وسورية في أواخر الالف الثاني وبداية الالف الاول قبل الميلاد وأسسوا ممالك عديدة . وتوجد بعض المعلومات عن انتشارهم في بلاد الرافدين وشمال سورية ، في حين أن الاخبار المتوافرة عن وجودهم في جنوب سورية قليلة ومستمدة بالكامل من التوراة التي تبدأ بالحديث عنهم عندما اقاموا دولا عديدة في تلك المنطقة مثل وادي البقاع ودمشق .

اما مدن الساحل فقد بقيت بعيدة عن التأثير الآرامي الرئيسي . ويضع معظم العلماء آرام صوبة في البقاع الشمالي مع امتداد الى شرق جبال لبنان الشرقية وشمال دمشق حتى سهول حمص ، وباتجاه الشرق حتى البادية .

اما في منطقة دمشق فقد قامت دولة آرامية في نهاية القرن الحادي عشر قبل الميلاد ، ولكن حدودها في هذه الفترة غير معروفة بدقة . ويتضح من سفر صموئيل الثاني انه كانت لدمشق علاقات متينة مع آرام صوبة ولكن طبيعة هذه العلاقات

مجهولة . ويبدو أن هدد عزر ملك آرام صوبة جعل عددا من الدويلات ، المتدة الى الشمال حتى الفرات ، تابعة لمملكته . أما دمشق فكانت حليفة له .

أخذت أهمية دمشق بالتزايد مع الزمن لانها كانت واحدة من محطات الطرق التجارية العديدة بين الجنوب والشمال ، من الجزيرة العربية الى شمال سورية ، وبين الغرب والشرق ، من البحر المتوسط الى بلاد الرافدين ، ونمت قوتها بشكل كبير بعد استيلاء ريزون Rezon على السلطة فيها .

٥ ـ آرام دمشق من ريزون حتىاغتصاب حازا إيل العرش (نحو ٩٣١ ـ ٨٤٢/٤٤ :

كانت دمشق في منتصف القرن التاسع عاصمة أقوى دولة في سورية هي آرام دمشق ، التي أصبحت في عهد هدد عزر (له نفس أسم ملك آرام صوبة) الدولة القائدة لتحالف عريض لدول غرب وجنوب سورية، قاوم التوسع الآشوري خلال الفترة ما بين ٨٥٣ ـ ٨٤٥ ق.م . الا أن المنطقة التي كانت تسيطر عليها على الرغم من نفوذها لم تكن واسعة . ففي الشمال منها احتفظت حماة بقوة معتبرة مما حد من توسع دمشق في هذا الاتجاه ، وفي الغرب بقيت دويلات المدن الفينيقية بعيدة عن نفوذها .

وتعد كتابات الملك الآشوري شلمنصر الثالث مصدراً هاما عن تاريخ دمشق في هذه الفترة ، فقد واجه تحالفا قويا تقوده دمشق خلال حملاته في شمال سورية . والكتابة المشهورة التي تتحدث عن اصطدامه بهذا التحالف في قرقر عام ٨٥٣ ق.م . تصف هدد عزر ملك دمشق وأرخولينا ملك حماة بالحليفين الرئيسيين الذين واجها الملك الآشوري في المعركة .

التقى شلمنصر مرة ثانية عام ٨٤٩ ق.م . بتحالف يقوده أيضا هدد عزر ملك دمشق وملك حماة ، ثم التقى مرة أخرى عامي ٨٤٨ و ٨٤٥ ق.م . بتحالف يقوده هدد عزر ملك دمشق . وكان هذا التحالف الآرامي قويا منع الآشوريين من السيطرة على مناطق مهمة في وسط وجنوب سورية .

يتبين من خلال الكتابات الآشورية أن دمشق كانت في عهد هدد عزر من الدول القيادية في سورية وربما كانت الاقوى . باختصار يمكن القول ان الفترة ما بين ٩٣١ـ ٨٤٢/٤٤ ق.م . كانت فترة نهوض دمشق ، فقد تحولت من دولة صغيرة لا أهمية لها الى مملكة قوية ذات شأن . وعندما استولى حازا إيل على السلطة بعد وفاة هددعزر كانت الدولة سائرة في طريق المجد والشهرة ونقلها هو الى مجد وسمو أعظم .

٦ ـ آرام دمشق من صعود حازا إيل حتى سقوط المدينة عام ٧٣٢ ق.م. :

عند تولي حازا إيل السلطة في دمشق طرأ تغيير على الوضع السياسي في وسط وجنوب سورية . فالتحالف المعادي للآشوريين الذي حارب شلمنصر الثالث بشكل ناجح أربع مرات بين ٨٥٣ ـ ٨٤٥ ق.م . كان قد انحل . ومن غير الممكن معرفة فيما اذا كان هذا يعود الى تغيير السلالة الحاكمة في دمشق ، ولكن يمكن أن يكون ذلك أحد الاسباب .

وعندما عاد شلمنصر الثالث مرة أخرى الى سورية عام ٨٤١ ق.م .كانت دمشق فقط من بين الحلفاء السابقين مستعدة للدخول في حرب معه . أما حماة التي كانت تأتي بعد دمشق من حيث الاهمية فقد عقدت سلما مع آشور . وهكذا وقفت دمشق وحدها أمام زحف شلمنصر الثالث . وبالرغم من هزيمة حازا إيل في معركة عند جبل حرمون فان الآشوريين لم يتمكنوا من احتلال دمشق بسبب المقاومة العنيفة التي أبدتها .

عاد شلمنصر مرة أخرى ليحارب دمشق عام ٨٨٣ ق.م . ولكن تفاصيل المعركة غير معروفة بسبب قلة المعلومات وتشابكها ومر بعد ذلك أكثر من ثلاثين عاما قبل أن يعود جيش آشوري مرة أخرى الى هذه المنطقة .

أصبح حازا إيل بعد انسحاب الآشوريين القوة المسيطرة في سورية فاتبع سياسة توسعية على حساب جيرانه . هل وسع حازا إيل منطقة نفوذه شمال دمشق ؟ هذا السؤال يطرح سؤالا أكبر وهو ما اذا كانت دمشق قد اصبحت عاصمة امبراطورية آرامية كبيرة شملت معظم سورية خلال النصف الثاني من القرن التاسع . اعتقد بذلك بعض الباحثين حيث رأوا أن حازا إيل راقب شمال سورية من جبال طوروس وباتجاه الشرق حتى الفرات وذلك بالاعتماد على بعض المعلومات الكتابية والاثرية . وفي الواقع توجد اشارات تدل على ان حازا إيل وسع نفوذه باتجاه الجنوب فسيطر على فلسطين ولكن لا توجد شواهد على أنه كان قادرا على مد نفوذه شمالا الى أبعد من حدوده مع مملكة حماة القوية التي أصبحت عدوا لدودا له . وكان اتساع مملكة حازا إيل كافيا ليجعل من دمشق عاصمة واحدة من أقوى دول سورية في تلك الفترة .

بعد حكم دام أكثر من أربعين عاما توفي حازا إيل (نحو ٨٠٠ ق.م) وخلفه ابنه برهدد الثالث . يعتبر عهد حازا إيل أعظم فترات القوة والازدهار لآرام دمشق ، ولكن ذلك لم يدم مدة طويلة اذ اخذت مملكته في عهد ابنه في التراجع والانحطاط .

ومصادر معلوماتنا عن عهد برهدد الثالث هي التوراة ، سفر الملوك ،وكتابة زاكور الآرامية ملك حماة التي تصف الحملة العسكرية التي قادها برهدد ضد زاكور ، ومجموعة من كتابات ادد نيراري الثالث ملك آشور (٨١٠–٧٨٣) الذي هاجم دمشق وابتلم جزية كبيرة من ملكها الذي يدعى مارتي في الكتابات الآشورية .

ولكن ترتيب الاحداث الواردة في هذه المصادر زمنيا يعتبر من المشكلات الصعبة. على أي حال يبدو أن برهدد الثالث لم يكن قادرا على المحافظة على مملكة دمشق قوية كما تركها له أبوه فقد هاجمها الآشوريون وفشل التحالف ضد زاكور ملك حماة . وبذلك بدأ عهد انحدار بالنسبة لدمشق .

هاجم الاشوريون دمشق مرة أخرى عام ٧٧٣ وأخذوا منها الجزية ، ثم استعادت شيئا من أهميتها في منتصف القرن الثامن .

انتهت فترة ضعف الامبراطورية الآشورية بصعود تيغلات بيليزر الثالث الى العرش (٧٤٥ ــ ٢٧ ٧) وقيامه باصلاح الادارة ، واتباعه سياسة توسعية قائمة على ضم المناطق المحتلة ووضع حكام آشوريين عليها وتهجير سكان المناطق الثائرة . وأدى ذلك الى نهاية دولة دمشق الآرامية عام ٧٣٢ ق.م .

توجد بعض المعلومات القليلة عن آخر ملك حكم في دمشق والذي تدعوه التوراة رصين Resin وحوليات تيغلات بيليزر راصونو rasunu. ويبدو أن هذا الملك حاول تشكيل حلف من الدويلات السورية ضد الاشوريين مما جعل تيغلات بيليزر يحتل دمشق ويدخلها ضمن نظام المقاطعات الاشوري ، لتصبح مقاطعة آشورية .

* * *

من هذا العرض السريع يتبين ان منطقة دمشق كانت في الالف الثاني موضع نزاع بين الدول الكبرى ، ولم يكن لها أهمية كبيرة في أحداث ذلك العصر . وأصبحت اعتبارا من نهاية القرن العاشر ، عاصمة دولة تدعى آرام دمشق وتحولت الى وحدة سياسية وثقافية مهمة . لا توجد مصادر أصلية من آرام دمشق نفسها ، الا أن المعلومات الموجودة في المصادر الآشورية والتوراتية كافية لتؤكد لنا التأثير الاساسي لهذه الدولة على الوضع السياسي في ذلك الوقت، اذ أصبحت الدولة القائدة في سورية خلال القرن

التاسع . والآشوريون أنفسهم عرفوا أن آرام كانت واحدة من العقبات الرئيسة في توسعهم نحو الغرب .

لم يعد لدمشق أية أهمية تذكر بعد احتلالها من قبل تيفلات بيليزر الثالث عام ٧٣٢ ق . م .

باختصار ان كتاب « دمشق القديمة » كتاب جدير بالترجمة الى العربية لانه يعرف بجوانب كثيرة من تاريخ مدينتنا العريقة الضاربة جذوره في أعماق الزمن .

* * *

ما قبل التاريخ في المشرق

د . سلطان محيسن
جامعة دمشق

ما قبل التاريخ في المشرق مؤتمر علمي عقد في المعهد الشرقي التابع لجامعة ليون الثانية في فرنسا ،في الفترة الواقعة بين ٣٠ أيـار و ٤ حزيران عام١٩٨٨ ، وهو المؤتمر الثاني من نوعه حول هذا الموضوع ، ويكمل في أبحاثه المؤتمر الاول الذي عقد في المكان نفسه بين ١٠ و ١٤ حزيران ١٩٨٠ ، وكان موضوعه الرئيسي هو « تأريخ مواقع عصور ما قبل التاريخ وانتشارها منذ وصول الانسان الى المشرق وحتى نهاية الالف الرابع ق.م» أي حتى انتهاء عصور ما قبل التاريخ وابتداء العصور التاريخية القديمة. وقد توصل المشاركون في المؤتمر الاول الى وضع اطار زمني وحضاري يبين الخطوط العريضة لتاريخ مجتمعات ما قبل التاريخ في المشرق ، وعلى امتداد زمن يزيد على المليون سنة * .

حضرت لهذا المؤتمر وعقدته جامعة ليون الثانية : « المعهد الشرقي ، والمركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي C. N. R. S. » وكانت لجنة الاعداد والتنظيم مؤلفة من : فرانسيس أور ** ، المتخصص الكبير في عصور ما قبل التاريخ في الشرق الادنى ، وبول ستانلافيل ، الجيومورفولوجي ومدير بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي ، وأولفييه أورانتش أستاذ ما قبل التاريخ في جامعة ليون الثانية ، وماري كلير كوفان المتخصصة في عصور ما قبل التاريخ ومديرة بحوث في المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

---

* Préhistoire du Levent, C. N. R. S. Paris 1981.

** F. Hours, P. Sanlaville, O. Oranche, M. C. Couvin.

ولم يتسن للباحث الاب أور ، عضو اللجنة المنظمة للمؤتمر ، حضور هذه التظاهرة العلمية الهامة ، اذ توفي في ١٧ نيسان ١٩٨٧ ، فقرر زملاؤه اعتبار المؤتمر تكريما له . ويعد الاب أور بحق أكبر الباحثين في عصور ما قبل التاريخ في المشرق ، وقد عمل في هذا الميدان أكثر من ثلاثين عاما وله دراسات غزيرة لا يتسع المجال لذكرها . وقد احدثت وفاته المبكرة وهو في أوج عطائه فراغا كبيرا .

حضر مؤتمر ليون مائة باحث ، من مختلف البلدان ، يعملون في دراسة عصور ما قبل التاريخ المشرقية ، قدم خمسون منهم بحوثا منوعة ، نذكر منهم على سبيل المثال اضافة الى اللجنة المنظمة : جاك كوفان ، جاك بيزانسون ، لورين كوبلاند ، اندرو غارارد ، تاكيرو أكازاوا ، برنار ڤاندر ميرش ، ستيفان كوزلفسكي ، وغيرهم * وشارك كاتب هذا العرض ببحث تناول مواقع ما قبل التاريخ في منطقة عفرين شمال سورية . كان الحضور العربي ضئيلا اقتصر على جامعة دمشق ، وجامعة اليرموك في الاردن ممثلة بالدكتور مجاهد المحيسن اضافة الى بعض الطلاب العرب الذين يدرسون في فرنسا .

كان الموضوع الرئيسي للمؤتمر هو « **عملية التحول الحضاري منذ البداية وحتى الالف الرابع ق.م** » . وقد قسمت الدراسات المقدمة الى عدة موضوعات فرعية تناول كل منها فترة محددة من عصور ما قبل التاريخ . وقدم المشاركون أبحاثهم في اطار الموضوع الذي يعنيهم ، مرفقة بعرض الشرائح المصورة اللازمة (سلايد) مما جعلها أكثر حيوية وتعبيرا . وكانت الموضوعات تتلى تباعا (خلال ١٥ ـ ٢٠ دقيقة للموضوع الواحد) ، يعقبها نقاش خصص له ٦٠ ـ ٩٠ دقيقة . وكان تنظيم المؤتمر دقيقا ،ولغته الفرنسية وان كانت الانكليزية قد طغت في أحوال كثيرة ، رافقته زيارات ميدانية لبعض المواقع الفرنسية ودعوات مختلفة ، وقدمت فيه بحوث كثيرة يستحق كل منها أن يكون مادة مؤتمر مستقل ، عرضت في جلسات خصص كل منها بموضوع محدد ، كان لي شرف رئاسة أحدها ، ملأت ستة أيام مكثفة ، وتناول فيها الباحثون المكتشفات والافكار والنظريات الجديدة .

افتتح المؤتمر في الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين ٥/٣٠ بحضور ممثلين عن المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي ووزارة التعليم العالي والجامعي . ثم توالت جلسات العمل .

كان موضوع **الجلسة الاولى « الزمن الرابع »** Quaternaire ، وقد قدمت فيها بحوث ذات طابع جيولوجي وجيومورفولوجي وبالنتولوجي ، تناولت التشكلات الجيولوجية الرباعية في المشرق وبخاصة الشواطىء البحرية والاسرة النهرية القديمة ، وعلاقاتها بآثار انسان ما قبل التاريخ ، ودورها في دقة تحديد العمر الزمني لتلك الآثار . وتطرقت أيضا الى التبدلات المناخية التي حصلت في الزمن الرابع ، والبيئة

(*) J. Couvin, J. Besanson, L. Copeland, A. Garrard, T. Akozawa, B. Vandermeersch. S Kozlowski.

الجغرافية القديمة ونوعية الحيوانات والنباتات التي عاشت فيها ، كالفيل ووحيد القرن والحصان والغزال والدب ونباتات اللوز والبطم والزعرور . وأشارت البحوث الى أهمية الشواطىء البحرية والاسرة النهرية الرباعية في تأريخ الادوات الحجرية، وأن منطقة الشرق الادنى عرفت عدة عصور مناخية مطيرة فصلتها عصور جافة تركت كلها آثارها في الطبيعة ، على شواطىء البحر المتوسط وفي وديان الانهار الكبرى كالفرات والعاصي والاردن . ورافقت التقلبات المناخية تبدلات هامة في البيئة فانقرضت أنواع حيوانية ونباتية وظهرت أنواع أخرى جديدة . وكان لكل ذلك الاثر الاكبر على الانسان وحضارته . وحاول بعض المحاضرين الربط بين التشكلات الرباعية في الاناضول وبلاد الشام بهدف ايجاد اطار رباعي عام للمنطقة يفيد من الابحاث الجديدة التي تجرى في حوض الفرات في تركيا وفي منطقة الازرق في الاردن .

وخصصت الجلسة الثانية للعصر الحجري القديم الادنى Paléolithique Inferieur (نحو ٠٠٠ر١٠٠٠ ــ ٠٠٠ر١٠٠ سنة خلت) وعرض فيها آخر المكتشفات ، وبخاصة تلك التي أتت من الاردن والاناضول ، اضافة الى اعادة النظر في بعض المواقع الشهيرة المعروفة مثل العبيدية في فلسطين واللطامنة في سورية . وقد اقترح البعض عمرا مبكرا جدا للعبيدية وهو ٤ر١ مليون سنة ، استنادا الى تحليل لانواع الحيوانات التي وجدت في ذلك الموقع ، مما أثار نقاشا وطرح ضرورة اعادة النظر في تاريخ وصول الانسان الى المشرق ، على ضوء تأريخ العبيدية الجديد ، الذي يحمل على الاعتقاد بأن الانسان الاول قد وصل الى الشرق الادنى وبلاد الشام منذ نحو مليون ونصف مليون سنة خلت، أي اقدم بنحو نصف مليون سنة مما كان يظن . وقد أكدنا أثناء الجلسة بأننا اذا اعتبرنا تأريخ العبيدية مقبولا ، وهو تأريخ غير مطلق وانما نسبي اعتمد فقط على البقايا الحيوانية التي ليست لها دائما دلالة زمنية قاطعة ، فان ذلك يجب أن يؤدي الى اعادة النظر بتأريخ المواقع السورية المشابهة للعبيدية مثل ست مرخو في حوض نهر الكبير الشمالي في محافظة اللاذقية ، لان ست مرخو معاصرة للعبيدية ، وهناك تشابه واضح في أنماط الادوات الحجرية بين الموقعين السوري والفلسطيني .

وطرحت في الجلسة العلاقة بين مختلف الصناعات الحجرية في الباليوليت الادنى بمراحله المتعددة ، الطبيعية المناخية والبيئوية لكل مرحلة، وذلك من خلال توزع المواقع في مختلف المناطق الجغرافية . فقد لوحظ مثلا أن المواقع الاثرية العائدة الى المرحلة المسماة « الاشولي الاعلى » تنتشر في كل المناطق الجغرافية في المشرق مما يدل على سيادة مناخ مناسب مطير وفر امكانية العيش للناس حيثما كان . في حين ظهر أن المواقع العائدة الى المرحلة اللاحقة المسماة « الاشولي الاعلى المتطور» تتمركز في الواحات والوديان وهذا يشير الى قيام مناخ جاف دفع الناس الى التجمع في تلك المناطق التي حافظت على ثرواتها المائية .

وخصصت الجلسة الثالثة لموضوع العصر الحجري القديم الاوسط ، أي الباليوليت الاوسط Paleolithique Moyen الذي يغطي الفترة الواقعة بين ۱۰۰٫۰۰۰ ـ ۳۵٫۰۰۰ سنة خلت . وقد قدمت فيها بحوث أحدثت نقاشا مثيرا حول النوع البشري الذي عاش في المشرق في ذلك العصر ، أي انسان النياندرتال ، وعلاقته بالانواع الاخرى التي سبقته أو تبعته . فقد ذكرت احدى الدراسات (فاندرميرش)أن الانسان العاقل قد أرخ له في موقع جبل قفزة في فلسطين بنحو ۹۰ ألف سنة خلت ، وأن النياندرتال قد ارخ في موقع الكبارا في فلسطين أيضا على نحو ٦٠ ألف سنة مضت، مما يحمل على الاعتقاد بأن الانسان العاقل في بلاد الشام قد سبق النياندرتال وهو أقدم منه ولم يكن متطورا عنه كما كان يظن حتى الان ، وانما تطور مباشرة من الهومو أركتوس Homo - Erectus الذي وجدت بقاياه في فلسطين ، وان النياند رتال الفلسطيني قد أتى من أوربة ، مدفوعا بتبدلات مناخية حادة ، وانه تعايش وتعاصر مع الانسان العاقل في المشرق . وقد شكل ذلك انعطافا حادا في معارفنا الحالية التي تؤرخ للانسان العاقل بنحو ٤٠٫۰۰۰ ـ ۳۵٫۰۰۰ سنة فقط وتعتبره متطورا ، في فلسطين على الاقل ، عن النياندرتال . وكان لهذا الموضوع جانب آخر ليس أقل أهمية . الا وهو طبيعة العلاقة بين العرق والحضارة ، وهل يجوز الربط بين الاثنين في عصور ما قبل التاريخ ، لان الادوات الحجرية المسماة « الموستيرية » التي كان يعتقد أنها من صنع النياندرتال تبين أنها من انتاج الانسان العاقل أيضا . وهكذا نرى أن هذين النوعين البشريين المختلفين قد عرفا حضارة واحدة ، مما يقلب رأسا على عقب مقولة التوافق بين النوع البشري وبين الحضارة ، التي أخذ بها حتى الان أثناء دراسات العصور الحجرية ، ويدعو الى الظن بأن أنواعا انسانية مختلفة قد مارست حضارات متشابهة . ومهما يكن فاننا لا زلنا بحاجة الى أبحاث متواصلة حتى نستطيع البت في تلك الامور الخطيرة . كما عالجت بحوث أخرى تقنيات تصنيع الادوات الحجرية في الباليوليت الاوسط وتطور تلك الادوات ،اضافة الى المكتشفات الجديدة وبخاصة التي أتت من منطقة وادي عفرين حيث كشف المسح الذي قام به كل من عادل عبد السلام وسلطان محيسن من جامعة دمشق ، وتاكيرو أكازاوا من جامعة طوكيو ، عن عشرات المواقع ذات المعطيات الاثرية والجيولوجية والمستحاثية الهامة . ويتوقع أن تؤدي التنقيبات المزمع القيام بها في المستقبل الى اثارة العديد من القضايا الهامة حول تلك المرحلة من عصور ما قبل التاريخ.

كما تناولت البحوث أيضا مكتشفات جديدة أخرى أتت من بقية بلدان الشرق الادنى كتركيا والاردن وفلسطين .

وخصصت الجلسة الرابعة للعصر الحجري القديم الاعلى ، اي الباليوليت الاعلى Paleolithique Superieur بين ۳۵٫۰۰۰ ـ ۱۲٫۰۰۰ سنة ق.م. وقد ركزت البحوث

المقدمة فيها على العلاقة بين هذا العصر والعصر الذي سبقه ، والذي تلاه ، ولا سيما المرحلة الانتقالية بين الباليوليت الاوسط والباليوليت الاعلى ، وفيما اذا كنا نستطيع الاستمرار في اعتبار ما يسمى « حضارة الاميرة » لتلك المرحلة الانتقالية . اذ أن الاكتشافات الاخيرة قد اثبتت أن الادوات الحجرية من نمط «الاميرة» قد ظهرت قبل هذا العصر ومنذ الباليوليت الادنى. كما نوقشت المراحل الحضارية الاخرى في الباليوليت الاعلى وبخاصة ما سمي « الاورينياسي المشرقي » وهي الحضارة الرئيسية التي لا زالت مجهولة الاصل والانتشار . لكن الاتجاه العام الذي طرحته الدراسات يدل على أن الاورينياسيين الذين اشتهروا بصناعة الحراب الطويلة وكانوا من نوع الانسان العاقل، هم من أصل مشرقي ، انتقلوا الى أوربة ليصلوا هناك الى قمة تطورهم ويمهدوا للحضارات الفنية ، كالسولوترية والمجدلانية، ذات المستوى الفني والتقني والاجتماعي الرفيع . وكان الجديد والهام بين ابحاث هذا الموضوع هو الاكتشافات الاخيرة التي أتت من منطقة الكوم في البادية السورية وأكدت أن سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر خلافا لما طرح سابقا ، وأن المعلومات التي كنا نملكها عن مجتمعات الباليوليت الاعلى السوري لم تكن نهائية ، وما لبث البحث الاثري أن بدلها ليثبت الوجود البشري الهام في تلك المرحلة أيضا ، مما يفسح المجال أمام مقارنات وأحكام جديدة تخالف الاحكام السابقة .

وعقدت الجلسة الخامسة : على امتداد يوم الاربعاء ١/٦ وكان موضوعها **عصر الباليوليت الاخير** Epipaleolithic أو الميزوليت Mezolithique كما يسميه البعض ، وهو العصر الانتقالي بين العصر الحجري القديم (الباليوليت) والعصر الحجري الحديث (النيوليت ١٢٠٠٠ — ٨٠٠٠ سنة ق.م) . وقد عالجت البحوث أصل العلاقة وطبيعتها بين المجتمعات التي عاشت في ذلك العصر وهي المجتمعات المسماة الكباريه ثم الكباريه الهندسية وأخيرا النطوفية ، وقد عدت هذه الحضارات مراحل تطورية متصلة شكلت كل منها درجة أعلى وأكثر تنوعا على طريق تطور مجتمعات ما قبل التاريخ في المشرق. كما عرضت مكتشفات جديدة أتت بخاصة من الاردن مثل مواقع رأس النقب والقويرة ووادي الحمه وخرانه والجيلات وغيرها وكلها أعطت آثارا كبارية ونطوفية غنية ومنوعة تضاهي ما عثر عليه حتى الان من فلسطين وسورية الشمالية . وتناولت بعض التقارير الاعمال الجديدة التي تجري في مواقع فلسطينية قديمة مثل أريحا والتنقيبات في المواقع السورية مثل الندوية . وتوصل النقاش الى أن الحضارات الباليوليتية الاخيرة في المشرق كانت متشابهة ومنفتحة على بعضها الى درجة كبيرة وأكثر مما كان يظن البعض، وأنه من غير الصحيح مثلا التحدث عن النطوفي في فلسطين فقط دون النظر بعين الاعتبار الى بقية بلدان الشام لانه ثبت أن النطوفيين قد انتشروا ومنذ الالف العاشر ق.م على مساحة واسعة من المشرق ، امتدت من وادي النيل في الغرب وحتى وادي الفرات

في الشرق ، وانهم يمثلون تجانسا حضاريا ، وربما عرقيا ، واحدا بالرغم من بعض الاختلاف حسب المناطق . فالاثار النطوفية الدالة كالبناء والمقابر والفنون والادوات الثقيلة والادوات العظمية وغيرها اتت من سورية ولبنان والاردن أيضا .

وملأت الجلسة السادسة : طيلة يوم الخميس ٦/٢ وتناولت الدراسات المقدمة فيها عصر **النيوليت ما قبل الفخار آ**، Pre - Pottery Neolithic A. أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار آ (٨٠٠٠ ـ ٧٦٠٠ ق.م) . فعرضت الاكتشافات الجديدة التي أتت بخاصة من العراق من مواقع قرمز ديره ونمروك العائدة لهذا العصر وتعد تلك الاكتشافات ذات أهمية بالغة لانها تملأ الفراغ القائم في تلك المرحلة في بلاد الرافدين ، كما أنها تثبت ظهور المجتمعات الزراعية الباكرة هناك ، تلك المجتمعات ذات الصفات العامة المشتركة مع مثيلاتها في بلاد الشام ، كما تجلى ذلك من خلال آثار الابنية والادوات والفنون . وبذلك تصبح بلاد الرافدين أيضا من أهم مصادر المعلومات عن مجتمعات العصر الحجري الحديث الذي حصل فيه الانعطاف الاكبر أثرا في تاريخ البشرية وهو الانتقال من حياة الصيد والالتقاط والتنقل الى الاستقرار وابتكار الزراعة والتدجين . وقد جرى في الجلسة نقاش مسهب وشيق حول الاصل الاول للزراعة ، وأين ظهرت لاول مرة وكيف انتشرت في العالم ، وتباينت الآراء ، فمن قائل أن الزراعة ظهرت في منطقة واحدة هي المشرق القديم ومنه انتشرت الى بقية أنحاء العالم ، الى آخر يقول بوجود عدة مناطق في عدة قارات نشأت فيها الزراعة بشكل مستقل . وقد طرحنا نحن حوضة دمشق كموطن أول للزراعة ، وذلك استنادا الى الدلائل التي أتت من تل أسود في تلك المنطقة والتي تثبت معرفة الزراعة منذ مطلع الالف الثامن ق.م. وقلنا بأنه من حوضة دمشق انتشرت الزراعة فيما بعد الى بقية البلدان المجاورة والى العالم . ومهما يكن فلقد ساد اتجاه عام بأن الزراعة قد نشأت في مكان ما من وادي الفرات أو الاردن أو غيره من بلاد الشام حيث عاشت الحبوب البرية ، القمح والشعير التي زرعت، الى جانب الحيوانات الوحشية (الماعز والغنم والبقر) التي دجنت أيضا. كما لفت النظر الى أن مجتمعات العصر الحجري الحديث الباكرة مارست، قبل الزراعة المنظمة ، نوعا من « الزراعة العفوية » وذلك من خلال الاستفادة المكثفة من الحبوب البرية بعد أن ضبطت طرق وأوقات نموها ونضوجها وحصادها .

وملأت الجلسة السابعة : يوم الجمعة ٦/٣ وعالجت **عصر النيوليت ما قبل الفخار ب** .Pre - Pottery Neolithic B أي العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار ب، (٧٦٠٠ ـ ٦٠٠٠) وكانت المفاجأة الاهم هنا هي الاكتشافات المثيرة من الاناضول في تركيا من موقع نفالاكوري Nevala Cori ، اذ كشف عن مستوطنة كبيرة فيها اثار بناء وأدوات وتماثيل ونصب ضخمة ورائعة لم يعثر على مثيل لها في أي موقع معاصر حتى

الان ، مما أذهل الحاضرين ودفع الجميع الى التفكير بضرورة اعادة النظر في أحكامنا حول مجتمعات هذا العصر لان هذه المكتشفات الاناضولية ، تذكرنا من جهة أولى بمكتشفات أريحا وأسوارها وأبراجها الدفاعية ، وتشير من جهة ثانية الى أننا أمام مستوطنة منظمة ترقى الى مستوى « الدولة » التي قامت على راسها سلطة قوية أشرفت على شؤون الناس منذ الالف الثامن والسابع ق.م . وهذا يعتبر تحولا جذريا في معلوماتنا عن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والسياسي لمجتمعات عصور ما قبل التاريخ ، كما عرضت في هذه الجلسة اكتشافات هامة اخرى أتت من الاردن من مواقع عين الغزال والبسطة التي قدمت دلائل مادية وفنية تجعل منها مصادر مركزية في فهم التطور الحضاري في المشرق العربي القديم . وتم تناول الاعمال الجارية في بعض المواقع السورية مثل الكوم ، حيث ازدهرت قرية زراعية هامة ، اضافة الى عرض مكتشفات فلسطينية ورافدية .

وجرى نقاش مطول حول علاقات مجتمعات هذا العصر المشرقية مع بعضها ، انتهت الى القول بوجود وحدة حضارية عميقة وشاملة ربطت بين أرجاء المشرق العربي القديم ، والاناضول ضمنا ، وبالرغم من أن هذه الوحدة لم تكن دائما واضحة بشكل مباشر ، ولها المظهر نفسه ، لكن جوهرها كان واحدا وعبرت عن نفسها بصيغ مختلفة في المجالات الاقتصادية والروحية ، أو غيرها .

اضافة الى الدراسات ذات الطابع الاثري البحث ، عرضت في جلسات المؤتمر بحوث تطرقت الى العلوم المساعدة لعلم آثار ما قبل التاريخ كالجيولوجيا ، والبالنتولوجيا وطرق التأريخ الفيزيائية أو غيرها ومناهج البحث وفنونه وأدواته ودراسات تقنية وحسابية وغيرها من المواضيع المكملة لموضوع المؤتمر الرئيسي .

وفي صباح يوم السبت ٦/٤ عقدت الجلسة الختامية ، وقدم فيها كل من فاندرميرش وجاك كوفان عرضا شاملا لنتائج أعمال المؤتمر من خلال تبيان ما تم انجازه وما لم ينجز بعد ، والاسئلة التي اجاب عليها المؤتمرون ، والموضوعات التي ما زالت بانتظار المزيد من الابحاث ، وما هو الواقع الراهن لمعرفتنا بمجتمعات عصور ما قبل التاريخ ، وانصرف المشاركون في المؤتمر مزودين بافكار ومعلومات جديدة أنارت امامهم طريق البحث الطويل .

وستنشر وقائع المؤتمر عام ١٩٨٩ في عدد خاص من مجلة الشرق القديم Paleorient ، التي يصدرها المركز الوطني للبحث العلمي الفرنسي .

الموحدون وبنو غانية

علي أحمد

تعد حركة بني غانية من أكبر الحركات التي قامت ضد الموحدين وأكثرها أهمية وخطرا ، فقد جاءت في وقت اشتدت فيه الهجمة الاوروبية ضد العرب والمسلمين وشملت كل ديار العرب والاسلام في المشرق والمغرب ، وعاقت تدخل الموحدين في الاندلس ، في حين كانت فيه قوى الخصوم في أحسن أحوالها ، تسير نحو التوحيد ، وقد ازدادت تصميما على طرد العرب والمسلمين من الاندلس .

ومما ساعد على قوة هذه الحركة واستمرارها ، أن بني غانية استمالوا الى جانبهم جميع العناصر الناقمة على الموحدين ، مثل القبائل الصهناجية وبني حماد ، وقوات الهلاليين والسُليميين والغز ، الذين كان الموحدون يرون أنهم ما قدموا لافريقية الا للقضاء عليهم ، وبخاصة أولئك الذين أرسلهم صلاح الدين الايوبي في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، وعدوا استمرارا لمن سبقهم من قبائل هلال وسليم في القرن السابق . اضافة الى بعد عاصمة الموحدين عن منطقة نشاط بني غانية ، وعدم وجود جيش قوي لهم في افريقية للدفاع عنها . ومن جملة ما أسفرت عنه هذه الحركة ، عدا الخراب والدمار الذي حل بحواضر المغرب العربي جراء العمليات الحربية ، ظهور دولتين جديدتين في المغرب : الدولة الحفصية في تونس التي عاشت حتى قضى عليها العثمانيون في القرن السادس عشر ، ودولة بني عبد الواد في تلمسان .

أصل بني غانية :

كان الحاكم المرابطي الثاني علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل الى الاندلس رجلين ، أولهما يحيي وثانيهما محمد ، وهما من قبيلة مسوفة الصنهاجية ، ووالدهما يدعى علي ، وقد عرفا **بابني غانية** نسبة الى امهما ، وهي أميرة مرابطية زوجها يوسف ابن تاشفين لعلي المسوفي زعيم مسوفة . وقد عرف يحيي بشجاعته النادرة ، فكان على بن يوسف بن تاشفين يعتمد عليه في الامور الكبيرة والمهمات الصعبة ، فقد ولاه أول الامر على مرسية ثم بلنسية ، وذلك بعد وفاة واليها بدر بن ورقاء ، حيث نجح في الوقوف في وجه ملك آراغون(١) ثم جعله واليا على قرطبة ، وبقي واليها حتى مات .

وأثناء ولايته على بلنسية وفي سنة ٥٢٩هـ/١١٢٣م القى ابن رذمير البرشلوني الحصار على مدينة افراغة ، وعندما طال الحصار ضاقت أحوال السكان فيها فكتبوا الى ابن غانية طالبين منه مد يد المساعدة ، والا فانهم سيعطون أمر القيادة الى ابن رذمير ، فاستجاب لطلبهم وأخذ يستعد للقائه . فقال له بعض خواصه : « ليس للمسلمين عسكر بالاندلس سواه (جيش ابن غانية) فكيف تلقى علي بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت ، فقال ، فليصنع بي ما شاء ... » . وتوجه بمن معه من الجيش واستطاع أن يفك الحصار على مدينة افراغة(٢) .

أما محمد الاخ الثاني ، فقد كان واليا على بعض أعمال قرطبة ، ولكن أحواله اضطربت عند موت أخيه يحيي ، فشرع في التجوال في بلاد الاندلس ، في الوقت الذي كانت تقوى فيه دعوة المصامدة وتنتشر (٣) فلما استبد به الخوف قصد مدينة دانية ، ومنها عبر الى ميورقة ، بأمر من ابن تاشفين على حد قول بعضهم ، يرافقه جميع أهله، فاستولى عليها وعلى جزيرتين أخريين ، هما منرقة ويابسة . ويرى بعض المؤرخين : أن الحاكم المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين ، هو الذي نفاه الى هناك بقصد أن يسجنه(٤) .

استقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر استقلالا تاما . وكان يعتمد في الانفاق على وارداتها ، اضافة الى وارداته من أعمال الغزو والقرصنة . وحتى يضفي على سلطته الصفة الرسمية ، كان يدعو لبني العباس ، باعتبارهم رمز الخلافة الواحدة(٥) وقد أطلق الجغرافيون المحدثون على الجزر الآنفة الذكر ، اسم جزر (الباليار) وأكبرها جزيرة (ميورقة) . ويحدها من الجنوب بجاية ومن الشمال برشلونة ومن الشرق منرقة ومن الغرب يابسة . ويبلغ طولها نحو سبعين ميلا ، وعرضها خمسين . فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ/٩٠٣م ، وتعاقب عليها ولاة متعددون في عصر المرابطين ، الى أن وليها محمد بن علي بن غانية المسوفي(٦) .

أما جزيرة منرقة ويابسة ، فهما ابنتا جزيرة ميورقة . وتشتهر يابسة بكرومها وأعنابها ، وفيها بعض الانهار ، وأقرب أرض برية لها ، هي مدينة دانية (٧) .

علاقة بني غانية بالموحدين :

استمرت الحرب بين المرابطين والموحدين قرابة سبع سنوات من سنة ٥٣٤ — ٥٤١ هـ / ١١٣٩—١١٤٧م . انتصر الموحدون في نهايتها بقيادة عبد المؤمن بن علي خليفة المهدي بن تومرت ، الذي استطاع أن يضم الى حكمه معظم الاراضي المغربية والاندلسية(٨) الا أن بني غانية ، حكام جزر الباليار ، لم يمتثلوا لطاعته ، بل كانوا يحلمون بالسيطرة على المغرب والاندلس على حد سواء . وعلى الرغم من أن عبد المؤمن

استطاع أن يخضع معظم أنحاء المغرب والاندلس لسلطانه ، الا أنه لم يتصد لبني غانية الخارجين على سلطته ، والذين يدعون لبني العباس . ويبدو ان ذلك لم يكن واردا في برنامجه ، لاسباب لا نعرفها على وجه الدقة ، الا أنه من الممكن القول ، ان بُعد جزر ميورقة ويابسة ومنرقة ، كان سببا مهما في تأجيل ضم الموحدين لها الى وقت يكون مناسبا في المستقبل ، هذا اضافة الى أن عبد المؤمن بن علي لم يكرس كل وقته للأندلس . واستمر الوضع على هذه الحال طوال فترة حكم عبد المؤمن وابنه يوسف بن عبد المؤمن تقريبا ، الذي تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م . الا أنه أرسل وفدا في سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٤م الى اسحق بن محمد بن غانية(٩) ، يدعوه للخضوع ، لكنه رفض ذلك ، واستمر في الاعتراف بسيادة العباسيين في بغداد . وتجنب الصراع مع الموحدين بتقديم هدايا ثمينة للخليفة الموحدي(١٠) .

وكان الحاكم الموحدي يأمل ، أن يكون ذلك مقدمة للاعتراف بسلطانه والخروج من الدعوة للعباسيين . لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، فظل الامر عند حدود الاتفاق ، مما جعله يقوم بمسعى آخر ، ومات قبل نجاحه(١١) .

بعد وفاة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م (١٢) ، تولى أبو يوسف المنصور .وفي الوقت نفسه مات اسحق بن محمد بن غانية وترك خلفه تسعة أولاد ، وكان عهد بالحكم من بعده لاكبرهم علي(١٣)، وقد عرف بمعارضته الشديدة للموحدين .

وفي بداية حكم يعقوب المنصور ، أرسل قوة بقيادة أبي الحسن علي بن الربرتير الى جزيرة ميورقة ، ليعرض على ابن غانية علي بن اسحق الدخول في طاعته . فأبحر أبو الحسن من مدينة سبتة الى جزيرة ميورقة ، وقوبل بالترحاب عند وصوله اليها . وبينما كان منشغلا في الجدال مع أعيان الجزيرة ، أرسلوا من قام بنهب عدة المراكب ، التي أبحر عليها عند انطلاقه من مدينة سبتة ، ثم اعتقلوه ووضعوه في الاسر(١٤) وهذا بعرف بني غانية يعني الحرب ، لذلك صمم علي بن اسحق بن غانية على الهجوم على الموحدين ، فقام بغزو المغرب الشرقي . ويبدو أن بني غانية كانوا على درجة من القوة تسمح لهم بالغزو ، اذا قارنا ذلك بالوضع القائم في شرق المغرب ، حيث كان الخليفة الجديد أبو يوسف ، ما زال منصرفا الى تثبيت مركزه(١٥) . بالاضافة الى ذلك ، هناك عوامل اخرى تبدو مهمة شجعتهم على الغزو ، لعل في مقدمتها أن أهل بجاية هم الذين دعوا ابن غانية الىامتلاك مدينتهم عوضا عن الموحدين ،الذين كانوا مشغولين فيالاندلس بوفاة الامير يوسف بن عبد المؤمن وببيعة أبي يوسف يعقوب بن يوسف . فقد ظن ابن غانية أن أمرا ما سيسبب خلافا بين زعماء الموحدين . ولولا ذلك لما تشجع على الخروج الى بجاية(١٦) . ويمكن القول ، أن دعوة أهل بجاية الى ابن غانية بالمجيء لاحتلال مدينتهم ، يكمن خلفها وعد بمساعدته ، ومثل هذه المساعدة تكون قوية فيغالب

الاحيان ، لانها نابعة ربما عن قناعة لسبب من الاسباب كانوا يعانـون منه ، أو أنهـم يرومون من وراء ذلك أشياء أخرى قد يحصلون عليها في ظـل حكم بني غانية . هـذا بالاضافة الى وفاة أمير المدينة الموحدي . واذا كان لنا من كلمة نقولها ، فهي أن بنـي غانية أحسنوا التوقيت في هجومهم .

ففي شعبان من سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م هاجم علي بن غانية مدينة بجاية واحتلهـا دون صعوبات تذكر ، وقبض على السيد أبي موسـى بن عبد المؤمن ، وكان قافلا مـن من افريقية يؤم المغرب مع أهله وذويه . وتوجه ابن غانية بعـد ذلك الى محاربة أبـي الربيع حاكم المدينة الجديد الموحدي ، وكان بالقرب منها عند دخول ابن غانية اليها ، فالتقى معه في موقع يقال له (باميلول) ودار قتال أسفر عن هزيمة أبي الربيع بعد أن استشهد معظم رجاله ، ففر الى الجزائر ،فوجدها غير مناسبة لانها كانت غير حصينة، فغادرها الى تلمسان واستقر بها . ولم يقف ابن غانية عند هذا الحد انما توجه الـى الجزائر فاحتلها وولاها لابن أخيه طلحة ، ومن ثم ذهب الى مليانة فاستولى عليها أيضا وولى عليها بدر بن عائشة(١٧) . وبذلك سيطر على افريقية كلها ما عدا تونس والمهدية وقسنطينة . وساعده في ذلك ، أنه استمال الى جانبه قبائل سـليم ورباح وجشـم وغيرها من القبائل التي كانت قد هاجرت من المشرق خـلال النصف الاول من القـرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي . هذا بالاضافة الى أنه عقد حلفا مع الاتراك، الذين أرسلهم صلاح الدين الايوبي الى ليبيا واحتلوا معظمها آنذاك بقيادة (قراقوش). فقد كان صلاح الدين الايوبي يود أن يمد ملكه الى المغرب بأسره ، في الوقت الذي كان العرب يعيشون أسوأ أيامهم من جراء التهديدات الصليبية المستمرة في المشرق والمغرب على حد سواء . وكان صلاح‌الدين قد جرب الطرق السلمية للالتقاء مع الموحدين ، بأن أرسل اليهم بعض السفارات التي لم تسفر عن نتائج ايجابية . ولكـن الذي يجب أن يشار اليه هنا قبل كل شيء هو أن تحالف قوات صلاح الدين الايوبي مع بني غانيـة ضد الموحدين ، لم يكن القصد منه الحصول في النهاية على مكاسب اقليمية فردية ، بقدر ما كان لأجل اعادة اللحمة بين جناحي‌العرب والاسلام في الشرق والغرب ،وبالتالي الوقوف بقوة في وجه الهجمة الصليبية . والامر يختلف بالنسـبة لمقاصد بني غانيـة وأهدافهم من تمردهم ضد الموحدين والذي كان يهدف الى تحقيق مكاسب شـخصية تتمثل في حب السيطرة وشهوة الحكم والظهور . وهكذا فقـد اجتمعت جميع هـذه القوى تحت طاعة المتمرد ابن غانية ولقبوه أمير المسلمين(١٨) .

وهذا الاحتلال السريع من قبل قوات بنـي غانية والقوات المساعدة لها مـن أن أتراك وهلاليين وسليميين ، ان دل على شيء فانما على ضعف شديد في القوى المدافعة عن تلك المدن،وربما لأن الموحدين لم يعتمدوا قوات كبيرة للدفاع عن تلك المناطق.وفوق كل هذا ، اعتمدت القوات المتمردة على عنصر المفاجأة والسرعة وحسن التوقيت ، الامر الذي ساعد على احتلالها خلال وقت قصير جدا ودون صعوبات كبيرة .

وقد وجد ابن غانية ، أن ما فعله هو فوق قدرته وطاقته ، وانه لا يستطيع أن يحافظ على كل ما احتله من أرض، وأن أخطارا كبيرة ستهدده اذا ما توغل أكثر . لذلك آثر العودة الى مدينة بجاية واخذ البيعة من أهلها ، وبعد أن نهب جميع أموالها وممتلكاتها ، توجه الى قسنطينة وألقى عليها الحصار (١٩).

ولما سمع الحاكم الموحدي يعقوب المنصور بأفعال ابن غانية هذه ، شرع في تجهيز جيش كبير انتقى له أشجع رجاله ، وترك لهم وقتا كافيا كي يتدربوا على استعمال الآلات الحربية بشكل جيد ، وزودهم بأموال كثيرة ، واوكل قيادة الجيش لأبي محمد ابن أبي اسحق بن جامع ، فانطلق من مدينة سبتة باتجاه فاس وتوقف فيها فترة وجيزة تابع بعدها الى تلمسان، وكان واليها في ذلك الوقت السيد أبا الحسن بن السيد أبي حفص الى جانب أبي الربيع ، الذي استقر فيها بعد هزيمته من قبل بني غانية على الصورة التي ذكرت آنفا . ومن تلمسان تابع الجيش سيره الى الجزائر ، فاحتلها اضافة الى مليانة ، وهرب واليها بدر بن عائشة الذي ولاه علي بن غانية ، ومنها استمر زحفه الى بجاية ، واستطاع أن يسترجعها بعد أن فر واليها ولحق بعلي بن غانية ، الذي كان ما زال على حصار مدينة قسنطينة وكان ذلك في ربيع عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥ م .

وأخيرا اضطر بنو غانية للهرب باتجاه الشرق ، بعد أن اقلعوا عن حصار قسنطينة (٢٠)، في هذه الاثناء حدثت تغيرات هامة فيجزر الباليار ، فعندما كانت قوات ابن غانية تتراجع مهزومة أمام الموحدين ،حدثت ثورة من قبل أبي الحسن بن الربرتير، بعد أن تمكن من التخلص من سجنه . وساعده فيالثورة سكان الجزر من المسيحيين(٢١) فأعمل القتل في أهلها بعد نهب ممتلكاتهم ، وعقد صلحا مع أبي عبد الله بن اسحق بن غانية على الطاعة للموحدين واقامة الخطبة للمنصور الحاكم الموحدي(٢٢).

وفي سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م جهز يعقوب المنصور جيشا كبيرا من الموحدين وقصد مدينة تونس ، وهناك دارت معركة قاسية بين الطرفين ، في موضع يدعى عمرة (٢٣)، هزم فيها الموحدون وقتل معظم قادتهم واشياخهم . ولكن المنصور لم يسكت على الهزيمة ، فسار على رأس الجيش هذه المرة باتجاه القيروان ، ومنها تابع زحفه حتى وصل على بعد عشرين كيلومترا من بلدة (الحامة) حيث دار قتال بينه وبين قوات بني غانية ، أسفر عن هزيمة هؤلاء (٢٤) . وتمكن المنصور من فتح مدينة قابس ، ثم توجه الى قفصة ، وكانت قد انتفضت الى جانب بني غانية ، وبرىء أهلها منطاعة الموحدين، وبعد حصار طويل دخلها عنوة ، وأعمل القتل بأهلها وفي ذلك يقول الشاعر الزويلي :

سائل بقفصة هل كان الشقي لها ... وكانت له حمالة الحطب
لما زنت وهي تحت الامر محصنة ... حصبتموها أتباع الشرع بالحصب(٢٥)

وفي هذه الاثناء وصلت الى المنصور رسالة من قراقوش يعرب فيها عن رغبته في دخول طاعة الموحدين ، ومعه جميع عناصر الغز الذين جاؤوا من مصر كما ذكر(٢٦) .

وقد وجد الخليفة المنصور بعد ذلك ، أن من الضروري جدا اخضاع قبائل العرب الاخرى من هلال وسليم وغيرهما وحرمان ابن غانية من معونتهما ، فطاردهم وصادر أملاكهم ، فجاؤوا اليه طائعين تائبين ، فنقل أهل الخلاف والفتنة منهم الى المغرب الاقصى ليتقي شرهم ، وأنزل قبيلة رباح من بني هلال ببلاد فيما بين قصر كتامة المعروف بالقصر الكبير الى أزغار البسيط الانج،ومنه الى ساحل البحر الاخضر .وأنزل قبائل جشم ببلاد تاسنا ، ما بين سلا ومراكش (٢٧) . وبعد أن توطدت الامور في افريقية على هذا الشكل ، عاد يعقوب المنصور الى مراكش ووصلها ٥٨٤هـ/١١٨٨م ، فوجد أن أخاه عمر وخاله سليمان، استغلا فترةغيابه، واخذا يعملان لعزله. لكنه تمكن منهما وقتلهما(٢٨) .

أما علي بن اسحق بن غانية ، فقد مات بعد معركة (الحامة) بوقت قليل ، وكان عند خروجه من جزيرة ميورقة قد اصطحب معه اخوته الاربعة ، عبد الله ، ويحيى وأبو بكر ، وسير ، فاتفقوا فيما بينهم على تقديم يحيي عليهم خلفا لأخيهم علي لما رأوا من شجاعته وشهامته ، وساروا باتجاه الصحراء وأقاموا حتى عاد المنصور الموحدي الى مراكش(٢٩) .

وقد تبين للمنصور الحاكم الموحدي ، بعد وصوله الى مراكش ، أنه ليس أمينا على حكمه اذا ترك مراكش وعاد الى تونس . لذلك فقد كان باستطاعة ابن غانية وأنصاره استئناف نشاطهم الحربي ضد الموحدين ، وبالفعل استمرت ثورتهم بعد وفاة علي بن غانية سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بقيادة أخيه يحيي(٣٠) . وقد برهنت الاحداث على ان قراقوش ، لم يكن مخلصا في اعلان الولاء والطاعة للموحدين ، فسرعان ما هرب من مدينة تونس ، وعاد الى الاستيلاء على البلاد ، مثل قابس وبلاد الجريد والاستبداد بمصائر أهلها . وهي المرة الاولى التي يقف فيها ضد بني غانية ، لأنه كان يرمي على ما يبدو الاستقلال عنهم وعن الموحدين على حد سواء ، بعد أن ظهر له عدم صعوبة تحقيق الاهداف ، التي دخل من أجلها الى المغرب وتورط في الصراعات على الحكم هناك . لذلك سار يحيي بن غانية لقتال قراقوش واسترداد البلاد منه ، فتحاشى قراقوش لقاءه وهرب الى ناحية طرابلس ، فلحق به ابن غانية وهزمه في موضع بالقرب من طرابلس ، ففر الى ودان جنوبي طرابلس ، وتمكن ابن غانية في النهاية من الاستيلاء على طرابلس ، وعين عليها ابن عمه تاشفين الغاني(٣١) .

وتظهر نتائج حركة بني غانية ومضارها في سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م عندما خرج يعقوب المنصور الى قتال الاسبان وحماية البلاد من هجماتهم ، في هذا الوقت بالذات قام بنو غانية وعادوا الى احتلال افريقية مستغلين غياب الجيش الموحدي عن البلاد ،

الامر الذي اجبر المنصور الموحدي على عقد صلح معهم لمدة خمس سنوات ؛ وعاد الى مراكش سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م (٢٢) .

ولا يستبعد أن يكون السبب ، الذي دفع المنصور الى عقد الصلح مع بني غانية ، انه بحسه الوطني العميق والمسؤول ، وجد من الخير الاستمرار بمقاتلة الاسبان على اعتبارهم كانوا في ذلك الوقت العدو الرئيس ، الذي يهدد وجود العرب المسلمين ومستقبلهم ، وأن قواته كانت منهكة لا تستطيع الانتقال من معركة الى أخرى ، أو ربما حدثت أمور في العاصمة المركزية مراكش ، الى غير ذلك . وبقي هذا الوضع قائما في افريقية ، حتى بعد وفاة المنصور بعدة سنوات .

جاء الى الحكم بعد وفاة يعقوب المنصور أبو يوسف **ابنه محمد الناصر بن المنصور.** وقد ظهر حينذاك أن سيطرة الموحدين على تونس كانت أضعف من أي وقت مضى ؛ وما لبثت أن تلاشت لفترة قصيرة . ولم يعد ابعاد يحيي بن غانية عن جنوب تونس وطرابلس أمرا سهلا(٢٣) ففي سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م تحرك عبد الله بن اسحق بن محمد ابن غانية باسطوله الى مدينة يابسة ، لكنه فشل في احتلالها فتوجه الى جزيرة ميورقة وأحكم الحصار عليها حتى ضاقت أحوال أهلها فسلموا اليه الجزيرة فولاها لابن نجاح. ولم يدم ذلك طويلا حيث خرج اليه السيد أبو الحسن العلي في أسطول من مدينة سبتة وتمكن من دخول الجزيرة وبطش بأتباع ابن غانية وقبض على ابن نجاح(٢٤) .

وفي سنة ٦٠١هـ/١٢٠٥م انطلق الناصر الموحدي على رأس جيش عن طريق البر باتجاه تونس ، وفي الوقت نفسه أبحر الاسطول من مدينة سبتة . أما يحيي بن غانية فلم يكن متأكدا من ولاء السكان الذين مالوا الى الموحدين ، يأملون منهم اعادة النظام والاستقرار اللذين فشل في تحقيقهما علي بن غانية . يضاف الى كل ذلك أن يحيي بن غانية لم يكن يملك القوة العسكرية التي تستطيع ايقاف تقدم جيش الموحدين ، كما أنه لا يستطيع البقاء في تونس دون أسطول يحميه من جهة البحر (٢٥) .

وانطلاقا من هذه الاسباب ، التي تبدو مقنعة الى حد كبير ، وجد يحيي بن غانية أن من الافضل اللجوء الى المهدية ، فتوجه اليها وعمل على تحصينها وشحنها بالعدد الحربية ، وترك فيها أشد رجال جيشه وأشجعهم على خوض المعارك(٢٦)وتابع بعد ذلك باتجاه منطقة الجريد ، كي ينظم المقاومة القبلية هناك . ولما وصل أسطول الموحدين الى تونس ، استسلمت دون قتال ، وأصبح الناصر قادرا على الاستمرار باتجاه الجنوب في الحال .

في الوقت نفسه كانت طرابلس ، قد أعلنت ثورتها ضد ابن غانية ، فهاجمها ودخلها ونهبها ، وذهب فاختفى في جبل دمر (٢٧) .

وبقي الحاكم الموحدي الناصر يلاحق أخبار ابن غانية طوال ذلك العام . وفي شهر محرم من سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٦م نزل الناصر بالقرب من صفاقس ، واستطاع بعد فترة قصيرة أن يطهرها من قوات ابن غانية . وفي هذا الوقت بالذات انقض أنصار ابن غانية الذين كان قد أبقاهم في المهدية على أولئك النازلين بالقرب من المهدية من قوات الموحدين، وتمكنوا من الايقاع بهم فقتلوا الاكثرية الساحقة منهم ولاذ الناجون بالفرار . عند ذلك توجه الناصر الى المهدية ونزلت قواته في ضواحيها وفرض عليها الحصار ، فوجد أنصار ابن غانية من المستحسن الارتحال الى حيث نسائهم ، فتقوى عزائمهم في الدفاع والقتال على غرار الجاهلية ، فارتحلوا الى ضواحي قابس .

وفيما كان الناصر يقوم بتجهيز قوة لملاحقتهم وصل اليه الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، وخرج مع الموحدين الى حيث قوات وأتباع بني غانية في ظواهر قابس ، حيث دار قتال بين الطرفين أسفر عن هزيمة قوات ابن غانية ، في الوقت الذي بقي حصار المهدية قائما ، حتى أعلن أهلها الرغبة في الدخول في طاعة الموحدين، وبقي الناصر فيها حتى رتب أحوالها ،ثم عاد الى تونس(٣٨) وقبل أن يغادرها في سنة ٦٠٣ هـ / ١٢٠٧ م عين محمد بن أبي حفص حاكما على افريقية ، وهو من أصحاب ابن تومرت مؤسس الدعوة الموحدية .

وكان لهذا التعيين أهميته البالغة بالنسبة لتونس ولحركة بني غانية ، لأن تونس كانت الخطوة الاولى في وجود أسرة الحفصيين التي حكمت المنطقة حتى الفتح العثماني في القرن السادس عشر . أما بالنسبة لابن غانية ، فلم تعد تونس سهلة المنال عليه .

وكان تعيين محمد بن أبي حفص هذا بناء على الحاجة وعلى قواعد مؤقتة . ولكي يستميله الناصر لقبول هذا التعيين أعطاه صلاحيات كاملة في اختيار مساعديه وتنظيم جيشه . ثم أصبح هذا التعيين دائما ، لأن الناصر وجد عذرا مناسبا لتأجيل ارسال بديل عنه (٣٩) .

وفي سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٩م أعفي السيد أبو الحسن الموحدي من ولاية تلمسان لمرض أصابه وعين بدلا عنه السيد أبو عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن،وانسحب في عسكره عن المدينة ، فتسلل الزناتيون الى ابن غانية ، وأعلموه خبر انسحاب الجيش من تلمسان . ومن جهة ثانية ذهبوا الى السيد أبي عمران وهونوا عليه الامر تارة وحرضوه على لقاء ابن غانية تارة أخرى . وكانت قواته ضعيفة وغير مستعدة بصورة جيدة ، ففوجىء أبو عمران بهجوم أتباع ابن غانية ولم يتمكن من الصمود ، فقتل وفر من تبقى من جيشه . وعندما وصل الخبر الى الناصر جهز جيشا كبيرا واقر عليه الوزير أبازيد بن يوجان . وسمع بنو غانية بقوة هذا الجيش وتجهيزه فانسحبوا من تلمسان باتجاه طرابلس .

وفي سنة ٦٠٦ هـ/١٢١٠م استطاع الشيخ محمد بن ابي حفص والي افريقية أن يطهرها من الميارقة وأتباعهم ، واستولى على جميع ممتلكاتهم، وفي السنة التالية وصل ابن اسحق بن غانية الى مراكش وأعلن تخليه عن بقية اخوته واتباعه ، فأكرمه الناصر.

وكان الناصر قد ولى جزيرة ميورقة لأبي يحيي بن أبي الحسن بن أبي عمران بدلا من أبي عبد الله بن ابى حفص وأرسله واليا على بلنسية(٤٠) بعد وفاة محمد بن أبي حفص في شباط من سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢١م انتقل يحيي بن غانية الى جنوب تونس وبقي هناك حتى وصل الحفصي الثاني أبو محمد عبد الله فيتشرين الثاني سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٦م وتولى الحكم في تونس ، فانتقل يحيي بن غانية الى الشمال الغربي . وفي سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٧م فتح الجزائر لكنه لم يتمكن من البقاء فيها .ويمكن اعتبار ذلك اشارة البدء في انهياره ونهايته كثائر سياسي .

وخلال السنوات العشر التالية ، عاش يحيي بن غانية قاطع طريق ، حتى وافته المنية سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٣٧م (٤١).

ويعد تعيين الناصر لمحمد بن أبي حفص على ولايـة افريقية (٦٠٢هـ/١٢٠٧) بداية النهاية لحركة بني غانية .

الحواشــــي

(١) المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٦٧ .
(٢) ابن القطان ، نظم الجمان من أخبار الزمان نشر محمود علي مكي،تطوان ١٩٦٤ص.٢٢ وما بعدها.
(٣) المقصود بدعوة المصامدة (دعوة الموحدين).
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٣ ومابعدها . ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ٢٤٢ طبعة بولاق .
(٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٤ .
(٦) صفة جزيرة الاندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار ، القاهرة ١٩٣٧ ص ١٨٨ .
(٧) صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المعطار ص ١٩٨ .
(٨) المعجب في تلخيص أخبار المغـرب ص.٢٧ وما بعدها .
(٩) تولى اسحق بن محمد بن غانية الحكم بعد وفاة أبيه محمد بن علي . وكان هذا قد عهد بالحكم من بعده لابنه الاكبر عبد الله ، ولكن اسحق ذهب الى أخيه مع مجموعة من الجند فقتلوه . وفي رواية أن ذلك حدث قبل وفاة أبيه ،وفي رواية أخرى بعد وفاته . انظر : المعجب ، ص ٢٤٩ .
(١٠) Jamil, M. Abu a - nasr, History of theMaghrib, Cambridge, the University Press, 1971 , p. 115 .
عنان (محمد عبد الله) دولة الاسلام في الاندلس، القسم الثاني ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ص ١٤٧ .

(١١) بدر (أحمد) مقرر المغرب والاندلس ، طبعةالامالي الجامعية ، دمشق ١٩٧٤ - ١٩٧٥ ص ١٨٥ .
(١٢) ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار ملوك الاندلس والمغرب ج٣ ،تطوان ١٩٦٠. ص١٣٩ .
(١٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ص٢٤٥ ،كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ٢٩١ - ٥٠٧ .
(١٤) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٦ .
(١٥) History of the Maghrib , p. 115
(١٦) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٤٥ ، البنداري (الفتح بن علي) سنا البرق الشامي ، تحقيق رمضان شنشن ، القسم الاول ، دارالكتاب الجديد ،الطبعة الاولى ،بيروت ١٩٧١ ص١٢٧
(١٧) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٧ - ١٤٨ ، الكامل في التاريخ ج١١ ص٢٠٦ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٣٩٢ .
(١٨) الكامل في التاريخ ج٩ طبعة مصر بدون تاريخ ص ١٧١ كتاب العبر ج٦ ص ٣٩٦ .
(١٩) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٨ History of the Maghrib , p. 115
(٢٠) البيان المغرب ج٣ ص ١٤٩ وما بعدها .
(٢١) History of the maghsib p. 115 كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٥٠٩ .
(٢٢) البيان المغرب ج٣ ص ١٥٥ - ١٥٦ ، أماري (ميخائيل) المكتبة الصقلية طبعة بالاوفست عن طبعة لايتبزغ ١٨٥٧ م ص ٧ - ٨ .
(٢٣) البيان المغرب ج٣ ص١٦٢ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٧٢ - ٢٧٣ .
(٢٤) الزركشي (محمد بن ابراهيم) تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور ، المكتبة العتيقة ، تونس ١٩٦٦ ص ١٦ ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٩ .
(٢٥) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٣٤٩ - ٣٥٠ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٢٩٧-٢٩٨
(٢٦) دولة الاسلام في الاندلس ، القسم الثاني ص ١٦٥ .
(٢٧) أبو رميلة (هشام) علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس ، الطبعة الاولى ، دار الفرقان ، عمان ١٩٨٤ ص ١٦٧ - ١٦٨ .
(٢٨) الكامل في التاريخ ج٩ ص ١٧٢ .
(٢٩) المعجب ص ٣٤٩ .
(٣٠) History of the Maghrib , p. 116
(٣١) العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ١٩٣ وما بعدها ، دولة الاسلام في الاندلس ، القسم الثاني ص١٩٥.
(٣٢) الكامل في التاريخ ج٩ ص ٢٣٣ ، كتاب العبر والمبتدأ والخبر ج٦ ص ٥١١ - ٥١٢ .
(٣٣) البيان المغرب ج٣ ص ٢١١ . History of the Maghrib , p. 116
(٣٤) البيان المغرب ج٣ ص ٢١٦ .
(٣٥) History of the Maghrib , p. 117
(٣٦) البيان المغرب ج٣ ص ٣١٩ ، الحميري (محمدبن عبد المنعم) الروض المعطار في خبر الاقطار ،تحقيق احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٦٧ .
(٣٧) History of the Maghrib , p. 117
(٣٨) البيان المغرب ج٣ ص ٢٢٠ وما بعدها .
(٣٩) History of the maghrib P. 117 تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ١٢-١٣ .
(٤٠) البيان المغرب ج٣ ص ٢٢٨ وما بعدها .
(٤١) كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٦ ص ١٩٧ History of the Maghrib , p. 117

الجيش عند الموحدين

فايزة كلاس
مرشحة للماجستير

كان التنظيم العسكري ميزة اساسية للموحدين ، مما يسر لهم الانتصارات وحفظ الدولة الى أمد غير يسير(١) ، واذا كانت دولة المرابطين قد مدت حدود المغرب الأقصى شرقا الى أكثر ما يعرف الآن بالجمهورية الجزائرية فان قوات الجيش الموحدي استطاعت مد هذه الحدود حتى جعلتها تشمل الجزائر وتونس ، الى ما يعرف اليوم باسم ليبية ، كما استطاعت أن تضم اليها الاندلس الاسلامي بكامله بما في ذلك جزر الباليار (٢) الشرقية(٣) .

ومنذ البداية اتسم الجيش الموحدي بأنه جيش عقائدي هدفة القتال في سبيل مبدأ والموت في سبيله والاستشهاد من أجله . وفي هذا السبيل أطلق ابن تومرت على أتباعه اسم الموحدين ، تعريضا بالمرابطين وفقهائهم لعدولهم عن التأويل واقرارهم التشابهات والايمان بها فيضيفون بذلك حسب قوله صفات بشرية ومادية على ذات اللـه . لذلك اعتقد الموحدون أنهم المؤمنون حقا دون غيرهم فكفروا جميع الخصوم الى أن يخضعوا لهم ويعتنقوا مذهب التوحيد(٤) .

اضافة لذلك كان الجيش الموحدي ممتازا في الضبط والربط كاملا في الاستعداد والتعبئة ، رائعا في الترتيب سواء في مسيره أو في قتاله ،بارعا في الخطط الحربية وضعا وتنفيذا . فقبل توجه الجيوش الموحدية الى المعارك تحشد القوات من كافة الولايات والاطراف حيث ينشر خبر التعبئة والدعوة للجهاد من أجل ترادف العناصر من جميع المناطق الى المركز حتى يستكمل الجيش أهبته لتهيئته وتجهيزه بالاسلحة والآلات استعدادا للحرب ، ومن ذلك ما فعله الخليفة عبد المؤمن بن علي عام ٥٥١ هـ حيث أخرج أمره الى الناس كافة بالغزو الى بلاد الروم من جزيرة الاندلس ، وأرسل الكتب الى سائل الجهات يستنفر الناس ويحضهم على الجهاد ويرغبهم فيه فاجتمعت له جموع عظيمة وخرج يقصد جزيرة الاندلس للغزو(٥) .

بعد الحشد تأتي عملية استعراض الجيوش (تمييز الجيوش) قبل الخروج الى

المعارك على مرأى من الناس . والهدف الرئيسي من الاستعراض هو ابراز مدى قوة الجيش من خلال ألعاب الفروسية . ويعرف ابن صاحب الصلاة عملية التمييز بقوله: « ومن عادة الموحدين دائما في حركاتهم أن يخصص الخليفة يوما أو أياما يقوم فيها باستعراض سائر القبائل المتقدمة للغزو سواء من العرب أو الموحدين ويخصون هذه العملية باسم عملية التمييز »(٦) ويتبع ذلك سير الجيوش وتوجهها للمعارك وكان هنالك نظام خاص لسير القوات الموحدية . ويقول ابن صاحب الصلاة في وصف موكب الجيش خلال مسيره للغزو من مراكش الى الاندلس في سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م : «وكانت الحركة السعيدة من الحضرة مراكش(٧) سنة ست وستين وخمسمائة (٥٦٦ هـ) حيث اجتمع الناس لرؤية الخليفة فكان في أحسن تعبئة ، قد ملأت العساكر الارض كثرة ، فسار أمامهم والعلام الابيض قدامه مع الرحالة على عادة الامر العزيز من الترتيب في المشي والعلامات والساقات والطبول وراءه . وقد قدم أمامه مصحف صاحب رسول الله (ص) عثمان بن عفان رضي الله عنه على جمل مرتفع وقدام هذا المصحف مصحف الامام المهدي رضي الله عنه »(٨) .

وتوزع الخيل والاسلحة على المقاتلة قبل توجهها للمعارك ففي عام ٥٦٦ هـ وقبل توجه الخليفة بجيوشه للغزو قسم الخيل على الموحدين والعرب ،وأعطى للجميع الرماح والدروع والسيوف(٩) . كما توزع الامتعة على المقاتلة لكي توفر لهم الراحة أثناء تنقلاتهم العسكرية . فعندما عزم الخليفة أبو يعقوب على الجهاد في الاندلس عام ٥٧٩هـ أعطى كل عشرة فرسان خباء(١٠) ويمنح الجند الرواتب مقابل خدمتهم في الجيش . ويطلق على هذه الرواتب اسم البركة(١١) وتوزع في رأس كل شهر وعند كل مناسبة . وكانت هذه البركة كريمة في كثير من الاحيان فلقد بلغ عطاء الخليفة ذات مرة لجنده زهاء نصف المليون من الدنانير(١٢) الموحدية(١٣) .

وأنشأ الخلفاء ديوانا للعسكرية للاهتمام بشؤون المقاتلة على اختلاف انواعهم سواء أكانوا جندا نظاميين أم حرسا وعبيدا ،وهذا الديوان في منتهى النظام والانضباط يسهر على احصاء الجند ومعرفة حاجاتهم المتجددة(١٤) .

نواة الجيش الموحدي :

انتدبت الجنود من بين القبائل البربرية في أول الامر ، وكانت في البداية كلها مصمودية (١٥) . فقد استطاع المهدي بن تومرت(١٦) أن يكسب قبائل المصامدة الى جانبه لاستغلاله عداوة كامنة في نفوس هؤلاء من نواح شتى ، قبليا كمصامدة ضد صهناجيين ، ونمط حياة كجبليين يكنون ازدراء لأهل السهول ، وكمستقرين يشعرون تجاه البدو بالاحتقار ، خاصة وان هؤلاء المرابطين أصبحوا غارقين في الترف ولديهم أموال ضخمة تجعلهم موضع طمع هؤلاء الجبليين الفقراء (١٧) وكان انضواء قبائل

المصامدة في طاعة المهدي بشكل تدريجي . فهنالك القبائل التي بادرت للانضواء تحت لوائه وقدمت له النصرة والتأييد فكان من الطبيعي أن يكون لها منزلة سامية لدى الموحدين الذين سموها السابقة . وقد ذكر ابن خلدون أن أهل السابقة من القبائل كانوا ثمانية : سبعة من المصاميد هم : هرغة(١٨) وهم قبيلة الامام المهدي ، وهنتاتة(١٩)، وتينملل (٢٠) وهم الذين بايعوه مع هرغة على الاجازة والحماية ، وكنفيسة(٢١) وهزرجة وكدميوة (٢٢) ووريكة (٢٣) وثامنة قبائل الموحدين كومية (٢٤) قبيلة عبد المؤمن بن علي كبير صحابته(٢٥) . ولا يذكر لنا المراكشي كل من هزرجة ووريكة ضمن أهل السابقة بل أضاف اليهم بعض قبائل صنهاجة وهسكورة (٢٦) . أما بالنسبة للقبائل المصمودية الاخرى والتي لم تبايعه ، فقد قام(٢٧) المهدي بعد استقراره بتينملل(٢٨) بقتال كل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولا هزرجة وواقعهم مرارا حتى دانوا له بالطاعة ثم قاتل هكسورة فدخلت في طاعته(٢٩) .

بعد ذلك قام المهدي بترتيب القبائل المصمودية وتنظيمها ، ومن هذا التنظيم نبعت النواة الاولى والتأسيسية للجيش الموحدي . فبعد أن بايعه أهل هرغة وتينملل وهنتاتة وكدميوه وهسكورة وصنهاجة على ما أمرهم به ، أعلن لهم بحرب لمتونة(٣٠) . وأخذ أشياعه يتأهبون للحرب وجعل على كل عشرة منهم نقيبا فالصنف الاول أصحاب العشرة والصنف الثاني أهل الخمسين والصنف الثالث أهل السبعين والصنف الرابع الطلبة والصنف الخامس الحفاظ وهم صغار الطلبة والصنف السادس أهل الدار والصنف السابع أهل هرغة والصنف الثامن أهل تينملل والصنف التاسع كدميوة والصنف العاشر أهل كنفيسة والصنف الحادي عشر أهل هنتاتة والصنف الثاني عشر الجند والصنف الثالث عشر الغزاة والرماة . ولكل صنف من هذه الاصناف رتبة لا يتعداها غيرهم لا في سفر ولا في حضر لا ينزل كل صنف الا في موضعه لا يتعداه وأقاموا على ذلك مدة حياته(٣١) .

ويشارك ابن الخطيب بالشرح عن تقسم المهدي لطبقات الموحدين فيقول : «ورتب المهدي قومه ترتيبا غريبا فمنهم أهل الدار وأهل الجماعة وأهل الساقة وأهل خمسين وأهل سبعين والطلبة والحفاظ وأهل القبائل . فأهل الدار للامتهان والخدمة . وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة وأهل الساقة للمباهاة . وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي وسائر القبائل لمدافعة العدو (٣٢) .

استمر انضمام المصامدة الى صفوف الدعوة الموحدية أيضا في عهد الخليفة عبد المؤمن ففي عام ٥٤١ هـ وبعد فتحه لمدينة مراكش وفدت عليه قبائل المصامدة بأسرها (٣٣) وظل عنصر المصامدة من العناصر الفعالة في الجيش ففي عام ٦٤٥ هـ نظر الخليفة السعيد بتثقيف أطراف دولته وتقويم مائلها . فجهز العساكر واستنفر عرب المغرب

وقبائله واحتشد كافة المصامدة ونهض من مراكش آخر سنة خمس وأربعين يشرد بني مرين عن الامصار(٢٤) وفي قام ٦٦٨ هـ خرج عدد كبير من قبائل المصامدة الى جانب غيرهم من عناصر الجيش لمجابهة بني مرين بقيادة الخليفة أبي دبوس (٢٥) .

وكما كان المصامدة أول من انضم الى الدعوة الموحدية ونواة جيشها ، ظلوا العدد الاكبر فيه المسيطر عليه حتى سقوط الدولة .

الزناتيون والصنهاجيون :

ورفدت قبائل زناتة (٢٦) الجيش الموحدي بعناصر كثيرة ومتعددة ، ويشرح لنا ابن عذاري انضمام الزناتيين المبكر للقوات الموحدية منذ حروب عبد المؤمن الاولى ضد المرابطين فيقول : « بعد استيلاء الموحدين على مدينة وهران(٢٧) اثر مقتل تاشفين خرجت جماعة من أهل تلمسان(٢٨) لمحاربة عبد المؤمن وكانوا نحو ستين رجلا من أعيانهم فلقيهم يصلاتن الزناتي بجمع عند وادي تافنا فأفناهم فيه وقتلهم عن آخرهم ووصل الى تلمسان خبر ما كان من قتلهم فزاد خوف أهل تلمسان من عبد المؤمن لان يصلاتن كان تحت طاعته بجملته وجماعته »(٢٩) .

وبعد انتصار الخليفة عبد المؤمن وقيام الدولة واستقرارها شارك الزناتيون بالفتوحات والحروب . ففي سنة (٥٥٨ هـ) خرج الخليفة عبد المؤمن قاصدا الاندلس برسم الجهاد فكتب الى بلاد المغرب وافريقية داعيا الى الجهاد فأجابه خلق كثير واجتمع له من عساكر الموحدين ومن قبائل العرب والبربر وزناتة أزيد من ثلاثمائة ألف فارس »(٤٠) وكانت أهم القبائل الزناتية التي لعبت دورها في الجيش والدولة . قبيلة كومية التي ينتسب اليها الخليفة عبد المؤمن . من ذلك ما يذكره الفاسي من قدوم قبيلة كومية في جيش عظيم مؤلف من أربعين ألف فارس على أمير المؤمنين . وذلك أنه لما همت طائفة من الموحدين بقتل الخليفة عبد المؤمن وقتلوا الشيخ الذي بات بمكانه ، وتحقق ذلك منهم ، جاء بكومية ليأخذ تأره منهم بحيلة ، لكونه غريبا بين قبائلهم ليس له عشيرة يستند اليها ولا قبيلة . وأمرهم بالقدوم عليه وأن يركب كل من بلغ الحلم ويأتونه في أحسن زي وأكمل عدة وهيأة . وبعث اليهم بالاموال والكساء فاجتمع منهم أربعون الفا . فأقبلوا الى أمير المؤمنين برسم الخدمة بين يديه وشد ظهره وكان يوم دخولهم الى مراكش عيد من الاعياد . حيث رتبهم عبد المؤمن في الطبقة الثانية وجعلهم من قبيلة تينملل في ثاني درجة ، وقربهم من نفسه وجعلهم بطانته ، يركبون في ظهره ويقفون على رأسه ويمشون بين يديه اذا خرج(٤١) . ويمكن القول ان عبد المؤمن اتخذ من قبيلة كومية الدرع الواقي والقوي ، لتحميه ويواجه به الصعوبات فيما بعد .

هذا ولا بد لنا من التطرق الى باقي بطون زناتة التي ساهمت بالانضمام للجيش

الموحدي ، والدور الذي لعبته في السياسة العامة للدولة . فعندما ظهر امر الموحدين، كان لعبد الواد وتوجين ومغراوة من المظاهرة لبني يلومي على الموحدين ما هو مذكور في أخبارهم . ثم غلب الموحدون على المغرب الاوسط ، وقبائله من زناتة ، فأطاعوا وانقادوا ، وانحاز بنو عبد الواد وبنو توجين الى الموحدين ، وازدلفوا اليهم ، وكان التقدم لبني عبد الواد دون الشعوب الاخرى ، وأمحضوا النصيحة للموحدين فاصطنعوهم دون بني مرين وأقطعهم الموحدون ضواحي المغرب الاوسط (٤٢) ومثلما استعان الموحدون بقوة بني عبد الواد الى جانبهم ضد أعدائهم . استعانوا بقوة بني مرين ضدهم وذلك عندما رأوا عين الغدر والتوسع من قبلهم في تلمسان وذلك في أواخر دولتهم . ففي سنة ٦٤٥هـ ارتحل الخليفة السعيد الموحدي في اتباع بني مرين وفي هذه السنة راجع عبد الحق المريني نظره في مسالمة الموحدين والرجوع الى أمرهم ومظاهرتهم على عدوهم يغمراسن(٤٣) وقومه من بني عبد الواد ، فأوفد مشيخة قومه على السعيد في تازا (٤٤) حيث قدموا الطاعة له فتقبلها وصفح عنهم وسألوه أن يستكفي الامير أبي يحيى المريني في مر تلمسان ويغمراسن على أن يمده بالعساكر رامحة وناشبة . فأمرهم السعيد بالعسكرة معه وأمده أبو يحيى بخمسمائة من قبائل بني مرين خرجوا تحت راياته (٤٥)

وعندما لاحظ الموحدون ازدياد قوة بني مرين وتوسعاتهم في أراضي دولتهم رأوا من الافضل اعادة علاقتهم مع بني عبد الواد ضد بني مرين لايقاف توسعهم وضرب قوتهم من أجل الحفاظ على سلامة ممتلكاتهم . واستغل بنو عبد الواد الفرصة ووضعوا امكانياتهم العسكرية تحت تصرف القوات الموحدية (٤٦) .

هذا وبعد مقتل الخليفة السعيد الموحدي سيطر المرينيون على فاس ولكن سكان المدينة استطاعوا طردهم عنها . فأسرع أبو يحيى المريني بقواته وحاصر فاس مجددا فأرسل الخليفة المرتضى الى يغمراسن طالبا مساعدته ضد أبي يحيى فجهز كتائبه ونهض الى ذلك واستنفر اخوانه من زناتة . وبلغ خبرهم الى أبي يحيى فجهز كتائبه ونهض للقائهم والتقى الجمعان بايسلي(٤٧) من ناحية وجدة(٤٨) وكانت هنالك الواقعة المشهورة بذلك المكان انكشفت فيها جموع يغمراسن وهلك مع العديد من أصحابه . واتصلت بعد ذلك بينهم الحروب وربما تخللتها المهادنات قليلا (٤٩) .

وهكذا نرى بأن الزناتيين من بني عبد الواد ومرين ساعدوا بالانضمام لدولة الموحدين لفترة من الزمن . ولكن شيئا فشيئا مهدوا لأنفسهم لكي يكون لهم كيانهم الخاص بهم والمستقل عن دولة الموحدين ، حتى قامت لهم على انقاض هذه الدولة دولتان هما دولة بني عبد الواد بتلمسان . ودولة بني مرين بفاس .

الصهناجيون :

انضم الصهناجيون للجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي ويحدثنا

البيذق عن ذلك : ميز أمير المؤمنين (عبد المؤمن) الموحدين وخرج من مكناسة(٥٠) واخذ على طريق تادلة(٥١) فميز فيها وجاءت هسكورة وصهناجة بعسكرهم وهبط بهم الخليفة على وادي أم ربيع(٥٢) حتى استوى في صهناجة آزمور ونزل فيه بعسكره وساقوا له المروة ثم أقلع الى اجليز(٥٣) وضرب عندها القبة الحمراء عام واحد وأربعين وخمسمائة (٥٤١ هـ)(٥٤) .

ويرد أحيانا ذكر كل من قبائل مسوفة ولمتونة الصهناجية باشتراكهما في الحروب والوفود الى جانب الموحدين ففي سنة ٥٦٠ هـ (١١٦٥ م) تحرك السيد الاعلى ابو حفص بن الخليفة عبد المؤمن من مراكش الى جبل الفتح (جبل طارق) للاجتماع بأخيه السيد أبي سعيد في جملة من أعيان الموحدين وأبناء الجماعة وأشياخ ثوار الاندلس المختصين به ومن أشياخ مسوفة ولمتونة رجال اجتمع فيهم نخبة من الناس كبيرة القدر متوسطة العدد والذكر عددهم نحو الاربعمائة فارس(٥٥) .

العرب :

اتسم الجيش الموحدي بالسمة العقائدية . الا ان هذه السمة لم تدم طويلا لان خلفاء الموحدين استعانوا بقوى رديفة اخرى لا تتصف بهذه الصفة ، ومنها العرب .

كان انخراط القبائل العربية في الجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن . اذ أنه بعد قضائه على دولة المرابطين واستغاثة الاندلس به ضد هجمات الفرنجة،رأى بأن عدد الجيش الحالي لا يكفي لحماية دولته ولكنه أدبهم قبل الحاقهم بالجيش بشكل رسمي ، نتيجة لاعمال الشغب التي قاموا بها وانتصر عليهم في موقعة سطيف(٥٦) عام ٥٤٧ هـ/١١٥٢م (٥٧) . وفي عام ٥٥٤ هـ اعتدى عرب بني سليم(٥٨) على مدينة قابس(٥٩) فجرد اليهم عبد المؤمن جيوشه وهزمهم(٦٠) ولما تم له اخضاع افريقية جمع أمراء العرب من بني رياح الذين كانوا بافريقية وطالبهم بنصرة الاسلام في الاندلس . والقى فيهم خطبة :

« واجبنا هو نصرة الاسلام . فقوة المشركين كبيرة وهم زعماء العديد من الاقاليم التي سيطر المسلمون عليها في الماضي ولا احد سواكم يستطيع أن يحاربهم ، انتم الذين تفتخرون بفتوحات اجدادكم لهذه البلاد في العصور الاولى للاسلام . ولا احد غيركم يستطيع أن يطرد هؤلاء الغزاة . نطلب منكم اذن عشرة آلاف من الفرسان البواسل للجهاد في سبيل الله »(٦١) فأجابوا بالسمع والطاعة لفترة ، ثم عادوا للشغب ، فأرسل اليهم قوات هاجمتهم بغتة وأوقعت بهم شر هزيمة(٦٢)وكان بدء انضمام العرب لجيوش عبد المؤمن ومسيرهم معه الى الاندلس عندما استغاث به ابنه ابو يعقوب حين كان واليا

على اشبيلية(٦٣) ضد هجمات ابن مردنيش(٦٤) وردا على ذلك استاق عبد المؤمن في اتباعه العرب من بني رياح وبني جشم(٦٥) وبني عدي وقبائلهم ما يضيق بهم الفضا . وعزم على السفر بهم الى الاندلس لنجدة ابنه ، نحو ٥٥٥ هـ (٦٦) ولم ينس عبد المؤمن أن يوصي بنيه وولي عهده في أواخر أيامه بأن يعملوا على نقل عرب افريقية الى المغرب للاستفادة منهم في حروب الاندلس . وبعد وفاة عبد المؤمن حرص الخليفة ابو يعقوب على سياسة والده التي ترمي الى اصطناع العرب والاستعانة بهمفي حروب الاندلس(٦٧)

ففي عام ٥٦٦هـ استدعى أبو يعقوب العرب من افريقية لغزو الاندلس .وخاطبهم بقصيدة من قول ابن طفيل(٦٨) وهي :

أقيموا صدور الخيل نحو المغارب	لغزو الاعادي واقتناء الرغائب
فلا تقتني الآمال الا من القنى	ولا تكتسب العليا بغير الكتائب
ألا فابعثوها همة عربية	تخف بأطراف القنى والقواضب
أفرسان قيس من هلال بن عامر	وما جمعت من طاعن ومضارب
بكم نصرة الاسلام بدءا فنصره	عليكم وهذا عوده جد واجب
فقوموا بما قامت أوائلكم به	ولا تغفلوا احياء تلك المناقب (٦٩)

ثم تقاطرت عليه وفود وجموع العرب من افريقية وكان يوم قدومهم عليه يوما مشهودا فاعترضهم وسائر عساكره ونهض بهم الى الاندلس عام (٥٦٧هـ)(٧٠) وفي عام (٥٧٧هـ) وفد على الخليفة أبو يعقوب بمراكش أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحي في جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة(٧١) .

وبالرغم من مسارعة العرب بالانضمام لجيوش الموحدين وتقديمهم الطاعة والولاء للخلفاء الا ان طاعتهم لم تكن دائمة ، فسرعان ما يقومون بالشغب أو يسارعون الى الى الانضمام لأية حركة معادية ضد الدولة . وهذا ما حدث عام ٥٨٢ هـ ، حين سارع كل من بني هلال وسليم بالانضمام لحركة اسحق بن غانية(٧٢) وخلعوا طاعة الخليفة المنصور الموحدي . ولكن الخليفة استطاع التغلب عليهم بقفصة عام ٥٨٣هـ(٧٣) ، فأتوه طائعين فنقلهم الى المغرب(٧٤) .

ويعلل عبد الهادي التازي تصرف الخليفة المنصور والفرق بينه وبين كل من عبد المؤمن وابو يعقوب في جلبهما للعرب فيقول :

كان عبد المؤمن أول من عمل على جلب العرب من افريقية وقد اقتفى أثره ولده ابو يعقوب يوسف . هذا وقد أثر عن يعقوب المنصور ولد يوسف وحفيد عبد المؤمن انه ادخل العرب للمغرب وانه ندم على ذلك ، ومن المهم أن نعرف أن هناك فرقا بين

تصرف عبد المؤمن وولده من جهة ، وتصرف الحفيد يعقوب المنصور من جهة أخرى ، فالأولان كان جلبهما للعرب تقربا وتآلفا بينما كان عمل الثالث سنة ٥٨٤ هـ بدافع ارادة تغريبهم وعقابهم وذلك لما ضربوه من الحلف وناصروا علياً بن غانية عميل قراقوش مولى تقي الدين عمر ابن أخ صلاح الدين الايوبي (٧٥) ويؤيد هذا الاستنتاج عدم اصطحاب المنصور للعرب معه الى الاندلس الا بعضا من أشياخ رياح كبني زيان رعيا لقدم هجرتهم وتيقنا بنصيحتهم (٧٦) .

وبسبب أعمال الشغب التي اقترفها العرب قال الخليفة المنصور : وهؤلاء العرب تدارونهم وتلاطفونهم وتحسنوا اليهم ومن وفد عليكم منهم تعطوه وتحسنوا اليه غاية الاحسان وتشغلونهم بالحركات ولا تتركونهم للعطلة والراحة (٧٧) . وهذا سبب معقول لتصرف المنصور بنقل العرب هؤلاء من افريقية الى المغرب ليكونوا تحت اشرافه وتصرفه الا أنه ندم على ذلك فيما بعد فقال : ما ندمت على شيء فعلته في خلافتي وددت أني لم أفعله هو ادخال العرب من افريقية الى المغرب لاني أعلم انهم أصل فساده (٧٨) . وعندما تسلم الناصر مقاليد الخلافة والحكم بعد موت أبيه المنصور كان أول عمل قام به هو سطوته بعرب المغرب عام ٦٠٠ هـ فاستأصلهم وقتلهم وغرب بعض أشياخهم الى الاندلس (٧٩) .

ولعب العرب دورا كبيرا في الصراع من أجل منصب الخلافة والسلطة فقاموا بخلع خليفة وتعيين آخر . وحاول كل طرف جذبهم الى جانبه فكانوا يقفون دائما الى جانب من يرون بأنه الاقوى من أجل ضمان مصالحهم وتنفيذ مآربهم وكان الدور الاكبر لبث الفوضى في هذه الفترة لعرب الخلط (٨٠) ابتداءا من عهد الخليفة العادل الموحدي وحتى سقوط دولة الموحدين . من ذلك تدخلهم في النزاع الذي حدث على السلطة بين كل من يحيى بن الناصر والخليفة المأمون ومن بعده الخليفة الرشيد (٨١) . وانشطر العرب في اواخر الحكم الموحدي الى قسمين قسم مؤيد للدولة والآخر ضدها ، وفي هذه الفترة لاحت بوادر بني مرين وبدأت قوتهم تظهر بالتدريج فسارع القسم الاكبر من العرب للوقوف الى جانبهم وجانب بني عبد الواد (٨٢) .

وهكذا نرى بأن المتهافتين على السلطان كانوا يكسبون ود القبائل العربية المستقرة بالمغرب الاقصى مما جعلها بالرغم عنها تقوم بدور متزايد الاهمية في الحياة السياسية التي كان يكتنفها الغموض حينذاك . وهكذا أصبحوا شيئا فشيئا قوة سياسية لها تأثير حاسم أحيانا على الاحداث .

الغـز :

كان أول عمل قام به الغز (٨٣) عند دخولهم افريقية تحالفهم مع بني هلال وابن غانية ضد الموحدين . ففي سنة ٥٨٠ هـ ملك علي بن اسحق بن غانية مدينة بجاية (٨٤)

ثم سار الى افريقية فلما وصل اليها اجتمع عليه سليم ورياح ومَن هنالك من العرب، وانضاف اليهم (الترك) الغز الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع قراقوش ، ودخل أيضا من أتراك مصر مملوك لتقي الدين ابن أخي صلاح الدين أسمه بوزابة ، فكثر جمعهم وقويت شوكتهم فلما بلغت عدتهم مبلغا كثيرا وكلهم كاره لدولة الموحدين واتبعوا جميعا علي بن اسحق الملثم لانه من بيت المملكة والرياسة القديمة وانقادوا اليه ولقبوه بأمير المسلمين وقصدوا بلاد افريقية فملكوها جميعا مشرقا ومغربا الا مدينتي تونس(٨٥) والمهدية(٨٦) فلما بلغ الخبر الى الخليفة يعقوب الموحدي خرج من مراكش واقام بمدينة تونس ثم توجه فيمن معه من المقاتلة لمجابهة ابن غانية والاتراك فوصل اليهم والتقوا بالقرب مدينة قابس وانهزم ابن غانية ومن معه ورجع الخليفة يعقوب الىقابس ففتحها وأخذ منها اهل قراقوش وأولاده وحملهم الى مراكش نحو سنة ٥٨٣هـ ، ثم توجه بعد ذلك الى قفصة فحاصرها مدة ثلاثة أشهر وقطع أشجارها وخرب ما حولها فأرسل اليه الترك الذين فيها يطلبون الامان لانفسهم ولأهل البلد فأجابهم الى ذلك وخرج الاتراك منها سالمين(٨٧) ومن ثم أسبغ الخليفة العفو عليهم وصيرهم في جملة اجناده(٨٨) وأرسلهم الى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم بالعدو . جعل للغز مقابل خدمتهم في الجيش الموحدي مزية ظاهرة لتشجيعهم(٨٩) فكان الموحدون يأخذون الجامكيـة (٩٠) ثلاث مرات في السنة في كل أربعة أشهر مرة . وجامكية الغز في كل شهر لا تختل (٩١) وشارك الغز بالحملات العسكرية التي قامت لقمع الثورات التي ظهرت في أرجاء الدولة ففي سنة ٥٩٧هـ انضم الغز لقوات الموحدين في حملة الى منطقة السوس(٩٢) لقمع ثورة قام بها رجل من جزولة(٩٣) يدعى عبد الرحمن ويعرف عندهم بابن الجزارة واستطاعوا اخماد هذه الثورة وقتل صاحبها (٩٤) .

ونتيجة للمكانة الكبيرة التي حظي بها الغز عند الموحدين انقلبوا ضد ابن غانية وحاربوه عند معاودته للتمرد والثورة مرة أخرى عام ٦٠٥هـ (٩٥) كذلك اهتم الخليفة المستنصر الموحدي بالغز حيث رتب ابن قراقوش الغزي بالحضرة في أجناده وقدمه لطائفة منهم . ولكن هذا الغزي هرب في جملة من أصحابه وابتعد ثائرا مما أدى الى مصرعه فيما بعد (٩٦) .

الاندلسيون والروم :

شكلت القوات الاندلسية في الجيش الموحدي بالاندلس جناحا هاما ، وشاركت في جميع الغزوات والحروب التي قامت بها الجيوش الموحدية ضد الفرنجة سواء في البرتغال أو الممالك الاسبانية . وكانت القوات الاندلسية تمتاز بقوتها وشجاعتها القتالية وتقاتل في طليعة الجيوش الموحدية لخبرتها بالطرق القتالية والخدع الحربية الخاصة بالفرنجة(٩٧) .

وكانت البدايات الاولى لدخول القوات الاندلسية للجيش الموحدي في عهد الخليفة عبد المؤمن ، فقد جاء اليه وفد من أعيان الاندلس عام (٥٤١هـ) ومعهم مكتوب يتضمن بيعة أهل البلاد التي هم فيها على الدخول في طاعته ، فقبل عبد المؤمن ذلك منهم وطلبوا منه النصرة على الفرنج(٩٨) .

وزاد انضمام الاندلسيين للجيش الموحدي بعد بناء قاعدة جبل طارق ، فقد ذهب الخليفة لتدشين هذا البناء وللاطلاع على أحوال الاندلس ، ثم أرسل ثمانية عشر ألف فارس الى بلاد العدو برسم الغزو وقدم على أصناف القبائل ابن شرقي وعلى الاندلسيين ابن صناديد (٩٩) وكان لهؤلاء الجند الاندلسيين قواعد خاصة بهم في الاندلس يقومون فيها لتلقي الاوامر من الحضرة المراكشية ولرفدهم بالعناصر البشرية والاسلحة ومن أهم هذه القواعد هي قاعدة اشبيلية لكونها مركزا لتجمع الجيوش الموحدية سواء القادمة من المغرب وشمال افريقية أو للعساكر العائدة من الغزو لتعبر مرة أخرى الى أوطانها بالمغرب (١٠٠) .

ويبدو أن هؤلاء الجند الاندلسيين كانوا على أهبة واستعداد دائم في بلادهم للانضمام الى الجيوش الموحدية القادمة من الحضرة لشعورهم بأن ذلك واجب عليهم لحماية بلادهم من خطر الفرنجة . ففي سنة ٥٨٠هـ ثمانين وخمسمائة عبر الخليفة أبو يعقوب بجيوشه الى الاندلس ونزل خارج باب قرمونة (١٠١) فلما كان اليوم الثاني أمر بتمييز العساكر وفي هذه الفترة تلاحقت عساكر أهل الاندلس من اقطارهم وأمصارهم للانضمام لجيوشه (١٠٢) .

وشكل الموحدون من الجند الاندلسيين فرقا عسكرية متنقلة على شكل حملات عسكرية لحماية الاندلس ، كانت تجوب الثغور والبلاد لنشر الامن والاستقرار فيها . ففي سنة ٥٦٨ هـ وأثناء تواجد الخليفة أبي يعقوب باشبيلية ، خص من أولاد محمد بن مردنيش ، غانم بن محمد بن مردنيش (١٠٣) بجمع جماعة من الجند الاندلسيين ومن أصحاب أبيه ومن أهل الثغور والاجناد باشبيلية وأنظارها يكونون تحت تمييزه وتجويزه للغزو بهم وحماية الانظار من العدو في البدو والحضر فكان غانم يخرج بجمعه الذي جمعه من الاجناد يغزو مع الموحدين جهات طليطلة (١٠٤) وطلبيرة (١٠٥) وانظارها فظهرت منه في ذلك كفاية (١٠٦) .

كذلك أقام الخلفاء في بلاد الاندلس كتائب عسكرية متمركزة في نقاط هامة وحساسة ولا سيما في منطقة الثغور ، وهي تعد خط دفاع أولي لصد أي هجوم مفاجيء من قبل الفرنجة . ذلك ان الخليفة عبد المؤمن رتب في غرناطة(١٠٧) جماعة من الاجناد الاندلسيين الموثوقين في التوحيد مع الموحدين ، فدافعوا عنها من جاورهم من الاعداء (١٠٨) .

يقول ابن عذاري : « في سنة ثمان وستمائة (٦٠٨هـ) أمر الخليفة الناصر لدين الله باستنفار الحشود الاندلسية وبعمل الالات الحربيـة وبالخفر على أهـل الكـور والجهات في الحضور بما لديهم من وظائف الغزاة ووصولهم مع من لهم مـن المشتغلين والولاة حتى اتسق نظامهم وتقوى اعتزازهم وشرع الناصر في التأهب للحركة برسـم الغزو والجهاد (١٠٩) . ومع كل وال يوليه الخليفة على بلاد الاندلس كان يوجه مجموعة من الاندلسيين الموجودين لديه ، لابداء النصح له لمعرفتهم بأساليب عدوهم وبطبيعـة بلادهم القتالية ففي سنة (٥٦٤هـ) واثناء مدة اقامة الشيخ أبي حفص على قرطبة(١١٠) توجه ابنه أبو يحيى واليـا على بطليوس(١١١) عن الامر العالي فمشى اليهـا في جملـة موفورة من الموحدين والاجناد الاندلسيين واستوطنها (١١٢) وفي عـام ٥٨٠ هـ اجتـاز الخليفة يوسف بن عبد المؤمـن (أبو يعقوب) على شنترين(١١٣) في حركتـه الاندلسية بجيش مؤلف من أربعين ألفا من أنجاد العرب الفرسان والموحدين والجنـود المطوعـة وفرسان الاندلس وأجنادها ما ينيف على مائة ألف فارس (١١٤) .

الـــروم :

دخـل الروم المغرب في عهـد الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين ، وكان أول من استخدمهم مع الصقالبة في مدينة مراكش . فقد عمـد الى شراء جماعة منهـم بلغت مائتين وخمسين فارسا ليكونوا حرسا خاصا له . ثم زادت أعدادهم بمن انضم اليهـم من أسرى الحروب ، الذين استخدمهم ولاة الامر في خدمتهم بمراكش ، واتخذ يوسف ابن تاشفين الجواري والاماء من الروم والصقالبة ، كانت احداهن أم ولده وولي عهده علي بن يوسف . وتوسـع علي بن يوسف في استخدام الـروم ، ويقول ابن عذاري : « وهو أول من استعمل الروم وأركبهم في المغرب » ولعلـه يقصد أول من توسـع في في استخدامهم على نطاق كبير في الجيش(١١٥) ولقد استغل الخليفة الموحدي عبد المؤمن ابن علي وجود الروم في البلاد فاستخدمهم في فتوحاته واستعان بهم ضد الثورات التي قامت ضده ، فعندما الثار الماسي(١١٦) ببلاد السوس أرسل اليه عبد المؤمن المقاتلـة فهزمهم ثم أرسل اليه جيشا آخر مؤلف من جملة من الموحدين مـع طائفة من الـروم استطاعوا هزيمته وقتله(١١٧) .

ويرد ذكر الروم في بعض المصادر تحت اسم النصارى حيث أشار صاحب الحلل الموشية الى الحادثة نفسها بقوله : وجه عبد المؤمن جيشا لقتال الماسي في بلاد السوس فهزم ثم وجه اليه جيشا آخر مؤلف من جملة من الموحدين وطائفة من النصارى فانهزم الماسي وقتل هو وكثير من أهل عسكره(١١٨) .

وكان استدعاء الروم بشكل رسمي للبلاد في عهد الخليفة الموحدي المأمون . ذلك انه عندما وصلت بيعة الموحدين للمأمون بعد قتلهم لأخيه العادل وهو يومئذ باشبيلية.

أخذ في الحركة الى مراكش وعندما وصل الى الجزيرة الخضراء(١١٩) اتصل به الخبر أن الموحدين قد نكثوا البيعة وبايعوا ابن أخيه يحيى بن الناصر فكتب لملك قشتالة يستنصره على الموحدين ويسأله أن يبعث له جيشا من الروم (النصارى) يجوز بهم الى العدوة(١٢٠) لقتال يحيى بن الناصر ومن معه من الموحدين ، فأجابه ملك قشتالة الى طلبه وأرسل اليه سنة (٦٢٥هـ) جيشا من الروم بلغ عدده اثني عشر الفا برسم الخدمة وكان وصولهم اليه في ذي القعدة من السنة المذكورة (١٢١) .

ولعب الروم دورا هاما في التدخل بشؤون السياسة والحكم ولا سيما عند وفاة الخليفة المأمون الموحدي عام (٦٢٩هـ) فساعدوا الرشيد على الوصول الى الخلافة لضمان مصالحهم لكون والدته رومية الاصل(١٢٢) ، وناصروا الخليفة السعيد ضد بني مرين وساعدوا على هزيمتهم عام (٦٤٢هـ)(١٢٣).

وكان للروم مراكز يقيمون فيها على شكل تجمعات عسكرية وذلك للانضمام للجيوش الموحدية أثناء توجهها للمعارك وهذا نفهمه من حديث ابن عذاري : وكان بتارودنت(١٢٤) أحد أشياخ الموحدين مع جماعة من أجناد المسلمين والروم ساكنين هناك . أيضا سكن مدينة فاس (١٢٥) نحو مائتي فارس من جنود الروم كانوا قد وصلوا اليها عند موت الخليفة السعيد الموحدي(١٢٦) .

وفي أواخر حكم الدولة الموحدية أصبح الروم لا يكترثون للمعارك التي تجري بين الموحدين وأعدائهم . ربما كان ذلك نتيجة شعور قوادهم بضعف الموحدين . ففي سنة ٦٦٠هـ قدم الخليفة المرتضى على بلاد السوس أحد وزرائه ووجه معه قائده المعروف بذي اللب بجمع وافر من الروم الى السوس ، وكان قائد آخر قد تقدمه اسمه غرسيه بجمع وافر من الروم فوقعت الحرب بين عساكر الموحدين وعسائر ابن بدر هنالك . وكان القائد ذو اللب متكاسلا فيما وقع من الحرب بين يديه ليس له نجدة ولا نهضة وكان لأمير عسكر الموحدين غير سامع لأمره ولا عارف بقدره(١٢٧) .

وهكذا ، وبقدر ما كان عدد الاجانب يزداد ويتناقص جند المصامدة ، كان الجيش الموحدي يفقد حماسه الاول ، وقد يصح القول روحه الوطنية ، ليصبح جيشا محترفا(١٢٨) .

العبيد والمطوعة :

استلحق الموحدون عددا من أتباع المرابطين في جيشهم . ويظهر انهم كانوا من

الاسرى المسترقين(١٨٩)، أسروا منذ المعارك الاولى التي خاضها المهدي ضد المرابطين، وأطلق عليهم اسم عبيد المخزن (١٣٠) ، ويبدو أن هؤلاء أصبحوا من المقربين للخليفة عبد المؤمن ، يقومون بخدمته وحراسته والضرب على يد كل من يحاول الغدر به .

ويصف شارل اندريه جوليان اخلاص هؤلاء العبيد للخليفة فيقول : وكان لحرس الخليفة شأن كبير اذ وجب على الاوفياء منهم الذين اختيروا لحراسة سرادق الخليفة أن يموتوا دونه حتى لا يدخله أحد(١٢١) .

وشارك العبيد بعمليات التصفية التي أقامها الخليفة عبد المؤمن بالنسبة للقبائل التي يشك في توحيدها . ففي عام ٥٣٩ هـ قاموا بمحاصرة قبيلة جزولة وهزموها ثم قدموها للخليفة عبد المؤمن (١٣٢) .

أوكل خلفاء الموحدين الىعبيد المخزن أيضا مهمة تنفيذ أحكام القتل والاعدام بكل من ارتكب خيانة أو ثار ضد الحكم . وهذا ما حصل مع الخليفة السعيد عندما ثار وتآمر عليه الخلط وتأخروا عن مساعدته ضد بني عبد الواد واتفقوا معهم على الغدر به ورجعوا لمحلته فقتلوا ونهبوا . فحبس الخليفة ذلك الفعل الذميم المنسوب اليهم الى أن احتال عليهم . ذلك لما وصلوا الى مراكش أذن لهم بالدخول الى القصبة وكان عبيد المخزن وبعض المتجندين مستعدين لهم عند دخولهم حيث قاموا بالانتقام منهم بالقتل لهم والاعدام وقيل بالسم بالطعام فماتوا في الحال وكان عددهم سبعين وذلك في عام ستة وأربعين وستمائة (٦٤٦هـ) (١٣٢)

وبذلك لم تقتصر مهمة العبيد على تجنيدهم في الجيش ، وانما استفاد الخلفاء منهم بجعلهم الحراس الاوفياء لهم وبدفعهم للقيام بعمليات التصفية ضد الخونة أو الذين يشك في توحيدهم وتركوا لباقي عناصر الجيش التفرغ لمهمة حماية أراضي الدولة والدفاع عنها .

المطوعة :

أما عن نظام التطوع والمطوعة فكان يقوم الى جانب نظام الحشد الجبري حيث تحشد اعداد كبيرة من الجند على سبيل التطوع دون تكليف ، ويسمى هؤلاء بالمطوعة ويمكننا الاستنتاج بأن هؤلاء المطوعة هم العموم الذين يتحدث عنهم المراكشي بقوله : والعموم ، هم الكائنون ببلادهم لا يحضرون الى مراكش الا في النفير الاعظم(١٢٤) .

ويحدثنا ابن عذاري عن طريقة التطوع في الجيش الموحدي فيقول : فيعهد الخليفة المنصور عام خمس وثمانين وخمسمائة (٥٨٥ هـ) أشيع في الجبال القبلية والبلاد

الغربية النداء بالجهاد من غير تكليف على حكم التطوع وتأتي الارادات فترادفت الامم من الجبال والبسائط طامعين متطوعين وأتت أناس كثيرة من حبش غانية وعمرة الصحاري مبادرين فاجتمع بالحضرة من الاحمر والاسود وشتى اللغات من الحشود والمطوعة وعموم الاعراب من الجنود من معدود وغير معدود طائعين فأضاق بهم رحب الفضاء وتكاثر عن العدو الاحصاء(١٢٥)

كذلك وفي عام ٥٩١ هـ أرسل الخليفة المنصور الى بلاد الغرب مراكش وغيرها يستنفر الناس من غير اكراه . فأتاه من المطوعة والمرتزقين جمع عظيم(١٢٦) .

هذه هي العناصر التي تكون منها الجيش الموحدي . وبقدر ما كان لهذه العناصر فعاليتها في توسع وقوة دولة الموحدين كان لبعض العناصر منها تأثيرها القوي في اضعاف هذا الجيش وانحلاله .

(١) موسى عز الدين عمر أحمد ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، دار الشروق ، بيروت ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م ، الطبعة الاولى ص ٩٣ .

(٢) جزر البليار : وهي ثلاث جزر ميورقة ومنورقة ويابسة . يقول الحميري : ميورقة هي جزيرة في البحر الزقاقي تسامتها من القبلة بجاية من بر العدوة بينهما ثلاثة مجار . ومن الجوف برشلونة من بلاد أرغون وبينهما مجرى واحد . ومن الشرق احدى جزيرتيها منورقة وبينهما مجرى في البحر طوله أربعون ميلا . وغربيها جزيرتها يابسة بينهما مجرى في البحر طوله سبعون ميلا . وميورقة أم هاتين الجزيرتين وهما بنتاها . انظر : الحميري ، محمد عبد المنعم الحميري ، (ت أواخر القرن ٩ هـ/١٥م) . كتاب الروض المعطار في خبر الاقطار ، دار السراج ، (ت احسان عباس) ، بيروت ١٩٨٠ ، الطبعة الثانية ص٥٦٧ .

(٣) عسة ، أحمد ، المعجزة المغربية ، بيروت ١٩٧٤ – ١٩٧٥ الطبعة الاولى ص ٣١ .

(٤) عبادي ، أحمد مختار ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، الاسكندرية ١٩٦٨ ، الطبعة الاولى ، ص ١٠٦ – ١٠٧ ، ١١٠ . أبو رميلة، هشام ، علاقات الموحدين بالممالك النصرانية والدول الاسلامية في الاندلس ، دار الفرقان ، عمان ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م ، الطبعة الاولى ص٣٩ .

(٥) المراكشي (عبد الواحد ، (كان حيا في النصف الاول من القرن السابع هجري/ الثالث عشر الميلادي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب . نشره محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ١٩٤٩ ص ٢٣٥ .

(٦) ابن صاحب الصلاة ، عبد الملك ، (كان حيا سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م) . المن بالامامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين . (ت. عبد الهادي التازي) بيروت ١٩٦٤م ص ٥٤ .

(٧) تقع شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلا بداخل المغرب وليس حولها من الجبال الا جبل صغير يسمى ايجليز وعظمت مراكش في عهد الدولتين المرابطية والموحدية .
انظر الحميري . الروض المعطار ص ٥٤٠ .

(٨) ابن صاحب الصلاة . المن بالامامة . ص ٤٣٨ ، ٤٥٢ .

(٩) المصدر السابق ص ٤٣٨ ، ٤٥٢ .

(١٠) ابن عذاري (كان حيا سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢مم) ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ،القسم الثالث ،(ت. امبروثو هويثي ميراندا ومحمدبن تاويت وابراهيم محمد الكتاني) طبعة تطوان ١٩٦٠م ص ١٢٩ ، راجع نفس المصدر ص ٢٣٨ عن قيام الخليفة الرشيد باعداد الاخبية والعدة استعدادا للحرب .

(١١) البركة : انعام ، اكرام ، نعمة الله يمنحهاالعبد . دوزي ، رينهارت ، تكملة المعاجم العربية جـ١ ترجمة محمد سليم النعيمي ، العراق١٩٧٨ ص ٣٠٥ .

(١٢) الدنانير : كان أساس العملة الموحدية الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي وربما استعمل المثقال الذي له نفس وزن الدرهم . وأهم ما يعطيفكرة الرخاء الذي يعم البلاد أن نقرأ أن البركة التي نفخ بها الجنود ذات يوم فاقت بكثير مليارا من الفرنكات المغربية . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٥ .

(١٣) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ٥٣ .

(١٥) مصمودة احدى القبائلالبربرية الكبيرة والتيتنفرع من شعب البرانس أما أماكن سكناها فتبدأ في المنطقة الممتدة من نهر أم ربيع الذي يصب منجبال صهناجة وينتهي الى المحيط الاطلسي وآخر بلادهم الصحراء ، انظر : ابن خلدون ، عبدالرحمن ، (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الاكبر ، المجلد السادس القسم الاول . بيروت ١٩٥٩ ص ١٧٥ ــ ١٧٩ ، ابن حزم ، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الاندلسي، جمهرة أنساب العرب جـ٢ ، دار المعارف . تحقيق عبد السلام هارون مصر ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م ص ٤٩٥ ــ ٤٩٦ ، المراكشي، المعجب ص ٢٤٠ ، دائرة المعارف الاسلامية نقلها الى العربية محمد ثابت الفندي ورفاقهمجلد ، ٣ ص ٥٠١ ــ ٥٠٦ .

(١٦) جوليان، شارل أندريه، تاريخافريقية الشمالية جـ٢ ، الدار التونسية للنشر ، تعريب محمد المزالي والبشير بن سلامة. تونس ١٣٩٨هـ ــ١٩٧٨م ص ١٦٢ .

(١٧) بدر ، أحمد ، تاريخ الاندلس (التجزؤ ــ ــ السيادة المغربية ــ السقوط والتأثير الحضاري) مكتبة أطلس ، دمشق ١٩٨٣ ص ٢٧٥ .

(١٨) هرغة : احدى بطون مصمودة الساكنة في بلاد السوس بجبال أطلس . العبادي . دراسات فيتاريخ المغرب والاندلس ص ١٠٤ . ابن الخطيب (لسان الدين ابن الخطيب) (ت ٧٧٦ هـ/١٣٧٤م). المغرب العربي في العصر الوسيط القسم الثالث من كتاب الاعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، تحقيق وتعليق الدكتور أحمد مختار العبادي والاستاذ ابراهيم الكتاني . الدار البيضاء ١٩٦٤م ص ٢٦٦ هامش تعليق رقم (١) .

(١٩) هنتاتة : كانت من أكبر قبائل مصمودة في العصر الوسيط وموطنها الجبال الواقعة خلف مراكش . ابن خلدون . العبر م٦ ، ق٢ ،ص ٥٦٢ . مجلة الدارة . العدد الثالث . السنة الثانية عشرة . ربيع الاخر ١٤٠٧هـ/ديسمبر١٩٨٦م . مقال بعنوان بعض ملامح الحياة الاجتماعية في مدينة مراكش للدكتور سليمان عبد الغنيالمالي ص ١٧٣ .

(٢٠) تينملل : اسم مكان لا قبيلة . وكان لاهل تينملل سبق في دخولهم دعوة ابن تومرت فارتفعت مكانتهم بين قبائل مصمودة ، وخاصة بعد اقامة المهدي بن تومرت داره ومسجده في مدينتهم وبين ظهرانيهم وشاركت المهدي في حروبه بعد أن انخرطت في دعوته . انظر : ابن خلدون . العبر ، م٦ ، ق٢ ص ٥٦١ . مجلة الدارة . العدد الثالث . السنة الثانية عشرة . ص ١٧٣ .

(٢١) كنفيسة : أو جنفيسة وهي قبيلة بجبال المصامدة جنوبي مراكش . انظر : مجلة الدارة ، ص ١٧٣ .

(٢٢) كدميوة : كانوا تبعا لهنتاتة وتينملل في الامر. وتسكن جنوب غربي مراكش . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٦٨ .

(٢٣) وريكة : مجاورون لهنتاتة وكانت بينهما حروب كانت الغلبة فيها لهنتاتة . ابن خلدون العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٧٠ . مجلة الدارة ص ١٧٣ .

(٢٤) كومية : احدى بطون بني فاتن من البرابرة البتر وكانت مواطنهم في المغرب الاوسط . الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد (ت ١٣١٥/١٨٩٢م) الاستقصا لاخبار المغرب الاقصى جـ٢ تحقيق وتعليق الاستاذ جعفر الناصري ـ والاستاذ محمد الناصري ـ الدار البيضاء ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٤م ص ١٢٧ .

(٢٥) ابن خلدون ، م٦ ، ق٢ ، ص ٥٦٠ .

(٢٦) هسكورة : أكثر قبائل المصامدة ، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة وكانت مواطنهم على عهد الموحدين بمنطقة السوس بين وادية وادي ماسة . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق٢ ، ص٥٥٢ .

البيذق : أبو بكر الصهناجي (كان حيا في النصف الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) . المقتبس من كتاب الانساب في معرفة الاصحاب. تحقيق عبد الوهاب منصور ، الرباط ١٩٧١ م ص ٣٥ هامش تعليق (٤٩) .

(٢٧) المراكشي ، المعجب ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(٢٨) تينملل : هو حصن عظيم من حصون جبال درن بالمغرب . وهو منيع صعب المرتقى وكان الامام المهدي زاد في تحصينه وجعل فيه مخازن أمواله وبه الان قبره الحميري، الروض المعطار ص١٢٨ .

(٢٩) ابن خلدون ، م٦ ، ق٢ ، ص ٤٧٠ . الفاسي، علي بن أبي زرع الفاسي ، الانيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك العرب وتاريخ مدينة فاس . الرباط ١٩٧٢ ، ص ١٩٨ ـ ٢٠٠ .

(٣٠) لمتونة : من قبائل الملثمين في صهناجة وهي سيدة الادرار في موريتانيا . بدر . تاريخ الاندلس ص١٩٨ ـ ٢٠٠ .

(٣١) مؤلف مجهول ، الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشي .اعتنى بنشره وتصحيحيه ي .س. علوش رباط الفتح ١٩٣٦ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ ، ابن القطان (كان حيا في منتصف القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي) نظم الجمان من أخبار الزمان ، تحقيق محمود علي مكي ، الرباط ١٩٦٤ م ص ٢٨ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣٢) ابن الخطيب ، رقم الحلل في نظم الدول ، تونس ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩م ص ٥٧ .

(٣٣) الفاسي ، الانيس المطرب ص ١٨٩ . مؤلف مجهول ، مجموع رسائل موحدية من انشاء كتاب الدولة المعنية اعتنى باصدارها ليفي بروفنسال ، رباط الفتح ١٩٤١م ص ٨٣ ـ ٨٨ .

(٣٤) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٦٨ – ٣٥٤ .

(٣٥) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٣٠٦ .

(٣٦) زناتة : جذم كبير من البربر البتر ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يغرن وجراوة وبين يرنيان وجديجن وغمرة وبني يجفش وأسينوبني تيفرست وبني مرين وبني توجين وبني عبد الواد وبني راشد وبني برزال وبني ورنيد وبني زنداك وغيرهم وفيكلواحد من هذه الشعوب بطون متعددة . ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٤ – ١٥ .

(٣٧) وهران : بالمغرب على ساحل البحر ، قيلانها أسست في سنة تسعين ومائتين ، وهي تقابل مدينة المرية في ساحل بر الاندلس الحميري. الروض المعطار ص ٦١٢ – ٦١٣ .

(٣٨) تلمسان : قاعدة المغرب الاوسط وحده وهي مدينة في أول الصحراء وعلى الطريق الى سجلماسة ووراكلة وغيرهما من بلاد الصحراء. الحميري ، الروض المعطار ص ١٣٥ .

(٣٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ق٣ ص ١٨ .

(٤٠) الناصري ، الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٤١) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢٠١ – ٢٠٢ .

(٤٢) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ص ١٢٩ .

(٤٣) يغمراسن : فارس زناتة ومؤسس الدولةالعبد الوادية الزناتية بتلمسان . الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢٩٣ حاشية .

(٤٤) تازا : من بلاد المغرب ، أول بلاد تازا حدٌ مابين المغرب الاوسط وبلاد المغرب في الطول ، وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلةوغيرهما . الحميري . الروض المعطار ص ١٢٨ .

(٤٥) ابن خلدون ، م٧ ، ق٧ ص ٢٥٥ .

(٤٦) المصدر السابق ، م٧ قسم ١ ص ١٧١ .

(٤٧) ايسلي : مدينة في شرقي ارشجول وبمقربة من وهران من أرض المغرب . الحميري . الروض المعطار ص ٥٨ .

(٤٨) وجدة : بالمغرب ، بينها وبين تلمسان ثلاثمراحل وعلى وجدة طريق المار والصادر من بلاد المغرب والى سجلماسة وغيرها . الحميري ،الروض المعطار ص ٦٠٧ – ٦٠٨ .

(٤٩) ابن خلدون ، م٧ ، ق١ ، ص ١٧٢ .

(٥٠) مكناسة : مدينة في المغرب من نظر فاس الىجهة المغرب . الحميري ، الروض المعطار ص ٥٤٤ .

(٥١) تادلة : أو تادلا ، ناحية بمراكش تشملالهضاب التي تمتد الى الغرب من وادي أم الربيع المرتفع كما تشمل المنحدرات الغربية لجبالالاطلس الوسطى ، من وادي العبيد الى منابع ملوية. دائرة المعارف الاسلامية ، م٤ ص ٤٥٧ .

(٥٢) وادي أم ربيع : هو وادي وانسيفن ، عندقلعة مهدي ببلد فازاز من أرض المغرب . وأم ربيع قرية كبيرة هنالك ، ونهر أم ربيع على هذا الوادي ، وهو كبير خرار يجاز بالمركب سريع الجري كثير الانحدار والصخور والجنادل . الحميري، الروض المعطار ص ٦٠٥ .

(٥٣) اجليز ، تقع في منحدرات الاطلس الصغير ،أو ما وراء الاطلس ، على وادي نفيس . بدر (أحمد بدر) تاريخ المغرب والاندلس ، دمشق ١٩٨٠–١٩٨١ م ص ٢٢٣ .

(٥٤) البيذق ، (أبو بكر الصهناجي) ، أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، صححه وترجمه ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م ص١٠٢ .

(٥٥) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٥٦) سطيف : مدينة أو حصن ، بينها وبين مليلة مرحلة . وهي قديمة أزلية . الحميري ، الروض المعطار ص ٣١٨ .

(٥٧) ابن الاثير ، أبو الحسن على بن محمد الجزري (٦٣٠هـ/١٢٣٣م) . الكامل في التاريخ ، ط القاهرة عام ١٣٠٤هـ ، المجلد ١١ ص ١٥٨ ،، ١٨٦ . التجاني ، أبو محمد عبد الله بن محمد (ت حوالي ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م)، رحلة التجاني ، نشره حسن حسني عبد الوهاب ، تونس ١٩٥٨ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ . الناصري ، الاستقصا جـ٢ ص ١٠٨ ، ميشيل ، اماري ، المكتبة العربية الصقلية ، ليبزغ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ .

(٥٨) سليم : لقد كانت القبائل الهلالية من القبائل العربية بينهم سليم أقوى عناصر الهلالية وأعرقها وأغناها د. عمر (مصطفى أبو ضيف) القبائل العربية في المغرب في عصري المرابطين والموحدين، الجزائر ١٩٨٢ .

(٥٩) قابس : مدينة من بلاد افريقية بينها وبين القيروان أربع مراحل ، وتعد من البلاد الجريدية ، وبينها وبين طرابلس ثمانية أيام وهي مدينة كبيرة بحرية صحراوية . الحميري ، الروض المعطار ص ٤٥٠ .

(٦٠) ابن عذاري ، ق٣ ، ص ٣٩ .

(٦١)

(٦٢) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ص ٢٤٥ - ٢٤٦ . الزركشي ، أبو عبد الله محمد بن ابراهيم اللؤلؤي ،تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تونس ١٢٨٩ هـ ص ١٣ .

(٦٣) اشبيلية : مدينة بالاندلس بينها وبين قرطبة مسيرة ثمانية أيام ومن الاميال ثمانون . الحميري ، الروض المعطار ص ٥٨ .

(٦٤) ابن مردنيش : وهو جندي مسلم من أصل اسباني قام بضم كل من فالينسيا وباقي القسم الشرقي من اسبانيا تحت سيطرته وذلك عندموت حاكم هذه المناطق محمد ابن اياد بن عامي (١١٤٦ - ١١٤٧م) الموافق لـ ٥٤١هـ وكانت علاقته طيبة مع الولايات المسيحية في الشمال وقد قاوم بمساعدتهم الموحدين حتى وفاته في مرسيلية عام ١١٧٢م .

(٦٥) بني جشم : هم بنو جشم بن معاوية بن بكر بن هوزان ومن أولادهم ، غزية وعدي وعصيمة ومنهم جاء بنو جشم الذين انتقلوا الى افريقية بسبب تأييدهم لبني غانية ضدهم . عمر ، القبائل العربية في المغرب ص ٢٤٠ .

(٦٦) ابن صاحب الصلاة ، المن بالامامة ص ١٢٧ ، ١٢٩ ، ١٤٤ .

(٦٧) عمر ، القبائل العربية في المغرب ص ٧٤ -٧٥ .

(٦٨) ابن طفيل : عرف الذين يهتمون بتاريخ ابن طفيل طائفة من آثاره الشعرية في التغزل والحكمة والزهد والرثاء متناثرة في بعض معاجم الادب الموحدي ، كما عرفوا أرجوزته الخالدة في الامراض وعوارضها وعلاجها . ابن صاحب الصلاة ،ص ٤١١ حاشية .

(٦٩) ابن عذاري ، ق٣ ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٧٠) ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٧١) الفاسي ، الانيس المطرب ، ص ٢١٢ . مؤلف مجهول ، مجموع رسائل موحدية ، ص ١٥٢ ، ١٥٦

(٧٢) اسحق بن غانية : وجه علي بن يوسف بن تاشفين الى الاندلس رجلين من قبيلة مسوفة همـا : يحيى ومحمد ، ويعرفـان بابني غانيـة (نسبة الى أمهما) فاما يحيى فقد ولاه على بن يوسف على مدينة بلنسية ، ثم ولاه قرطبة فظل على ولايتها حتى مات . وأما محمد فقد تقلد بعض أعمال قرطبة من قبل أخيه يحيى ، فلمـا اضطرب أمر الاندلس بعد موت على بن يوسف وقوي نفـوذ الموحدين ، خشي محمد بن غانية على نفسه فعبر جزيرة ميورقة مع أهل بيته وحشمه فملكها ، كما استولى على جزيرتي منورقة ، ويابسة وعاش في هذه الجزر ودعا للخلفاء العباسيين فيها ، وكان لمحمد من الاولاد عبد الله واسحاق والزبير وطلحة وقد آل الحكم الى ابنه اسحاق ثم الـى حفيده علي ابن اسحق الذي حارب يعقوب المنصور الموحدي ببلاد المغرب . حسن (حسن ابراهيم حسن) تاريخ الاسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٦٧ ص ٢٢٥.

(٧٣) ابن الاثير ، الكامل م١١ ، ص ٥٢٠ . ابـن خلدون . العبر ، م٦ ، ق١ ص ١٤٤ ـ ١٤٥ .

(٧٤) الفاسي ، الانيس المطرب ص ٢١٨ .

(٧٥) ابن صاحب الصلاة ، ص ١٧٢ حاشية .

(٧٦) ابن عذاري ، ق٣ ص ١٥٨ .

(٧٧) ابن عذاري ، ص ٢٠٨ .

(٧٨) الفاسي ، ص ٢٣٠ ، الناصري ، جـ٢ ص ١٨٣ .

(٧٩) ابن عذاري ، ص ٢١٨ .

(٨٠) الخلط : هـم في عداد جشـم والمعروف أن الخلط بنو المنتفق من بني عامر بن عقيل بـن كعب كلهم شيعة للقرامطة في البحرين ولما ضعف أمر القرامطة استولى بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة ، ثم غلبهم عليها بنو أبي الحسين من بطون تغلب بالدعوة العباسية فارتحل بنو سليم وبنو المنتفق من هؤلاء المسمون بالخلط الى افريقية الى أن نقلهم المنصور الموحدي الى المغرب وكانت رياستهم طوال العصر الموحدي في بيت أولاد حميدان ثم انتقلت الى أولاد علي بن علي في أواخر الدولة الموحدية ابن خلدون. العبر.م٦،ق١ص٦٢ . عمر . القبائل العربيـة في المغرب ص٢٤١ ٢٤٢ .

(٨١) ابن عذاري ، ص ٢٥٢ ـ ٢٥٣ ، ٢٤١ ـ ٢٤٢ . ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق١ ، ص ٦٣ ـ ٦٤ . المصدر السابق م٦ ق٣ ص ٥٣٥ . الانصاري الاوسي المراكشـي ، الذيل والتكملـة لكتابي الموصول والصلة . تقديم وتعليـق محمد بن شريفة ، السفر الثامن القسـم الاول : الرباط ١٩٨٤م ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

(٨٢) ابن خلدون ، العبر ، م٦ ، ق١ ص ٣٥٩ ـص ٥٤١ . المصدر السابق م٦ ، ق٣ ، ص ٥٣٨ ، ٥٤٣ . ابن عذاري ، ص ٤٤٣ . الناصري ، الاستقصا جـ٢ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

(٨٣) الغز : جنس من الترك بلادهم على تخوم بلاد الصين ، وقد عرفهم العرب في أيـام الفتوح الاولـى دخلوا بلاد المسلمين أسارى ومماليك فلم يلبث كثير منهم أن ملكوا حرياتهم وبرزوا في الحياتين المدنية والعسكرية وقد أصبح لهؤلاء الغز شـأن في تاريخ افريقية أواخر القرن السـادس أوائـل القـرن السابع وكان وصولهم اليها حوالي سـنة ٥٦٨ هـ وعلى عرش مصر وقتئذ الملك الناصر صـلاح الدين الايوبي . ابن الاثير ، العامل م١١ ص٣٨٩ . ، المراكشي ، المعجب ص ٢٨٨ـ٢٨٩ حاشية.

(٨٤) بجاية : مدينة بالجزائر على شاطىء البحر لاقليم قسنطينة. دائرة المعارف الاسلامية م٣ ص٠٣٥.

(٨٥) تونس : مدينة بافريقية يقال انها أحدثت عام ثمانين بينها وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وبينها وبين البحر نحو أربعة أميال وبين تونس وقرطاجنة نحو عشرة أميال . الحميري ، ص ١٤٣.

(٨٦) المهدية : مدينة بساحل افريقية كان ابتداء بنيانها سنة ثلاثمائة (٣٠٠هـ) وبينها وبين القيروان ستون ميلا . الحميري ، ص٥٦١ - ٥٦٢ .

(٨٧) ابن الاثير ، الكامل ، المجلد ١١ ص ٥١٩ -٥٢٢ .

(٨٨) ابن عذاري ، ص ١٦٤ .

(٨٩) المراكشي ، المعجب ص ٢٧٤ .

(٩٠) الجامكية : كلمة فارسية ، جامكي من جامه، لباس ومعناها الاصلي المال المخصص للملابس ، جمعها جوامك وجماكي : عطاء ، راتب أجرةوظيفة. ويقال بمعنى أجرى له راتب أو وظيفة : أعطاه جامكية وعمل له جامكية وأطلق له جامكية . دوزي ، تكملة المعاجم العربية جـ ٢ ص١٢٧.

(٩١) المراكشي ، المعجب ص ٢٨٨ .

(٩٢) وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة ، يشقها نهرعظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماست ، وجريه من القبلة الى الجوف كجري نيل مصر ، وعليه القرى المتصلة والعمارة الكثيرة وعلى هذا النهر قرية كبيرة جدا تعرف بتارودنت . الحميري ، ص ٣٣٠ .

(٩٣) جزولة : قبيلة من شعب صهناجة من البربرالبرانس . أما مواطن سكناها فكانت باقليم سوس وبجهاته وجزولة اليوم قبائل وبطون عديدةتحمل أسماء أكثرها فرعي يطول تعدادها . البيذق ، الانساب في معرفة الاصحاب ص ٤٨ حاشيةرقم (٩٤) .

(٩٤) المراكشي ، ص ٣١٥ .

(٩٥) ابن عذاري ،ص٢٧٣

(٩٦) التجاني ، رحلة التجاني ص ١١١ .

(٩٧) عنان ، عصر المرابطين والموحدين جـ ٢ ص٦٣٦ .

(٩٨) ابن الاثير ، الكامل ، مجلد ١١ ص ١١٥ .

(٩٩) ابن عذاري ، البيان المغرب ص ٥٨ .

(١٠٠) عنان ، جـ ٢ ص ٦٤٢ . راجع ابن صاحب الصلاة عن كيفية انضمام عساكر اشبيلية الى عساكر الموحدين لفك حصار غرناطة من ابن همشك عام ٥٥٧ هـ .

(١٠١) قرمونة : مدينة بالاندلس في الشرق من اشبيلية ، بينها وبين استجة خمسة وأربعون ميلا ، الحميري ، ص ٤٦١ .

(١٠٢) ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٦ .

(١٠٣) غانم بن مردنيش : هو الذياسندت اليهفيمابعد قيادة الاسطول المرابط في سبتة . ابن عذاري. البيان المغرب القسم الثالث ص ١٠٥ .

(١٠٤) طليطلة : بالاندلس ، وهي مركز لجميع بلادالاندلس لان منها الى قرطبة تسع مراحل ، ومنها الى بلنسية تسع مراحل ايضا ، ومنها الى المرية في البحر تسع مراحل . الحميري . الروض المعطار ص ٣٩٣ .

(١٠٥) طلبيرة : بالاندلس أيضا ، بينها وبين وادي الرمل خمسة وثلاثون ميلا ، وطلبيرة أقصى ثغور المسلمين وباب من الابواب التي يدخل منها الى ارض الفرنجة وهي تقع على نهر تاجة . الحميري الروض المعطار ص ٣٩٥ .

(١٠٦) ابن صاحب الصلاة ، ص ٥١٦ .

(١٠٧) غرناطة : مدينة بالاندلس بينها وبين وادي آش أربعون ميلا وهي من مدن البيرة . الحميري . الروض المعطـار ص ٤٥ .

(١٠٨) ابن صاحب الصلاة ، ص ٢٠٢ .

(١٠٩) ابن عذاري ، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨ .

(١١٠) قرطبة : قاعدة الاندلس . وأحواز قرطبـةتنتهي في الغرب الى اشبيلية ، وتاخـذ في الجوف ستين ميلا ، وتختلط احوازها في الشرق باحواز جيان . الحميري ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .

(١١١) بطليوس : بالاندلس من اقليم ماردة بينهما أربعون ميلا ، ومن بطليوس الى اشبيلية ستة أيام ومنها الى قرطبة ست مراحل . الحميري ،الروض المعطار ص ٩٣ .

(١١٢) ابن صاحب الصلاة ص ٣٩٢ .

(١١٣) شنترين : بالاندلس مدينـة معدودة في كورباجة وهي مدينة على جبل عام ولشنترين جزائر في البحر مسكونة واحوازها متصلة بأحواز باجة. الحميري ، ص ٣٤٦ .

(١١٤) الحميري ، ص ٣٤٦ .

(١١٥) مجلة الدارة ، العدد الثالث السنة الثانيةعشرة ص ١٧٦ .

(١١٦) الماسي : هو محمد بن عبد الله بن هود الماسي تسمى بالهادي وادعى الهداية اقتداء بالمهـدي ابن تومرت فاقبل الناس عليه من كل مكـانواجتمعوا عليه اجتماعا طار به الذكر فيالافاق واتصلت دعوته في اقطار العدوة حتى لم يبقى منها الامراكش وفاس . مؤلف مجهول ،الحلل الموشية١٢١

(١١٧) ابن عذاري ، ص ٢٦ .

(١١٨) مؤلف مجهول ، ص ١٢١ .

(١١٩) الجزيرة الخضراء : بالاندلس ويقال لهـاجزيرة أم حكيم وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضـراء بينهـا وبين قلشانة اربعة وستون ميلا على ربوة مشرفة على البحر . الحميري،ص٢٢٣

(١٢٠) العدوة : المقصود بالعدوة هو بلاد المغـرببصفة عامة والعدوة (بضم العين أو كسرها أو فتحها) شاطىء الوادي وجانبه والنسبة اليها عدوى، لهذاأطلقت على عدوتي المغرب والاندلس لان بينهما مضيق جبل طارق ، وعدوتي سلا والرباط ويفصلهما وادي ابو الرقراق ، وعدوتي فاس وبينهما وادي فاس أو واديالجواهر . كذلك اصطلحعلى اطلاق كلمة العدوة ، لا على المغرب الاقصى وحده بل على المغرب العربي الكبير أيضا ، علـىاعتبار أن المغرب العربي الكبير يمثل جانبا مقابلا لاوربا وبينهما البحر المتوسط . عبادي ، دراساتص ٣٢٧ حاشية تعليق (٢) .

(١٢١) الناصري ، الاستقصا جـ٢ ص ٢١١ ـ ٢١٤ ،ابن عذاري ،ص٢٦٥، الانصاري الاوسي المراكشي ، الذيل والتكملة القسم الاول ص ١٩١ـ١٩٢ . ابن أبي دينار (محمد بن أبي القاسـم الرعيني القيرواني). المؤنس في أخبار افريقية وتونس، ١٢٨٦ هـ ص١٢٦ .

(١٢٢) ابن عذاري ، ص ٢٨٢ .

(١٢٣) ابن خلدون ، م٧ : ق٢ ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(١٢٤) تارودنت : قاعدة اقليم سوس في جنوبي مراكش على الجانب الايمن من وادي سوس وعلى مسيرة مائة ميل في الجنوب الغربي من مراكش و٥٤ميلا شرقي اغادير على المحيـط الاطلنطـي . دائـرة المعارف الاسلامية ، م٤ ص ٤٦٩ .

(١٢٥) فاس : قاعدة المغرب وتتألف من مدينتين مقترنتين يشق بينهما نهر كبير يسمى وادي فاس ومدينة فاس محدثة ، أسست عدوة الاندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة (١٩٢هـ) وعدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة (١٩٣ هـ) .الحميري ، ص ٤٣٤ .

(١٢٦) ابن عذاري ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٥ .

(١٢٧) المصدر السابق ص ٤٣٥ .

(١٢٨) جوليان ، تاريخ افريقية الشمالية ، ص ١٦٢ .

(١٢٩) بدر ، تاريخ المغرب والاندلس ص ٢٣٤ .

(١٣٠) البيذق ، ص ٧٧ .

(١٣١) جوليان ، ص ١٦٢ .

(١٣٢) البيذق ، ص ٩٦ .

(١٣٣) ابن عذاري ، ص ٤٠٩ .

(١٣٤) المراكشي ، المعجب ص ٢٤١ .

(١٣٥) ابن عذاري ، ص ١٧٤ .

(١٣٦) ابن الاثير ، الكامل م١١ ص ١١٥ .

● حصلت المرشحة على شهادة الماجستير من قسم التاريخ في كليـة الآداب بجامعة دمشق ، برسالتهـا « الجيش والتنظيم العسكري في دولة الموحدين » المعدة باشـراف الدكتورة نجدة خماش .

سورية ولبنان

في تقرير اقتصادي ألماني (١٩٤١)

فولكر بيرتس
باحث من المانيا

تمهيد :

في العام ١٩٤١ أصدرت احدى الشركات الصناعية الالمانية تقريرا مستفيضا عن البنية الاقتصادية لسورية ولبنان . ويكتسب هذا التقرير أهميته التاريخية لسببين: أولهما أنه يتضمن عرضا دقيقا ومستقلا لوضع سورية في فترة الانتداب ، وثانيهما أنه يشير ولو بشكل غير مباشر الى مصالح الامبريالية النازية في المنطقة . وهذه الشركة كانت تتبع ما يسمى مديرية الاقتصاد الوطني في (مجموعة صناعات الاصبغة) الالمانية (I. G. FARBEN INDOSTRIE)

تأسست هذه الشركة ، المعروفة باسمها المختصر (أ. غ. فربن I. G. FARBEN) أو (I. G. F) كاتحاد لاهم شركات الصناعات الكيميائية في ألمانيا ، وتطورت أثناء الحكم النازي لتصبح احدى مؤسسات الصناعات الحربية والمزود شبه الوحيد للجهاز الحربي الالماني بالوقود والمنتجات البتروكيميائية الاخرى ، واشتهرت بشكل خاص ومرعب بتجاربها على تأثير الغازات السامة التي أجراها علماؤها أثناء الحكم النازي على سجناء النظام ، وأخيرا بانتاجها للغاز السام (سيكلون ب) الذي استخدم لابادة المعتقلين في المعسكرات النازية .

وفضلا عن ذلك ، كانت الـ (أ. غ. ف.) كما جاء في تحقيق للسلطة العسكرية الامريكية في ألمانية بعد نهاية الحرب ، « احدى أهم أجهزة الدولة النازية للتجسس العسكري والاقتصادي العالميين »(١)

وكانت مديرية الاقتصاد الوطني المذكورة هي التي نسقت تلك المهمة ، فوضعت دراسات واحصاءات عن المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية والمالية للبلدان الاوربية وكثير من البلدان غير الاوربية وخرائط لمواقع المؤسسات الاستراتيجية والاقتصادية فيها .

Vowi 4412

Wirtschaftsbericht

SYRIEN / LIBANON.

Inhaltsverzeichnis

Teil A :	Allgemeine Angaben	Seite	A 1
Teil B :	Landwirtschaft.	"	B 1
Teil C :	Bergbau und Industrie	"	C 1
Teil D :	Aussenhandel	"	D 1
Teil E :	Währung, Kredit, Finanzen	"	E 1

Dr.F./Fw./Eb.
28.Juli 1941.

الصفحة الاولى من التقرير

Vowi 4412

Teil A : Allgemeine Angaben

Inhalt:

	Seite
Allgemeine Angaben	A 1
1. Das Land	A 2
2. Das Volk	A 4
a) Bevölkerungsverteilung und -dichte	A 4
b) Völker und Religionen	A 5
c) Soziale Gliederung	A 9
3. Politische Grundlagen	
a) Geschichte	A 11
b) Das französische Mandat Syrien/ Libanon	A 12
c) Politische Gruppen	A 14
d) Verfassung und Verwaltung	A 16
Verkehrswesen	A 17
a) Strassen und Motorisierung	A 17
b) Eisenbahnen	A 19
c) Hafen	A 20
d) Luftverkehr	A 22

الصفحة الثانية من التقرير

وليس هناك من تبرير لهذه الاعمال من موقف تجاري بحت ، ولكنها اكتسبت أهمية لا تقدر بالنسبة للحكومة النازية التي طمحت الى السيطرة على الدنيا ،ولجيشها تحديدا ، الذي استخدم الخرائط لاختيار أهداف القصف الجوي . وكانت الـ (ا. غ. ف.) ، كشركة عالمية ذات علاقات تجارية واسعة ولها شركات تابعة في كل دول العالم تقريبا ، تشرف على شبكة استعلامية مستقلة ومنظمة ، أكثرية علاقاتها التجارية غير مكشوفة . فكانت هذه الشبكة الجهاز المناسب للعمليات التجسسية التي كانت الحكومة النازية والجيش بحاجة اليها(٢) .

في سلسلة دراسات هذه المديرية صدر في تموز ١٩٤١ (التقرير الاقتصادي عن سورية ولبنان)(٣) ويقع في نحو ١٠٠ صفحة منسوخة على الالة الكاتبة . والغالب أن عدد نسخه لم يتجاوز المئة وزعت على الجهات ذات العلاقة ، اي على دوائر حكومية وعسكرية ، وغرف التجارة والصناعة ... وفيما يلي نقدم عرضا ملخصا للتقرير مع تعليق قصير .

تلخيص التقرير :

ينقسم (التقرير الاقتصادي عن سورية ولبنان) الى خمسة أجزاء ولكل منها ترقيم خاص للصفحات . وهذه الاجزاء هي : ١ ــ معلومات عامة ، ٢ الزراعة ، ٣ ــ الاستخراج والصناعة ، ٤ ــ التجارة الخارجية ، ٥ ــ العملة والمصارف والمالية.

المعلومات العامة :

يبدأ هذا الجزء بعرض جغرافي ومناخي لمنطقة الانتداب ، سورية ولبنان ، يليه فصل عن (الشعب) . ويشكوا واضعو التقرير من عدم توافر معلومات دقيقة عن عدد السكان . وحسب تقديرات التقرير يبلغ عدد سكان بلاد الانتداب ما بين ٦ر٣ و ٨ر٣ مليون نسمة، ٣ر٥١٪ منهم في (دولة سورية) ،و٧ر١٠٪ في (منطقة اللاذقية) و ١ر٢٪ في (جبل الدروز) و ٦ر٢٨٪ في لبنان و ٣ر٦٪ في (منطقة الاسكندرون) (٤) . ويشير التقرير الى الدور المميز الذي تلعبه الاقليات القومية والدينية في سياسة السلطة المنتدبة .

ويتابع فيقول أن ٦٢٪ من السكان فلاحون و ٢٥٪ يعملون في المهن والحرف والتجارة ، أما الباقون ، وهم تقريبا نصف مليون نسمة ، فهم من البدو أو شبه البدو حسب تقديرات التقرير .ومستوى التعليم في سورية مرتفع بالمقارنة مع البلدان العربية الاخرى فيما يخص المدن التي كانت (نقطة انطلاق للنهضة الادبية العربية في نهاية القرن الماضي) ولكنها تعاني على مستوى البلاد من وجود نسبة عالية من الاميين ، اكثرها في الجزيرة (أعلى من ٩٠٪) وأقلها في بيروت (٤٢٪)(٥) .

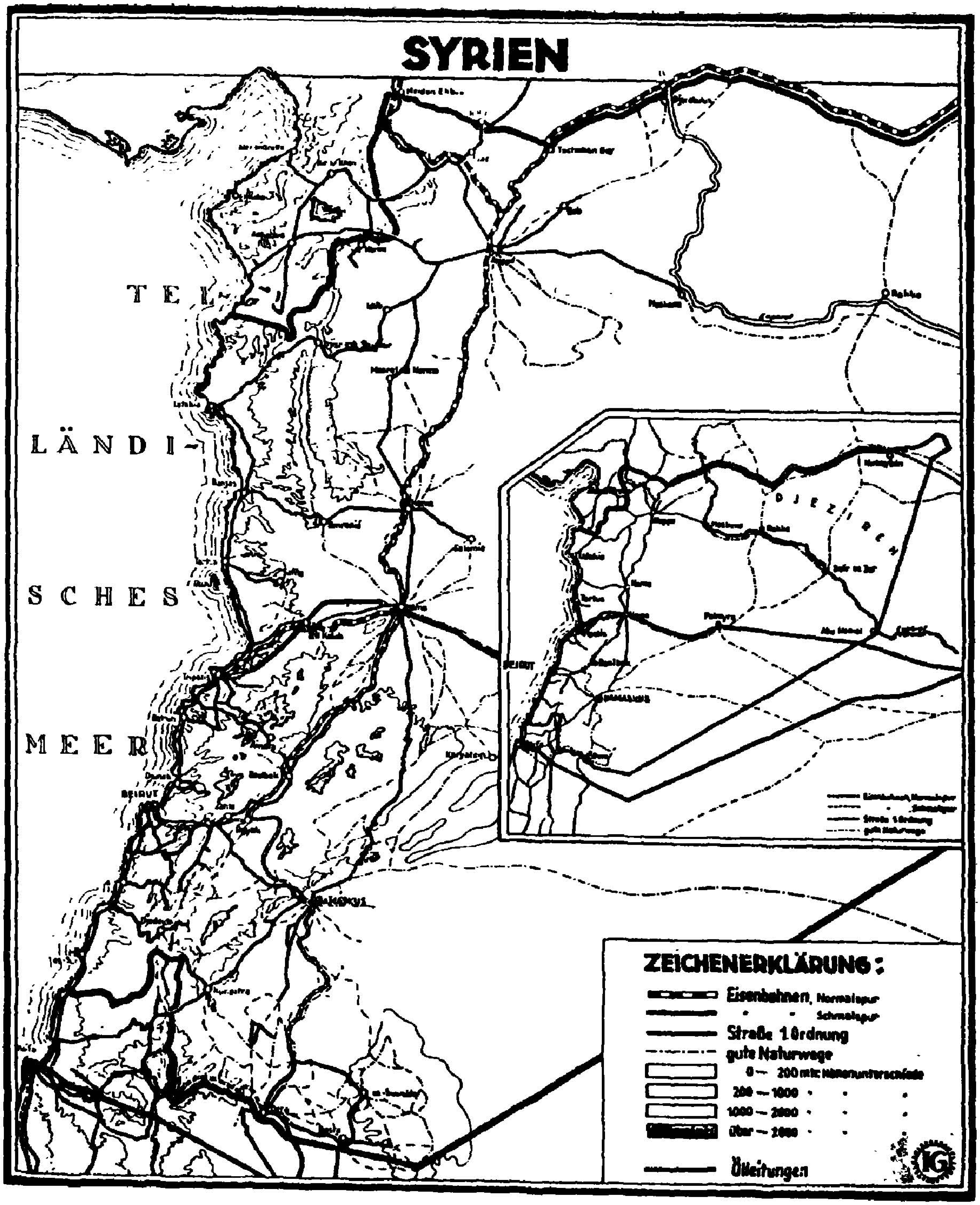
SYRIEN
TE L
LÄNDI-
SCHES
MEER
BEIRUT
DJEZIREH
ZEICHENERKLÄRUNG:
Eisenbahnen, Normalspur
Schmalspur
Straße 1.Ordnung
gute Naturwege
200 — 1000
1000 — 2000
über — 2000
Ölleitungen

ويشير التقرير في هذا النطاق الى عدد ارتفاع المهاجرين من سورية ويفيد بأنه بلغ ١٥٫٠٠٠ مهاجر سنويا فيما بين عامي ١٩٠٠ و ١٩١٣ ، و٩٠٠٠ مهاجر سنويا فيما بين عامي ١٩٢٢ و ١٩٣٣ ، ويشير الى أن تحويلاتهم المالية تعتبر ركنا مهما في ميزان المدفوعات في البلاد (٢) .

ويورد الفصل الثالث تلخيصا للتاريخ السياسي السوري والكتل السياسية المعاصرة والدساتير ونظم الانتداب الادارية ، ويقول انه ، عمليا ، « جميع السلطات بيد الادارة الفرنسية ومشاركة البلاد في الحكم ... تكاد تكون دون أهمية تذكر » . ويعالج الفصل الاخير لهذا الجهزء موضوع المواصلات ، ويورد أرقاما عن طول الطرق والسكك الحديدية حسب أنواعها ، وعن عدد السيارات والقطارات الموجودة (٨٢٠٠ سيارة سياحية و ٤٦٠ باصا و ١٨٠٠ سيارة شحن و٩٠ قاطرة).وعن حجم النقل عبر السكك الحديدية والموانى ، والمطارات ، وحركة المواصلات الجوية . وحسب التقرير تعد بلاد الانتداب بالمقارنة مع البلدان المجاورة ذات نسبة مرتفعة من المركبات الالية فنسبة السيارات الى عدد السكان في سورية ولبنان أعلى نسبة في الاقطار العربية ما عدا فلسطين . أما السكك الحديدية فيقدر التقرير أن موجوداتها من القاطرات والعربات غير كافية اطلاقا ، أضف الى ذلك مشكلة الانظمة المختلفة للطرق الحديدية (٧) .

الزراعة :

جاء في التقرير أن المساحة الصالحة للزراعة تبلغ نحو ٤٠ ألف كم٢ يستثمر نصفها ، ومنه ٢٠٠٠ كم٢ في لبنان(٨) وتعتبر الانتاجية المنخفضة أكبر مشكلات الزراعة السورية ، ويقول ان السبب الاول لهذه المشكلة يتعلق بالنظام الزراعي السائد ، أي غياب كبار الملاكين عن الريف وصغر حيازة المستأجرين ومديونيتهم . ويبلغ الحجم الوسطي للحيازة على اختلاف المناطق ٩ هكتارات ، في حين أن الحجم المطلوب لتأمين المعيشة هو بحدود ١٠ الى ١١ هكتارا (٩) .

ويورد التقرير احصاء للانتاج الزراعي وتصديره للسنوات ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩ ، ويشيد في تقويمه لهذه الارقام الى صلاحية الريف السوري لتصدير كميات متصاعدة تدريجيا من الحبوب ، اذا كانت هناك سياسة زراعية هادفة ، والى صلاحيته لزراعة الفواكه . فالفواكه هي حسب الاحصاءات الواردة أكبر الصادرات الزراعية قيمة . وتجدر الاشارة الى أن الصادرات الزراعية غير المصنعة لا تتجاوز ٥٠٪ من مجموع الصادرات (١٠) . أما تغذية السكان فيفيد التقرير بأن بلاد الانتداب لو كان عليها أن تعيش من مصادرها الذاتية فقط لكان عليها أن تواجه صعوبات في تأمين بعض المواد الغذائية وخاصة اللحوم والسكر . ومع ذلك كانت البلاد اقل تبعية للاستيراد الغذائي من غيرها ، كفلسطين مثلا (١١) .

الاستخراج والصناعة :

يفيد التقرير في بداية هذا الجزء أن على سورية ولبنان أن تستوردا كل حاجاتهما من الفحم والنفط ، ويقدر حاجة البلدين من المنتجات النفطية بـ ١٠٠ الف طن سنويا، ويشير الى أن تنقيبات استكشافية في شرق سورية بينت احتمال استخراج ما بين مليون ومليون ونصف طن من النفط سنويا في المستقبل . مع أن الشركة المالكة لامتياز التنقيب عن النفط في سورية لم تبد اهتماما كبيرا للاستفادة من هذا الامتياز . وفي الوقت الحالي يبدو خط أنابيب النفط العراقي أكثر أهمية من الحقول النفطية غير المستثمرة في سورية .

وحسب ما جاء في التقرير فان فرنسا ، كمساهم في شركة النفط العراقي ، قد عملت على عبور هذا الخط سورية ولبنان في طريقه للمتوسط(١٢) .

ويذكر التقرير محطات توليد الكهرباء في سورية ولبنان وكمية الطاقة المولدة فيها والتي تتراوح ما بين ٤٠ و ٥٠ مليون ك.و.س. سنويا ويعد ذلك قليلا نسبيا . ويذكر الاسفلت (الزفت) كأهم الثروات المعدنية التي يجدر استخراجها في سورية (١٣) .

ويرسم التقرير بالتالي صورة تفصيلية عن الصناعة السورية ـ اللبنانية ،ويؤكد في البدء أن الصناعة السورية كانت أثناء الحكم التركي متطورة ومتعددة الجوانب ، وأن في ذلك الوقت استغل نحو ١٥ بالمئة من أصحاب النشاط الاقتصادي جهدهم في الصناعات المختلفة ، وأن انهيار الحرف المحلية قد جاء بعد الحرب العالمية (الاولى) وذلك لسببين رئيسيين ،أولهما فقدان سورية لجزء من أسواقها التقليدية في الامبراطورية العثمانية ، وثانيهما التغيرات التي طرأت على أساليب الاستهلاك السائدة (١٤) . ومع ذلك يقدر التقرير امكانيات التصنيع الذي انطلق اعتبارا من ١٩٢٩ / ١٩٣٠ بأن لا بأس بها خصوصا فيما يختص بالصناعات الخفيفة ، وذلك لان قوة عمل رخيصة وعاطلة كانت متوفرة ، ومن شأنها أن تشكل ، اذا بقيت دون نشاط كما يقول التقرير ، بؤرة لعدم الاستقرار الاجتماعي وأرضا خصبة للنشاطات الشيوعية . ولكن تطوير الصناعة السورية يتعارض مع مصالح فرنسا الاقتصادية التي (ليست مع تصنيع بلاد الانتداب)(١٥) .

ويعرض التقرير لأهم المنشآت الصناعية السورية واللبنانية ويورد بعض المعلومات عن القوة العاملة ، وانتاج المنشآت ورؤوس أموالها . وتحتل الصناعات النسيجية المرتبة الاولى بين الصناعات السورية ولكنها حسب قول التقرير لم تعد قادرة أن تغطي الحاجات المحلية ، وتليها صناعة الزيوت والصابون التي تعاني من المزاحمة الاجنبية القوية ، والصناعات الغذائية وصناعة الاسمنت الفتية . وأهم المنشآت الصناعية هي حسب ما أورده التقرير التالية :

الجدول ٢ أ
التقرير ، ٤/٢٤

الصـــادرات الســـورية
تصدير سورية حســب الدول المســتوردة
النســبة المئويــة

	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
فلســـطين	٣٧ر٩	٤٨ر٦	٣٦ر٤	٣١ر٤	٢٧ر٦
فرنســـا	١٦ر٦	٨ر٩	١٧ر٤	١٤ر١	١٧ر٦
ايطاليــا	٤ر٤	٤ر٠	٢ر٦	١٠ر٢	٧ر٧
بريطانيـــا	٤ر٧	٥ر٩	٨ر٠	٦ر١	٦ر١
الولايات المتحدة	٤ر٣	٥ر٠	٩ر٠	١٤ر٥	٦ر٠
مصـــر	٤ر٧	٦ر٩	٥ر٤	٣ر٦	٥ر٧
بريطانيا وممتلكاتها	٠ر٢	٠ر١	١ر٤	٠ر٥	٠ر٧
ايــران	٠ر١	٠ر٠	٠ر٠	—	—
العــراق	٥ر٧	٣ر٢	٢ر٣	٣ر٠	٣ر٢
تركيــا	٢ر٨	١ر٩	٢ر٠	٣ر٣	٢ر٢
العربية السعودية	٠ر٥	٠ر٤	٠ر٥	٠ر٨	٠ر٨
ألمانيــا الكبرى	٤ر٠	٣ر٥	٢ر٧	٣ر٢	٦ر٥
سويســرا	٠ر١	٠ر٠	٠ر٠	—	—
هــولانــدا	٠ر٢	٠ر١	٠ر١	٠ر٢	٠ر٨
بلجيكـا	٠ر٩	١ر٤	٢ر١	٠ر٥	١ر٧
يوغســلافيا	—	—	—	—	—
رومانيـــا	٠ر٦	٠ر٤	٠ر٢	٠ر٥	٠ر٩
اليونـــان	٠ر١	٠ر٢	٠ر٣	٠ر١	٠ر٥
الســويد	٠ر٠١	٠ر١	—	—	٠ر١
اليـــابــان	—	—	٠ر٦	١ر٣	٠ر٩
الاتحاد السوفييتي	٣ر٩	٠ر٨	٠ر٤	—	—
دول أخــرى	٨ر٣	٨ر٦	٨ر٦	٦ر٢	١٢ر٠
المجمـــوع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

الجدول ٢ ب
التقرير ، ٢٦/٤

الواردات السورية حسب الدول المصدرة
(النسـبة المئويـة)

	١٩٣٤	١٩٣٥	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
بريطانيا	١١ر١	١٠ر٩	١١ر٢	١٠ر٣	١٣ر٤
فرنسا	١٦ر٣	١٣ر٥	١٣ر٤	١٢ر٣	١٣ر٠
اليابان	١١ر٣	١٠ر٠	١٢ر٧	١٢ر٩	٨ر٩
الولايات المتحدة	٥ر٩	٧ر١	٦ر٥	٦ر١	٧ر١
بريطانيا وممتلكاتها	—	—	٣ر٥	٢ر٨	٢ر٨
مصر	٢ر٤	٣ر٣	٣ر٢	٢ر٣	٢ر٧
ايران	٠ر٩	١ر٠	٠ر٩	٠ر٣	٠ر٣
العراق	٢ر٩	٥ر٢	٣ر٤	٢ر٢	٣ر٣
فلسطين	٢ر٨	٣ر٨	٤ر٣	٦ر٢	٦ر١
تركيا	٨ر١	٦ر٠	٢ر٥	١ر٥	٢ر٩
العربية السعودية	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠	٠ر٠
المانيا الكبرى	٩ر٣	١٠ر٦	١١ر٩	١٠ر٦	١٠ر١
ايطاليا	٥ر٨	٤ر٣	١ر٩	٧ر٦	٦ر٠
سويسرا	٠ر٦	٠ر٦	٠ر٨	٠ر٨	١ر١
هولاندا	١ر٦	١ر٣	١ر٣	١ر٧	١ر٢
بلجيكا	٤ر٦	٥ر٥	٦ر٦	٥ر٧	٤ر٧
يوغسلافيا	٠ر٥	٠ر٥	٠ر٤	٠ر٢	٠ر٣
رومانيا	٥ر٠	٥ر٣	٦ر٢	٦ر٧	٦ر٦
اليونان	٠ر٣	٠ر٢	٠ر٢	٠ر١	٠ر٢
السويد	٠ر٥	٠ر٧	٠ر٩	١ر٢	٠ر٨
الاتحاد السوفييتي	٠ر٦	١ر٠	١ر٢	٠ر٨	٠ر١
دول اخرى	٩ر٦	٩ر٢	٦ر٩	٧ر٨	٨ر٦
المجموع	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠	١٠٠ر٠

ـ محالج القطن في كل من اللاذقية وحمص وحماة وحميدية (؟) .

ـ معملين حديثين للغزل والنسيج في حلب ومعمل في طرابلس يضم ٣١ الف نول طاقته الانتاجية ٢٤٠٠ طن من الغزول بمجملها .

ـ معمل حديث لانسجة صوفية في كل من دمشق وبيروت ويبلغ انتاج سورية من الصوف الخام ٩٩٠٠ طن (في عام ١٩٣٨) ، ولكن استيراد المنتوجات الصوفية يفوق تصديرها بكثير .

ـ عدة معامل لنسج الحرير الصناعي في حلب ودمشق .

ـ عدة معاصر صغيرة للزيت ، وشركة فرنسية لعصر الزيوت تملك معملا في كل من اللاذقية وحارم . وبلغ نتاج زيت الزيتون نحو ١٥ ألف طن (في عام ١٩٣٨) يصدر أكثر من نصفه .

ـ عدة معامل للصابون في حلب ودمشق ولبنان انتاجهـا الاجمالي نحـو ٣٥٠٠ طـن سنويـا .

ـ مدابغ في دمشق وحلب وصناعة الاحذية بطريقة حرفية .

ـ مطاحن في حلب ولبنان ودمشق .

ـ الشركة السورية للكنسروة بدمشق ، ورأسمالها ٢٤٧٫٥ الف ل.س . وعدة معامل صغيرة لصناعة الكنسروة والمربيات والحلويات .

ـ معمل تصفية السكر قرب طرابلس يعمل فيه ١٢٠ عاملا وانتاجه ٤٫٠٠٠ طـن من السكر سنويا .

ـ صناعة التبغ والتنباك تابعة لل (ريجي) مع العلم أن استيراد السجائر يفـوق تصديرهـا .

ـ معملان كبيران للبيرة في بيروت وعدة معامل للكحول في لبنان ودمشق وحلب .

ـ مصنع اسمنت في طرابلس يشتغل فيه ٥٠٠عامل وانتاجه السنوي ١٧١٫٠٠٠ طن ، ومعمل اسمنت في دمر راسماله ١٤٤ الف ل.س وانتاجه ٨٠ الف طـن (في عام ١٩٣٨)(١٦) .

التجارة الخارجيـة :

يعطينا التقرير احصاءات كاملة تقريبا عن الميزان التجاري السوري ـ اللبنانـي والاستيراد والتصدير وتجارة المرور حسب الزمر الاقتصادية والمـواد حسب الكميـة

والقيمة ، وعن الكتل الدولية والبلدان المستوردة او المصدرة من والى بلاد الانتداب وذلك لفترة ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ ، وفي بعض الجداول اعتبارا من ١٩٣٥ ، ويفيد بجزء خاص عن التجارة السورية الالمانية . ومع اختصار شديد تمكننا هذه المعلومات من استخلاص النتائج التالية :

ـ كان الميزان التجاري لسورية ولبنان سلبيا باستمرار وبلغ النقص التجاري قيمة الصادرات في أكثر الاحوال . مع أن البلاد تمكنت في الفترة الممتدة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ من زيادة صادراتها بشكل ملحوظ . ومعنى هذا أن شروط التجارة (١٩٢٩ سنة الاساس) قد تغيرت لغير صالح سورية . وعلى سبيل المثال بلغ الرقم القياسي لكمية التصدير السوري (٥ر٤٦١) في عام ١٩٣٧ و (٣٧٧) في عام ١٩٣٨ بينما بلغت قيمته (٢ر٣٤) و (٠ر٤٢) و (٦ر٤٤) مليون ليرة سورية في هذه الاعوام نفسها (١٩٢٩ و ١٩٣٧ و ١٩٣٨) ولم تحدث تغيرات كبيرة مماثلة بالنسبة للمستوردات التي بقيت كمياتها ثابتة تقريبا(١٧) . وكان الميزان التجاري سلبيا بين بلاد الانتداب والبلدان الصناعية ، بينما كان ايجابيا بالنسبة للتجارة مع فلسطين والسعودية .

وكانت فلسطين أهم المستوردين لبضائع سورية وبلغ مجموع مستورداتها من الصادرات السورية ما بين ٦ر٢٧ و ٦ر٤٨ بالمئة ، في فترة ١٩٣٠ و ١٩٣٨ . وأهم البلدان المصدرة الى سورية ولبنان هي بريطانيا وفرنسا وبلغ نصيبهما من الاستيراد السوري ٤ر١٣ بالمئة لبريطانيا و ٠ر١٣ بالمئة لفرنسا فيعام ١٩٣٨ . ويتألف الجزء الاهم من الصادرات السورية واللبنانية من منتوجات زراعية مصنعة وغير مصنعة . ويزداد تصدير الفواكه والبقول والكنسروة تدريجيا من سنوات ١٩٣٦ الى ١٩٣٨ . أما المستوردات فتفوق السلع الاستهلاكية الاصول الثابتة التي كانت تتألف من فحم ومنتجات نفطية (١٨) .

العملة والمصارف والمال :

يعرض التقرير هنا أولا للنظام النقدي السوري ـ اللبناني ويشير الى مشكلة ارتباط العملة السورية بالفرنك الفرنسي، ويقول انه يوجد في الواقع نظام نقديمزدوج أو بالاحرى نظامين نقديين وذلك بسبب محافظة قسم كبير من السكان على التعامل بالليرة الذهبية التركية ، وأن تداولها منتشر خاصة في شرق البلاد وعند البدو وذلك لعدم الثقة بالعملة الورقية (١٩) . ويذكر التقرير قائمة بأهم البنوك العاملة في بلاد الانتداب ، ويعرض للنظام المالي لدويلاتها وجداول ميزانيات (المصالح المشتركة) والدويلات الاربع للسنوات ١٩٣٦ الى ١٩٣٩(٢٠) ويشير الى أن واردات الدولة في سورية تتكون بجزء كبير منها من الضرائب الزراعية التي تشكل ما بين ٣٥ و ٤٠ بالمئة من الدخول كافة ، بينما الجزء الاكبر من واردات ميزانية لبنان يتألف من ضرائب غير

مباشرة ، أي ضرائب على الوقود والملح والتبغ بالاضافة الى الرسوم وضريبة العقار . أما النفقات فيستهلك الجيش والامن ثلث الواردات تقريباً . ويقول التقرير أن سورية لو كانت مستقلة لكانت (غير قادرة على تأدية نفقات عسكرية مماثلة) . ويستخدم ما بين ٢٠ و ٢٥ بالمئة من الميزانيات للاشغال العامة والنفقات الاجتماعية(٢١) .

وفي ختامه يعطي التقرير قائمة بأهم المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية ولبنان وهذه هي حسب التقرير :

- البنك السوري ـ اللبناني ، رأسماله ٢٠ر٣٨ مليوك فرنك فرنسي (ف. ف).
- شركة كهرباء بيروت ، رأسمالها ٩٠ مليون (ف . ف) .
- شركة كهرباء حلب ، رأسمها ٥٤ مليون ف. ف .
- مؤسسة السكك الحديدية دمشق ـ حماة وتمديداتها ، رأسمالها ١٥ مليون ف. ف.
- شركة مرفأ بيروت ، رأسمالها ٩ر١٥ مليون ف. ف .
- الشركة العامة للشرق (لصناعة الزيوت الخ) ، رأسمالها ٥ر٣ ملايين ف. ف.
- الشركة الصناعية للاسفلت والبترول، اللاذقية ، رأسمالها ٢٠مليون ف. ف.
- مؤسسة اذاعة الشرق ، رأسمالها ٧ر٦ ملايين ف. ف .

تعليـــق :

قد يثير التقرير الاقتصادي لسورية ولبنان الذي وضع في مديرية الاقتصاد الوطني لل (أ. غ. ف.) الدهشة لأول وهلة لأنه يحلل الوضع السوري بدقة وموضوعية على ما يبدو ، وذلك دون أن يتهرب من تسمية الاضرار التي سببتها سياسة الانتداب الفرنسي والمصالح الاقتصادية الفرنسية * انما الدهشة لا تستمر طويلا ، لأن التقرير يعالج فيها استعمار فرنسا ـ التي هي في الوقت ذاته كانت الخصم والعدو الحربي لألمانيا النازية ، ولا يطرح السؤال مثلا كم من الرساميل الفرنسية العاملة في سورية قد وضعت تحت التصرف الالماني نتيجة للاحتلال الالماني لفرنسا . والراسمال الالماني ـ وهذا يجب أن لا يغيب عن بالنا حتى ولو أن احدى مؤسساته تكشف بشكل واضح عن النتائج السلبية للسياسة الاستعمارية لبلد ثاني ـ ليست مصلحته احداث تغير في

---

* ويجب أن ناخذ بعين الاعتبار ان الاستغلال الاقتصادي الذي مارسته الاحتكارات الالمانية وال (ا. غ. ف .) تحديدا في تلك البلدان التي احتلتها الجيوش النازية فاقت كثيرا الاستغلال الاستعماري التقليدي في مستعمرات بريطانيا أو فرنسا ، بما في ذلك الاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان .

علاقات الملكية ، بل مصلحته هي تبديل الجهة المالكة ، اي سيطرة راس المال الالماني على ما كان يسيطر عليه غيره من أملاك الغير .

وثانيا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار أن هذا التقرير لم يكن الا تقريرا داخليا ، غير معد للنشر ، بل للتوزيع على عدد محدود من دوائر ومؤسسات حكومية واقتصادية ، كانت تحتاج الى تحاليل وأرقام موضوعية كي تضع سياستها . وبالمناسبة ، يجب التنبيه الى انه علينا أن نواجه كل المعلومات الواردة في هذا التقرير بالتحفظ المناسب الذي يجب أن يظهر في وجه كل الاحصاءات والارقام التي نتعامل معها بالنسبة للفترة التاريخية هـذه .

أما ما يفيدنا به التقرير الاقتصادي لسورية ولبنان ضمنيا ، ظهر أولا أن منطقة الانتداب هذه لم تلعب الا دورا ثانويا بالنسبة للامبريالية الحربية الالمانية ، وهذا على الاقل في الفترة التي كتب فيها التقرير .ذلك لأن من الوجهة الاقتصادية، كانت المصلحة الرئيسية للامبريالية الالمانية في الحرب هي تزويد الجهاز الحربي بالخدمات اللازمة . وبهذا الصدد يقول التقرير أن كمية الخامات السورية المستوردة الى المانيا قد كانت ، أي ماقبل قطع الطرق التجارية نتيجة العمليات الحربية « قليلة الى حد أنها لم تكن قادرة على تأدية نصيب يذكر لصالح التموين الالماني »(٢٣) . أما المؤسسات الاقتصادية الموجودة في سورية فأهمها ، أي البنوك وشركات توليد الكهرباء الكبيرة و (الريجي) وصناعة الزفت ، كانت في يد الفرنسين ، وفرنسا نفسها كانت تحت احتلال الجيوش الالمانية ، وسمحت حالة الاحتلال هذه للامبريالية النازية أن تؤثر — في حال الضرورة— على تصرفات الرأسمال الفرنسي حتى الموجود منه في الخارج. وأهمية سورية بالنسبة للامبريالية الالمانية هو أكبر من وجهة نظر استراتيجية وهـذا خصوصا فيما يتعلق بالطموحات الالمانية باتجاه العراق وحقوله النفطية . وتشكل سورية هنا حسب تعبير التقرير « رأس الجسر لكل الطرق التي تمر براً من البحر المتوسط الى آسية الداخلية »(٢٤) . وهكذا نرى التقرير يهتم بالطرق السورية والمطارات المدنية منها والعسكرية وبنظام الدفاع الجوي(٢٥)بالاضافة الى خط أنابيب النفط العراقي، ويشير تحديدا الى أن هناك مستودعات كبيرة مملوءة بالنفط عند محطات ضخ الانابيب وفي طرابلس وانه لذلك (يجب أن يحسب حساب للوجود الدائم لاحتياجات كبيرة في منطقة الانتداب في حال الانقطاع المؤقت للخط النفطي)(٢٦) .

انما حين كتب التقرير ، وعلى الرغم من أهمية سورية الاستراتيجية التي يشير اليها ، فلم يشعر العسكريون الالمان بضرورة ماسة لتصميم اقتحام أو احتلال المنطقة، وذلك لانه حتى تموز ١٩٤١ كان هناك مندوب حكومة (فيشي) الفرنسية المتعاونة مع المحتل الالماني بحكم الانتداب ، ومعنى ذلك أنه كان باستطاعة الجيوش الالمانية استخدام

الجدول ١ ب
التقرير ، ١٣/٤

التصدير السلعي السوري
(الكميات بالطن ـ بالوحدة)

	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨
١ ـ مواد غذائية :			
حيوانات حية	٧٩	٣٩	٦٠
زبدة	٣٣٩	١٦٤	٤٨٨
بيض	٥٧٦ر٥	٣٥١ر٥	٦٢٠ر٥
أمعاء	٧٢	١٢١	٨٤
حبوب ودقيق	٣٠٣ر١٦٤	٨٠٧ر٦٤	٢٨١ر٧١
فاصولياء وعدس	١٢٩ر١٣	٤٥٩ر٨	٢٦٢ر١٦
بصل	١٧٥ر١٠	٢٤٣ر٢١	٧٢٢ر٢١
برتقال	٢٣٥ر٦	٨٩٩ر١٥	٠٨٩ر١٩
ليمون	٠٤٨ر٨	٦٨٢ر١٠	٣٠٠ر٩
كونسروة	٤٠٩ر٢	٥٤٧ر٣	١٠٩ر٥
زيتون	٥٩٥ر١١	٧٠٦ر١٥	٨٩٠ر٩
زيوت نباتية	١١٥ر٨	٩٣٨ر٨	٠٨٨ر٩
تبغ ـ تبغ مصنع	٧٧٥	٢٠٨ر١	٩٣١ر١
٢ ـ مواد صناعية خام :			
قطن	٤٨٥ر٣	٠٣٢ر٣	٠٢١ر٢
صوف	١٨٢ر٣	٩١١ر٣	٧٢٢ر١
حرير	١٩٤	١٨٢	٢٦٩
جلود خام	٣٠٤ر١	٤٦٢ر١	٥٥٩
٣ ـ مصنوعات :			
اسمنت	٧٨٨ر٢٨	١٨٨ر٦٥	٦٢٤ر٤٨
صابون	٧٤٥	١٠٢ر١	١١٨ر١
جلود مصنعة	٨٥٠	٠٥٣ر١	٨١٩
أثاث	٥٧٥	٦٠٢	٤١٥
خيوط قطنية	٦٧	٤٤٢	٢٣٢
منسوجات من حرير صناعي	١٧٦	٣٠٠	٣٠٠
منسوجات تركيبية	٢٥٣	٣٦٤	٣٨١

المرافق الاستراتيجية السورية اذا كانت الامور تتطلب ذلك ، وهي فعلا استخدمت المطارات العسكرية وصممت استخدام السكة الحديدية المارة من حلب الى بغداد(٢٧). واعتبارا من منتصف عام ١٩٤١ حين حررت جيوش (فرنسا الحرة) وبريطانية منطقة الانتداب من سيطرة حكومة فيشي أخذت مصلحة الحكومة النازية في اقامة جيوش المانية في الشرق الاوسط تتضاءل وذلك لان كل الجهود الحربيةالالمانية منذ تموز ١٩٤١ تركزت على الحرب التي شنها النازيون ضد الاتحاد السوفييتي .

أما الاقتصاد السوري فهناك برأيي شيئان رئيسان ملفتان للنظر ، أولهما النصيب الكبير الذي تشترك به فلسطين في التجارة الخارجية السورية ، وتبلغ هذه النسبة كما ذكرنا ما بين ثلث ونصف الصادرات السورية ويعادل ذلك مبلغا من ٣ — ٨ مليار ليرة سورية . وهذا يشير — اضافة الى كل ما يفيده من دلالات على القوة الاقتصادية الفلسطينية وعلى قوة الارتباط الاقتصادي بين سورية ولبنان وفلسطين المستمر رغم الحدود الاستعمارية — يشير الى عامل يجب أن يؤخذ في الحسبان في بداية الفترات اللاحقة للتاريخ السوري ، ويدور حول الخسارة الاقتصادية الكبيرة التي عانت منها سورية من جراء انشاء دولة اسرائيل في عام ١٩٤٨ .

والثاني : وهذا أيضا يتعلق بالتجارة الخارجية السورية ، هو بالنسبة للمنتجات المصنعة في الصادرات السورية ، والتي تتكون من الزبدة والطحين والكنسروة والزيوت النباتية والاسمنت والصابون والجلود المدبوغة والاثاث ومختلف الغزول والانسجة والملابس والاحذية وما يضاف الى ذلك من مصنوعات أخرى مختلفة التي تبلغ اكثر من نصف قيمة الصادرات السورية واللبنانية ، بينما لا تشكل الخامات الصناعية مثل القطن والصوف والحرير والجلود (الخام) أكثر من ١٠ بالمئة من صادرات سورية ، في عام ١٩٣٨ . أضف الى ذلك أن حصة فرنسا من الصادرات السورية لا يزيد عن الـ ١٧٫٦ بالمئة والحصة الانكليزية تبقى بحدود الـ ٦٪ ، وأن التصدير السوري الى بلدان المنطقة أي فلسطين كما ذكرنا والسعودية والعراق وتركية ومصر والاردن يزيد عن ٥٠٪ باستمرار . أما الاستيراد السوري من هذه البلدان ويبلغ ١٥٪ من كافة مستورداتها ، واذا أخذنا كل ذلك بعين الاعتبار يبدو أن الاقتصاد السوري واللبناني لا يعطي صورة اقتصاد استعماري مثالي ، فيما يتعلق بتجارة الانتداب الخارجية على الاقل .

الحواشـــي

(١) انظـر :

O. M. G. U. S. (Office fof Military Government for Germany, Uniteb States) ; Ermittlungen gegen die IG Farbennidustrie - September 1945 - NÖrdlingen 1986, p. 319 .

(٢) المصدر نفسـه ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ .

(٣) انظـر

IG Farbenindustrie AG, Volkswirtschaftliche Abteilung, Berlin; Wirtschaftsbericht Syrien / Libanon(VOWI 4412) , Berlin, 28 . Juli 1941 .

الوثيقة موجودة في (أرشيف باير ، ليفركوسن) ، ألمانيا الاتحادية .

(٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٥ .

(٥) ص ١٠ .

(٦) ص ١١ .

(٧) ص ١١ .

(٨) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١ .

(٩) ص ٥ .

(١٠) ص ١٦ .

(١١) ص ١٨ .

(١٢) المصدر نفسـه ، ج٣ ، ص ٣ .

(١٣) ص٤ وما بعدها .

(١٤) ص ٧ .

(١٥) ص ٧ .

(١٦) ص ١١ الى ٢١ .

(١٧) المصدر نفسه ، ج٤ ،ص ١–٢ .

(١٨) ص ١٢ – ٢٦ .

(١٩) المصدر نفسه ، ج٥ ، ص ٢ .

(٢٠) ص ٦– ٧ .

(٢١) ص ٨ .

(٢٢) ص ٩ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ١٠ .

(٢٤) ج١، ص ١٧ .

(٢٥) ص ٢٢ .

(٢٦) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٣ .

(٢٧) انظر لموضوع استخدام الجيش الالماني المرافق العسـكرية في سـورية في عـام ١٩٤١ ، كتـاب وليد المعلم : سورية ـ الطريق الى الحرية،دمشق ١٩٨٨ ص ٣٥٣ وما بعدها .